

في حضرة الشمس الجليلة

في حضرة الشمس الجليلة

رواية

ريم شعبان

الطبعة الأولى / ١٤٤١هـ، ٢٠٢٠م

حقوق الطبع محفوظة



دار العين للنشر

٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة

تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦

E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار

أ.د. أحمد شوقي

أ. خـالد فهمي

أ.د. فتح الله الشيخ

أ.د. فيصل يونس

أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي

المدير العام

د. فاطمة البودي

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٥٧٣٨ / ٢٠٢٠

I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 579 - 7

في حضرة الشمس الجليلة

رواية

ريم شعبان

دار العين للنشر



بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

شعبان، ريم

في حضرة الشمس الجليلة: رواية/ ريم شعبان.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠٢٠

ص؛ سم.

تدمك: ٧ ٥٧٩ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٥٧٢٨ / ٢٠٢٠

إلى أبي

الحب يكتبني الآن ولم أعد أحفل كيف سأكتبه..

فوحده بداية البداية ونهاية كل نهاية.

لا أدري منذ متى بدأت أعي بأنني أصبحو كل يوم على تفاصيل اليوم الذي سبقه! تمرّ عليّ دقائقه، كأنني عشتها في زمن مضى، وأضناني تكرارها. يلازميني شعور دفين، وصوت مُلح لا يكل ولا يملّ، يردد على مسامعي: ألن تغيري شيئاً مما لا تفتئين تقومين به، وباستسلام تعودين إليه؟ ألم تتعلمي بعد؟ لا يمكنك أن تسقطي الآن أيضاً. من المعيب تعثرُك في تلك الهوة مجدداً!

من أية هوة يحذرني، وعن أي سقوط محبط له ولي، ينهني؟ في النهاية، وجدت نفسي أتفق معه على تفقد زمنيّ، أقوم به كل سنة، أتأكد من أنني تعلمت شيئاً جديداً، من أنني ارتقيت بشكل ما، ببعد ما. لكنني بعد بضع سنوات، لا أعرف عددها، توقفتُ، وفقدتُ الاتصال، وضاعتْ مني الغاية. احتفيت بتحرري من كل شيء، من كل محاسبة، من أوهام كل ما تعلمناه وفي أيام لا حصر لها تبعناه، لكن رحلة البحث لا يمكنها أن تتوقف، وإن أوهمنا كلُّ شيء عكس ذلك.

بداية ما

أنظر إلى ساعة الحائط، وهي تشير إلى الساعة الخامسة، لديّ ثلاثون دقيقة فقط لأعقد هدنة مع هذه المرأة اللعينة، وأحصل على ما انتظرتة منها طوال اليوم. أين ذهب الكولان البني الشفاف؟ أنتقل من خزانة إلى أخرى، أبحث داخل الأدراج وعلى الرفوف، ولا أجد خاصتي، أحسم أمري وأخذ كولان أمني، مع أنني لا أطيق أن ألبس ثياب أحد. أجلس على حافة السرير على عجل، أثني ساقي، أضم طرف الكولان على بعضه لأدخل قدمي فيه، وأهمهم بضيق، سبق لأمني أن لبسته، كيف أعادته إلى الدرج إذا؟ لم يعد لديّ وقت، ما الذي يعرقل الأمور على هذا النحو؟ ما ليومي لا يمضي ميسراً! أرتدي تنورة جوخ بني ميدي، وسترة تويد فوقها، خيوطها ترابية التدرجات، أشدّ زناها على خصري، أنظر إلى وجهي في المرأة، يفضل ألا أضيف إلى بشرتي أي مساحيق أخرى، وإلا انقلبت محاولاتي لإخفاء البثور الناعمة عليها، إلى عكس ما رجوته منها.

لون أحمر الشفاه لائق عليّ، وشعري الطويل جميل، وإن كنت أتمنى لو كان أقل كثافة مما هو عليه اليوم، لا بد أن في الجو نسبة من الرطوبة. ليتني يكتفي بالنظر إلى عينيّ، فهما قلما خذلتاني. سأضع طبقة أخرى من الماسكارا. يا إلهي؛ الساعة الخامسة وعشرون دقيقة. لديّ عشر دقائق لأكون عند موقف الغساني بشارع حلب. أين حقبة يدي البنية؟

ألعن كل شيء، وأعدو مسرعة إلى موقف الحافلة، فتميم لا يجب الانتظار. الطقس دافئ، ونسمات دمشق تداعب كل شيء فيها، وتتمتم بكلمات حب لا تنتهي، وقلبي يخفق بسرعة تنذر بتوقفه، يسر بلني فرحي بلقائه، ينسكب مني على الطرقات ويتسلق الشرفات، يومض بوجوه المارة، فيتلففونه لوهلة رغباً عنهم، ثم يبتسمون لي، وفرحي ليس غريباً عنهم، فما من أحد لا يترقبه، ويهب عمره بانتظاره.

أصل إلى الموقف متأخرة خمس دقائق فلا أجده. أمشي بضع خطوات إلى الأمام ومثلها إلى الخلف، أتلفتُ حولي، علّه يراقبني من زاوية ما لا أرصدها، ربما لا يعرف هذا الموقف تماماً، لكن.. من لا يعرفه! تمضي عشر دقائق أخرى، أقلب فيها احتمالات تأخره إلى أن أرى سيارته تمشي ببطء بمحاذاتي وتتوقف، ووجهه يومئ قليلاً، يبحث عن وجهي، يستعجله. من هذه اللحظة تدخل أعضائي كلها في حالة غريبة عنها، تودّ أن ترضي ذلك الوجود المستبد، تحتفي به، تعدّ الموائد من أجله، تغرقه بحبها وحنانها، وتنسى إلى حين وظائفها، مهما علت هتافاتها. على شدة ما أتوق إليه، جوانب

مني تغيب وأنا معه، تتراجع معها تلقائيتي وعفويتي، خلف الجوقة التي تبالغ بالاحتفاء به.

أفتح باب سيارته، أنظر في وجهه، لا أستقبل نورًا يخرج من عينيه، وعلى عجل، أثب وأخذ مكاني بجواره، أنظر إلى الشارع أمامي، ويختفي كل شيء، يتوقف الناس عن الحركة، والشارع عن الحياة التي أعرفها، يختفي صوت الجلبة، يحتل طنين غريب أذني، طنين أعرفه حين أغطس تحت الماء، أجبر نفسي على العودة، أحفز حواسي على العمل، فيخذلني كل شيء. أحاول أن أنطق، فلا يخرج مني شيء، أود أن أسأله عن تأخره، عن يومه كيف مضى، فأصمت. الطريق مزدحم، وهو يناور بمهارة ليخرج بنا من سباق الجميع للوصول إلى وجهاتهم أو لهزيمة الوقت ليس إلا. يمدّ يده، يبسط كفه ويدعه يستريح على الصندوق الصغير بين مقعدينا، أنظر ببلاهة إلى كفه الممدودة، وأصابعه الأنيقة الممتلئة بعض الشيء، وأفهم ببطء دعوتها، فأدع كفي أخيرًا تستوطن كفه، فيضمها ويشد عليها، ثم يمرر إبهامه على أصابعي التي تتمسك بكفه، كأني على وشك السقوط. لحظات وأشهق بصوت مسموع، كأنني أخرجت رأسي من تحت الماء، وعاد إلى جسدي بعض من حياة.

يسحب يده من يدي: «ماذا تريدون أن تسمعي؟».

«إمم..... نحن على شفا غروب، وكم يليق به صوت أم كلثوم. ستسألني عن الأغنية التي أرغب بها، سأختار فكروني».

يبتسم أخيراً، وبعودة الحياة إليه يعود بعض آخر منها إليّ.

يمتد الطريق أمامنا طويلاً، وهو يشدو بكلمات الأغنية، وينظر نحوي فأضحك من الحركات التي يقوم بها وجهه وذراعه، فيستمر بعرضه، ويبالغ به كطفل صغير نال ثناء والدته لتوه، يرفع صوته ويلونه بطريقته الهزلية، فتعالى ضحكاتي، ولا تتوقف عيناى عن وجلهما، تحتلسان النظر إلى عينيه، تبحثان عن واحة سلام وحب، تركنا إليها وتطمئنا بأن كل شيء بخير. حس ناقص بالقبول يخلق الاضطراب داخلي، تشي به نظراته القصيرة، أو تلك التي لا تحمل أي مشاعر خاصة، يمكن لأي رجل أن يلقيها على فتاة عابرة وعلى قدر معقول من الجاذبية، لا كتلك التي أنظر بها إليه. نظراتي تحمل أسئلتها على الدوام، تحاصر كل ما يبدر عنه، تتأكد من أن لا شيء يعكر صفوها، ترتاح ثم تعود إلى عملها، تتملّى تفاصيله ولا تشبع منها، لكل منها قيمتها عندها، بدءاً من عينيه حتى حبات العرق متناهية الصغر على جبينه.

كم تمنيت لو أنه قطع الشارع المستقيم، ووصل به إلى آخره. تباطأ قليلاً قبل أن نمر أسفل باب شرقي، ليتسنى لي أن أخرج رأسي من نافذة سيارته، وأسترق النظر إلى شرفة بيت جدّي العالية، فلربما كانت خالتي تطلّان منها على العالم، فأحييهما، أو لربما توقفنا قليلاً، وصعدنا إليهما لشرب فنجان من الشاي المخمر الساخن على طريقتهما. حبه يكبلني ويضعفني، وحبهما لي لا حدود له، ربما وددت دوماً أن آخذه إليهما، وأنظر إليه حينها

من خلال أعينهما، وأن أدعه ينظر إليّ ملياً ويبصرني كما أنا، متخففة من وجهه ووجلي، من تردده وترددي، من كل أشباحه وأشباحي.

أستغرب دومًا من اتهامه لي بالقسوة، وبقدركي اليسيرة على جرحه، هل تؤذيه آرائي وأفكاري؟ ما الذي يضره فيها، فليدعها وشأنها تترّيض داخل رأسي، وليلهو عنها بقلبي وعينيّ، فليسترق النظر إليهما وليصمت، ليرتح وليلق رأسه بكل ثقله على صدري ويناام، لكنه لا يفعل.

تنطلق سيارته مسرعة بنا، أترقب إدراكنا لمطعم أو لقهوة، وإن كنت أتوجس من رؤية أحد لنا معا. يسألني وهو لا يزال يقود سيارته، بأن أخلع سترتي الصوف عني، وحين أفعل، يمد يده محاولاً فتح عروة قميصي، أنتفض خائفة، فيقول: «لو كنت تحبينني، لأريتني ثديك وحدك» ثم يأخذ يدي ويضعها بين ساقيه، كأنه يثبت ميله لي بما تفعله أنوثتي برجولته.

«ماذا تريدان؟»، يقولها هامسًا لكن بعيدًا عن أذنيّ، لا أقول: «قبّلي، انصهر بي ودعني أنصهر بك، أوقف رأسي الصغير، كما تقول، عن التفكير والخوف. اجعل من قبّلتك وشمًا على شفتيّ ثم ارحل قليلاً وعد إليّ متى تشاء».

انتظرتُه زمنًا لم يكن قصيرًا كي يحبني، كي يقترب حقًا من روحي، كي تضيع شفاته بشفتيّ، كما كان يصف ضياعهما بشفتيها، حسبّت بأنني السبب في غيابه وفي شقائه، بأنني قليلة عليه. يتدفق دم ثقيل لكل ركن

بداخلي، وتتسارع نبضات قلبي، تتدافع الصور والجمال بعدها، كما تفعل
دوماً، ولا ألحق عليها، تغيب عني تفاصيلها، ترفضها ذاكرتي وتقف على
بسراديبها المظلمة، وتخفي عني قبل أي أحد ما دار وراء جدرانها.
نللم أجزاءنا المتكسرة على عجل، ندير الموسيقى، ويباشر وحده
بالغناء.

الفصل الأول

هوية

1

ميّ تنظر بالمرآة

«مي... مي... مي... أين أنتِ؟».

«مي يجب أن تفهمي أن... ما كان عليك أن تقولي... مي أحسنت اليوم».

«لو أنّ أنفك أصغر مما هو عليه، لبدوت أجمل!».

«عينا مي لأبيها ووجهها لأُمها، حمدا لله ارتفعت قامتها عن معدل عُرف به أهل والدها، لكن ممن ورثت شعرها الكثيف كثير التموجات؟».

«لا تحتاج مي إلى أي مساعدة، فهي تدرس وحدها، والرياضيات مادتها المفضلة».

أنا دي على نفسي بصوت عالٍ «مي ... مي» فأرتبك من الصور التي يحملها ثم يختصرها اسمي.

مَن أنا؟ كثيرًا ما سألت نفسي!

هل أنا مي، ابنة نسيب الجلاد؟

هل أنا تلك الشابة التي يعرفها الناس على أنها في الثامنة والثلاثين من عمرها، وُلدت في دمشق، عيناها عسلتان ذابلتان، بشرتها بيضاء، شعرها كستنائي كثيف، درست هندسة العمارة، ولها شاب يبلغ من العمر سبعة عشر عامًا؟

ما الذي يقوله ذلك الصوت الذي يهمس أحيانًا بأذني وأهرب من سماعه؟ وفي المرات التي أسمعها، كيف تتظاهر نفسي بأنها لا دراية لها بما سمعته؟

وجه مَن ذلك الذي أراه في المرأة حين أنظر إلى نفسي؟

ما هذا الوجل المطل من عيني! لا يزال خوفي على عهدي به منذ طفولتي، أنظر إليه من مرآة سيارة أبي ونحن في طريق رحلتنا، برقع مدننا في صيفية كل عام، على ألحان عبد الحليم حافظ وأبي يردد وراءه «على حسب الريح ما يودي الريح ما يودي... وبياه أنا ماشي ماشي ماشي ولا بيدي...» أحرك رأسي إلى الأعلى قليلًا، فتملأ شفتي الصغيرتين صفحة المرأة، فأتباهى بنعموتها وبجمال انسيابها، أحنى رأسي قليلًا فترجع عيناى وتحتلان صفحة

المرأة، فأختال باتساعهما وبراءتهما وتهلعي طيبتهما وخوفهما، أميل برأسي قليلاً وأمس بزهر شعري الكستنائي الطويل الذي مسدته لي والدي من أجل الرحلة.

كبرتُ ولم تتغير ملامحي كثيراً، ربما فقدت نعومتني مبالغتها وتدوّرت قليلاً، ولم يعد شعري طويلاً، ووجهي ضيّع امتلاءه الطفولي في زمن ما، أما ذاك الوجع، فلم يصبه أي عطب، ينبض بقوة ما عرفت لها يوماً خبواً.

أكملُ دندنتي لأغنية أبي «واهي دنيا بتلعب بنا.... يمكن ترجع غناويننا».

ما الذي أحبه أبي وعلّقه بهذه الأغنية؟ كأنه كان يتلو على نفسه وعلينا قصتنا منذ البداية، فلا تفاجئنا الأيام بها، كأنه تنبأ بقدر قد لا يمنحه فرصة أن يغني أغنياته إلى آخر العمر على أرضه، كما تعود وكما كان يحلو له دوماً. لن يعود أبي مرة أخرى ويكمل أغنيته ويعيدها ويعيدها علينا وعلى نفسه ولن «تكون لي معاه ثاني يا بوي.. أيام حلوة وحكايات»، ماتت الحكايات في أرضها واقتلعت كل ما علق بها من جذوره، ورحلوا كلهم معه بلا عودة.

جبتُ العالم على قدمي الصغيرتين، مرتدية أجمل ثيابي، وعبق عطري يفوح مني أينما تلفت، يسبقني قبل أن ألقى السلام ويلحقني متأخراً حين أنصرف. لم أذكر أنني أهملتُ مظهري في يوم من الأيام، متأهبة دوماً لمفاجآت قدر لا يأتي. أراقب المارة وأنظر في عيونهم بفضول لا يخبو، لا ألبث أن أقطعه

إذا لفت انتباههم، وأستمر في السير. لم يتغير شيء في الطفلة ذات السنوات الخمس كل ذلك الزمن الغابر، وكما كان يها بها بائعو غزل البنات فيترددون بالخروج عن صمتهم ودعوتها للعب معهم، بات يها بها الجميع.

ما أكثر مخاوفي، وما أشد فتكها بي! تسيّجني داخل أسوارها، فيما تتوق روحي إلى العدو في بساتين على مدّ النظر والتحليق في فضاء فسيح، فيغدو كل شيء صغيراً ولطيفاً. منذ متى ولدت في مخاوفي؟ ومن الذي وكلها على أمني ويومي؟

هل جلبتها معي من أعمار أخرى؟ ما الذي مرّ عليّ فيها ووشم حزنه على روحي وكبلها به على هذا النحو؟ أكانت أيامي الماضية أقسى من أيامي الآن؟ هل شهدت فيها على وطن يحترق ووجوه شبابه وأطفاله تملأ أوراق نعوات موزعة على امتداد شوارعه؟

كيف يُعدّ الخائف نفسه لخوف بهذه القامة؟ ما الذي يذكّرني به الصوت المرتجف في داخلي، ما الذي أخفقت به في أعمار مضت ولا يودّني أن أخفق به الآن؟

من يقوى أن يكون شاهداً على فاجعتنا ولا يُخفق؟

منذ سنين لا أتقن إحصاءها، كنتُ أمشي في شوارع مدينتي وأرى بأنها ستحترق. راقبتُ عمليات ترميم المدينة القديمة، وعرفت بداخلي بأنها لن تصلح شيئاً. كنت أنظر في عيون الناس، أودّ لو أستوقفهم، أتوسل

إليهم بألا يسمحون لمدينتهم بأن تستسلم، أيقنتُ بأنها مسئوليتهم وبأنهم سيعجزون عن حمايتها ولن يعوا فداحة تقصيرهم بحقها إلا بعد فوات الأوان. كنتُ وكأني أمشي في زمن آخر، متواز مع زمن يمرّ هو الآخر أمامي، أرى فيه ما سيحدث وما يحدث في آن، وصوت في داخلي يدوي، يودّ لو يتشل اللحظة المقبلة من كبوتها، صوت لم يسمح لي بالانتشاء بجمال مدينتي وبسيرها الحثيث والبطيء نحو غدٍ واعد.

هل تشبه مخاوفي في غيّها مخاوف أحد؟ وهل تفتك بهم كما تفعل معي؟

تقف مخاوفي بيني وبين كل شيء، كستارة تحجبني عن الجميع، عن الناس، عن اللحظة، حتى عن الكلمات. تمنعني مخاوفي عن الآن، وكأن في اللحظة التي مضت وتلك القادمة نجاتي، وما في الآن إلا هلاكي. تجربني على اختلاق وهم أحياء وحدي في زمن آخر لا ألتقي فيه بأحد.

أمضي ساعات كل يوم، وأنا أجوب شوارع مدينة تورونتو، أقدم نفسي إليها وأتعرّف على من ستغدو وطنًا لي بعد حين. بلاد سخية بجماها، كما بلطفها، جمال ولطف يحترمانك، ويفرضان عليك طاعتها، فتمشي حذرًا من أن تخرج عنها، فأنت لا تريد أن تكرر الخطأ هنا، وحدك تعرف كم كان ثمنه فادحًا.

تعاودني جلبة الأصوات الداعية إلى الهدى كما إلى الصلاة بين حين وآخر. أعتزّ لنفسي أنني أفتقدها مع ضجري التاريخي من إلحاحها.

لقد أعطيت الجميع حقهم كاملاً خلال طفولتي وبعدها بسنيّ طويلة، وأرغب الآن بالصمت، بحرية ألا أسمع نداء أحد.

في ليلة مقمرة، كنت أمشي بلا غاية، في شوارع مدينة تورونتو الصماء - ستفهم هي ذلك ولن تعاتبني، إن جربت الحياة يوماً في إحدى مدنها - فتهدت ولم أعد أعرف أين أنا، لم أخف أو أرتبك، فالأمان يطوّق كل شيء هنا، ويمكننا أن نجوبها غائبين داخل أنفسنا، ساهمين في عوالمنا.

هل كانت رائحة ما، أو صوت خطوات المارة وضحكاتهم هي التي عادت بي إلى طفولتي، إلى شوارع مدينتي؟ ابتسمتُ وقلت لنفسي إن ولادتي في أرض الشام، في مدينة دمشق، كانت من أكثر النعم التي منيتُ بها، دمشق معشوقة الله والتاريخ، النائمة كالأميرة في كل أساطيره، الخالدة بأحلام ورؤى أنبيائه وقديسيه. تدفقت الذكرى في داخلي، كأني أتلوها على نفسي، أواجه بها هذه المدينة الغريبة عليّ، أقول لها إن لي تاريخاً، ووطناً يحبني، حتى إن كنت قد غادرته ولم أكن قد بلغت أربعين يوماً بعد، وانتصبت الغربة كالبوم على أيامي من وقتها، زمن عشته أقصر من غيري، فبدلاً من أن تمتد سنتي لاثني عشر شهراً، ككل الناس، تقلصت إلى ثلاثة شهور فقط، هي المدة التي أقضيها في ربوع وطني، في صيف كل عام.

كانت عائلة جدّي لأمي، كما عائلة جدّي لأبي، تسكن المدينة القديمة، ما جعل حاراتها تسكن روحي، كأني لم أعرف بأي عمر سواها. قضيتُ طفولتي أمشي في أزقتها، أملاً رثييّ بعبير كل ما يفوح منها، وما أكثر منابع

عقبها، أدخل دكاكينها، دكانًا دكانًا، دهرًا من الزمان، ولم ينته عددها، ولم أستطع أن أتوقف عن اكتشاف المزيد منها. مي، سمّاني خالي علي، لم يلبث بعدها بعقدين أن تركني ورحل. كان لي كل يوم مشوار مع خالتي سلوى، يبدأ من حارة الزيتون بالقرب من باب شرقي، أحد أبواب مدينتي السبعة، أعدّ فيه الخطوات في طريقنا، إلى أن نصل إلى محل «ديروان» للحلويات، فالتهم قمع «اللوكي كريم» الذي أحب بالنهم نفسه كل مرة، وحين ندرك موقف أو توبيسات باب توما، تشتري لي خالتي من الصببة الذين يجلسون بصواني غزل البنات، قطعتين ملفوفتين منه، عليهما رشّة من الفستق الحلبي، أحملها معي، في رحلتنا الطويلة التي تبتدئ من هذه المحطة، وتلفّ الكثير من شوارع دمشق لتعود إلى نقطة البداية خلال ساعتين، لا أشبع فيهما من مراقبة الناس والابتسام لهم أينما حلوا، ومن الاحتفال كل لحظة بحياة لا تتوقف فيها، لا الدهشة ولا الجمال.

كل يوم صباحا بابتداء الدوام المدرسي، كانت تتقدم حارة الزيتون وجوه الطلبة الشابة والوسيمة، المفعمّة بالحياة والحركة والحداقة، بعضهم يركضون وراء بعض، ويتضاحكون بصوت عالٍ. كثيرًا ما قررت أن أتبعهم على قدميّ بالماضي البعيد ولم أفعل، واكتفيت بالنظر إليهم من علو شرفتنا. ضيّعت فرصتي وخلت أنها بانتظاري مهما طال غيابي، ومواجهة ندمي بضياعها الآن كم هي موجهة.

تأتيني وجوههم بأحلامي أخيرًا وملاحها يغشاها سلام فريد، تروح

وتحيي مبتسمة وعلى مهلها، تتوغل بالشارع وتحتفي ما إن تلوح كنيسة الزيتون العتيقة على مشارف نهايته.. تراهم اليوم لا يزالون يدورون حول الطرف الشرقي للكنيسة ويعبرون الدهليز الضيق والطويل الموصل للمدخل الخلفي لمدرسة بطركية الروم الكاثوليك، وينضمون لمن سبقهم إلى هناك، أم إنهم تأخروا عن طابور تحية العلم، ولم يعد بباحتها أحداً! كم كنت أنتشي كلما رأيت لافتة «بطركية الروم الكاثوليك لأنطاكيا وسائر المشرق»، فتستفيق بداخلي طفولة، طالما انتعش كبرياؤها أمام تاريخ مديد ومجد تليد.

لا تزال رائحة مادة اللصق التي يستخدمها أبو جارو، فنان الموازييك، تعشعش بذاكرتي، كان محله بمدخل بناية بيت جدّي، وكنا نتبادل الابتسام في كل مرة أدخل أو أخرج فيها من المبنى، حيث كان يكثر التدخين ويخرج من أجل ذلك، ويقف عند مدخل محله، كنت بسببه قد عرفت أسرار هذه المهنة وأنا ما زلت بضع سنوات من عمري، كنت أمضي زمنا مسروقا أراقب به قصّه للأعواد المختلفة الألوان ورصّها بصبر بجوار بعضها بعضاً، على سطح خشبي يشكل أحد أضلاع صندوق الموازييك فيما بعد.

كان بيت جدّي صغيراً، لكنه كان يتسع لكل أطفال العائلة القادمين لزيارته في صيف كل عام، كنا نجري في أرجائه كأنه قصر بجنائن ورد، ونقضي الساعات على شرفتيه، إحداهما تطل على باب شرقي، والأخرى على كنيسة حارة الزيتون. حياة بأفراحها وأتراحها كانت تمر بشارعنا وتتابعها من علو، كأنها حكاية طويلة تتلوها علينا جدتنا ولا نسأم من تكرارها

أبدأ، من الصباح إلى المساء. فالجنازة كانت كالملمحة، تحتل الشارع بأسره على مدّ النظر، يعلن عنها عزف فرق الكشافة، التي تتقدم مسيرتها بطبوعها المحمولة ودفوفها الكبيرة الضخمة وآلاتها النفخية العديدة، يتبعها كل وجهاء الكنيسة بلباسهم الرسمي المطرز بخيوط الذهب وصولجاناتهم التي تدك الأرض بخفة، نرهبهم كأنهم وكلاء عن الموت، يعلنون عنه كصديق قديم لهم ولا يهابونه. ثم يظهر التابوت محمولاً بأيدي كثيرة، ومفتوحاً فيما لو أدرك الموت طفلاً أو شاباً، يلحقه مشياً أقرباء المتوفي ومعارفه، تتبع خطواتهم المتأنية ضربات الطبول العالية، فتنتفض قلوبنا تأثراً فنبكي معهم، يذوّبنا اللحن الجنائزي كلنا معاً، ويأخذنا إلى مطارح موغلة في قدمها وحزنها، فمدينتي لا تجيد التخلي عن طقوسها، ولها منها في كل مناسبة تصوّر أسر غني برموزه ومعانيه. كنت أراقب النساء المسربلات بحزنهن كما بالأسود من رؤوسهن لأخص أقدامهن، الصغيرات منهن والأكبر سناً، ينتحبن مستندات على بعضهن، غير عابئات بمن يراقبهن، حضور لم أره بمواكب حزننا. حين توفي جدّي، تجمعت النساء وتوزعن على شرفتي البيت، واشتد نحيبهن الخافت حين مر موكب تشييعه على عجل، وعندما سألتُ جدتي عن سبب اختلاف جنازته عن الجنازات التي اعتدنا مراقبة مسيرتها الطويلة والأسرة، اكتفت بالقول إننا إخوة ولا فرق بيننا.

أما الزفاف، فكان احتفالاً نُشرك به كل نوافذ المنزل، نتابعه من نافذة إلى أخرى، بشغف أطفال يتابعون مسرحاً للعرائس. أسترّجع اللحظات

الطويلة التي نترقب بها خروج العروس من السيارة وسعادة العريس حين يتلقفها أخيراً بساعده، ومشيهما المتلكئ، يقطعان به ساحة الكنيسة الكبيرة إلى أن يلجا مدخلها، ويعبرا الممر الطويل المسيّج بورد الجلايول الأبيض أو الأحمر أو كليهما معاً ويصلا إلى المذبح. ينتهي اليوم بتقبّلهم التهانى في ساحة الكنيسة. كانت جدتي بضع مرات، قد صحبتنا - نحن أحفادها - إلى الكنيسة، ودعتنا نجلس على المقاعد الخلفية كمدعوين للفرح، فيتناهى إلى سمعنا صوت القسيس يترنم باللاتينية بمراسم الزواج، يتبعه صوت الأورج، ترتل على ألحانه فتيات ذوات أصوات ملائكية، متخفيات بمكان غير مرئي، يطلقن أصواتهن من وإلى السماء. كنا نضحك ملء قلوبنا، كأن الفرحة فرحنا، والجميع أقرباء لنا، كأن الأسئلة التي أغرقتنا بعد ذلك لم تكن قد خلّقت بعد. كانت الصور تناسب أمامنا ببطء ساحر، كأن الأيام كانت تذرنا بأنها ستطوي بساطتها في يوم مهما بُعد أتى مسرعاً، وتمضي كأنها لم تكن.

قبل النوم، كنا نستلقي على سرائرنا الكبيرة المشتركة في الظلام، نركّز بسكينة كل شيء حولنا وبخطوات المشاه بشارعنا، نسمع وقعها كأنها تتتابع على بلاط غرفتنا، وهمساتهم بحميمية توشوش آذاننا، وكلما غفونا، لعبت ضحكاتهم بأسماعنا، إلى أن ننام أخيراً على هدهدات غناء السيدة الآتي من راديو خالي عليّ بالغرفة المجاورة. كنت أعرف أن هذه الغرفة ملاذي، وأنني في يوم ما، سأذهب إلى هناك، بكل هدوء، وألقي بجسدي

المتعب على أحد هذه الأسره، أفتح الأباجور الذي يعتليها ويخفي وراءه
النافذة التي تطل على الحياة في حارتنا، وأرقب ذلك السكون، الذي لا
تألف روجي غيره، يغطي كل شيء.

كانت حياة حقيقية، عفوية، بسيطة، نتقاسمها كـ رغيف الخبز الساخن،
كلنا مع بعضنا بعضاً، القريب والغريب والبعيد. متى وكيف فقدنا كل
هذا الطعم؟

2

زياد

أحمله بين يديّ، أحملق في تقاطيعه، فتتملكني مخاوف جديدة، لا عهد لي بها. كائن صغير بلا حيلة، جفناه مغلقان على حذقتين، سأرى العالم بدءاً من هذه اللحظة من خلالهما، وأحس بأنني لن أراه بعدهما كما كان. رموشه كثيفة وإن كانت بلا لون بعد، وزنه لا يتجاوز الكيلوجرامين والنصف جرام وبشرته بيضاء قطنية كالغيوم التي مددتُ إليها يدي، وودت الإمساك بها ثم التمرغ فيها، وهي الآن بين يديّ، تترقب معانقتي ومنحي نفسها كاملة.

يعتقد زياد أنه نما في رحمي وخرج منه إلى الحياة، فأخذ كل منا دوره

وانتهت الحكاية، ولا يعلم عن أسرار ذلك شيئاً. إنها كحكاية كل منا مع الكون، ففي لحظة قد لا تأتي أبداً، ندرك حكمة وجودنا، وفي لحظات ما أكثرها، نلج منها إلى المعركة؛ صراع طويل مع كل ما نعتقد بأننا نراه على حقيقته، وبين الهيئات اللا نهائية التي يودُّ الآخرون فرضها على رؤيتنا، وبين الحقيقة التي يتمنى المترائي لنا ببساطة لو نراه عليها. نزاع أزلي بين إرادتنا وبين إرادة الآخرين، وبين إرادة كل شيء يقع بينهما. تيه لا نهاية له، تُفقد معه جدوى أي شيء.

لا أدري حقاً منذ متى ابتدأت مع زياد الحكاية، وأذكر تمامًا الدمية الشقراء التي قصصتُ لها شعرها حين كنت صغيرة، واعتبرتها منذ ذلك الحين طفلي الصغير. هل تكهنتُ بقدومه، أم أعدت حضوراً له لم يفارقني منذ أعمار طويلة؟

ولد زياد في داخلي منذ زمنٍ بياضٍ بعيد، ونما براحته في كل كياناتي، راقبني، قرأني ثم انتقى أن ينمو في أحشائي مجدداً ويشاركني تنفسي وغذائي كما تجاربي. اختار أن يحتمي بي ويحميني. ومن وقتها وأنا أسمع نداءاته وأرى هواجسه وأشتّم مخاوفه، تأتي حيّة ونقيّة، تأنس لي وتطلب حمايتي كما حكمتي.

معه يسلمني الزمن مقاليدَه وأسراره، فتراءى لي صور حياته كاملة، أتصفحها كنبوءة الأنبياء، ومضات تقتطع زمني كأنه ما عاد لي. صور كثيرة تتدافع، كأنها جرت حقاً وتبدل أمامي، أراه فيها صغيراً يعدو ضاحكاً

إليّ، يتلعثم بالأحرف وبالكلمات، ثم مراهمًا يترنح بين الطفولة والرجولة، يعانقني مرتجفًا ويقول قولًا حكيماً، ثم شابًا وسميًا، يدفعني بكلمات لاذعة بعيدًا. أما أنا فأقف على ناصية الحب ذاتها، أمدّ يدًا تودّ أن تدفع عنه الأذى فتفلح كما تخيب ولا تتغير ولا تضعف.

أحمله بين ذراعيّ وأنظر إلى رموشه الكثيفة التي تحرس زرقة عينيه، أتظلل بها من مخاوفي وضعفي، ألوذ بها عن مواعج الحياة وغدرها، ألون بها الأيام، فينتشليني الفرح من شوارع التيه التي أكثر الهيام بها ويعود بي إلى أحب الأماكن لديّ، إلى مدينة من مدن الحب، مدينة تمشي بها الأمهات وحدهن، أرضها زجاجية شفافة كالماء، تسنح لهن وحدهن أن يرين اللجنة كلما نظرن إلى أقدامهن.

3

نحن ما زلنا بخير

«هل يمكننا أن نسألكما، من أين أنتما؟».

«من روسيا أم من بولندا؟».

توطدت علاقتي أنا وابني زياد، مع هذا السؤال، وعقدتُ هدنة فاشلة بين مشاعري وبين الجواب عليه، وما وجدت لي مخرجًا مع كل محاولاتي، إلى أن وصلت إلى المرحلة التي بتَّ أهزأ منه وأبتسم ثم أطرح جوابي كأحجية «نحن من أكثر المدن حزنًا في العالم!»، ثم أنظر في عيون السائلين بعينين جريئتين تتحديان أن ترمشا أو أن تسمحا لدموعهما بالخروج في حضور الغرباء، فتخرج غصبًا عني وعنهم، لا تودان بالطبع لومهم، ولا انكشاف

حزن لا قاع له أمامهم، ومع ذلك تقولان لهم خفية، كيف سمحتم لكل هذا أن يحصل لنا؟

نحن مفجوعون، مكسّرون إلى أجزاء كثيرة، لم تعد تعرف كيف تلملم بعضها لتكوننا من جديد. نسير هائمين على وجوهنا ببلاد الله الواسعة طوال اليوم، يوما وراء يوم، ولا نتقدم خطوة، كأن أقدامنا ما فارقت مكانها هناك، نتابع مشاهد مأساتنا، ولا نقوى على الحركة ولا على اتخاذ أي قرار. وبالقدر الذي نحن فيه مفجوعون، نحن كاذبون، ندّعي بأننا لا نرغب بطلب شيء من أحد، مع أنّنا نود لو بإمكاننا أن نتحب على صدر أحد قبل طلبنا لأي شيء.

يساندنا من كانوا يوما مكاننا بالدعاء لنا، ثم بالنصيحة بوجوب التركيز على «الآن» وبأنه كل ما نملك، فنصدقهم وندفع بجروح مفتوحة تولد على مدار الدقائق والساعات جانبًا، فيعيدون علينا ذكريات فواجعهم، التي طالما أعطيناها من قوتنا ويومنا، فلا نستوعب درسهم، ما الذي حدث لجوقة «الآن» التي دعونا إليها!

لا يوجد أحد حقًا في هذه اللحظة معك، أنت وحدك بالحب، كما أنت وحدك في هذه الفاجعة. تقف مع الجميع متأملاً لجثة ملقاة في أحد شوارع مدينتك، جثة هادمة لا تشبهك، وكم تشبهك! تتناهى إلى سمعك أسماء القتلة، فتتغير في اليوم الذي يليه، فتتلم أن تصمّ أذنيك وتصمت، فبعد موتك، ما الذي سيهمك بمن أدين بإهدار عمرك!

أين أهرب من انكسار والديّ، ومن جمل قصيرة بكلمات ضئيلة تحمل حزن وطن بأكمله بين طياتها، ما كان لهما أن يشهدا الفجيعة، قدرهما كان سيكون بسيطاً ويشبه أقدار كل من رحلوا قبلهما، وودّعوا أوطانهم في عزها.

ليتني أوقف هذه الحرب المسعورة لأيام قليلة فقط، فأعيد لأعينها بريقها.

يخطر على بالي بيوم مأساوي آخر في مدينتي، عمر، الشاب الذي كان يرافقني أثناء رحلاتي إلى المدينة القديمة كل يوم، فأسأل أُمّي عنه. كان شابا وسيما وذكيا، صنائعيًا، تعلّم مهنة النجارة منذ الصغر ولم يكمل تعليمه، وحين تعذّر عليه أن يفتح محل نجارة لحسابه، انتهى به الأمر ينقل الركاب من مكان إلى آخر بسيارته الخاصة، التابعة لمكتب سيارات أجرة في منطقتنا. كان عمر يتولى عني الحديث مع التجار والصنائعية، بحنكة وبدبلو ماسية، أذهلتني على الدوام، ودعتني في النهاية أن أوكل إليه مهام كثيرة، كان يجب أن أقوم بها وحدي. كنا في طريقنا الطويل إلى المدينة القديمة، نتكلم عن دمشق وعراقتها وقصص وأقوال جده وسكان حي الميدان الذي ولد به وطبائعهم وعاداتهم، لا يخلو حديثه عن وصفه للطعام في شارع الميدان الشهير الذي تتوزع فيه المطاعم ومحلات الحلويات على جانبيه، وقد نهى رحلتنا بالمرور به، والتوقف عند أحد المطاعم المقترحة منه، لأتذوق أكلة من أكلاتهم ذائعة الصيت. كان الشارع مضيئًا طوال الليل، كأن الظلام

لا يزوره أبداً، والخير منهمل من المحلات على اختلاف أصنافها إلى خارجها، ومعروض كأنه حرفيات يدوية على درجة عالية من الإبداع والدقة، وعمر يتنقل بينها كابن بار، يختار فيما سينتقيه ويبهري به في كل مرة.

كنت أنهي يومي معه بالتأكد على موهبته وحذاقته، وبنصحه بوجوب أن يجد له مهنة أخرى، حتى إنني دفعته لتوطيد علاقته مع النجار الذي أتعامل معه، علّه يعمل معه في المستقبل، واستمررت بإلحاحي إلى أن استجاب له بعد بضع سنين، وانضم إلى مكتب محاماة أخيه، الذي أصبح فيما بعد قاضياً، وعمل معه معقّباً لمعاملات المكتب.

بعد بضعة أيام من تفجير أحد الانتحاريين نفسه وسط القصر العدلي بدمشق، تذكرتُ عمر وأخاه، وجفّلت من احتمالية وجودهما هناك يومها.

أكلم خالتي فتقول: «نحن بخير، لا ننام ليلاً، فلم نعتد صوت الرصاص وهدير الطائرات وصخب الصواريخ بعد، خالتك على حالها، تقرأ وتكلم أصدقاءها بالفرنسية على الهاتف، وخالك لا يأكل ولا يشتكي، ويحمد الله على كل شيء».

تقول والدتي: «نلبس طبقات من الملابس فوق أبداننا لشعر بالدفء، ونذبّر أمر حاجتنا من الماء، نأكل جيداً مع ارتفاع الأسعار، نتابع المسلسلات السورية والتركية، نلتقي مع أقربائنا وأصحابنا في مناسبات العزاء، نرجع إلى البيت مبكراً قبل حلول الظلام، ندعو الله أن يوفقكم دوماً في غربتكم،

لا تقلقوا بشأننا، فنحن على ما يرام. سأتصل بعمر، وأطمئنك عنه لاحقاً اليوم، لم يخطر على بالي أنه قد يكون بالقصر العدلي في هذا اليوم المشؤم».

يقول أبي: «أصلي الليل بطوله من أجلك أنت وابنك وشقيقتك وأولادها، لا تلومي أحداً يا ابنتي، فما مرّ على الجميع ليس بالقليل، لكل بلد أيضاً ظروفه وتاريخ طويل من الخيانات والخianات. لا بد أن ينجلي كل نزاع، نحن هنا لا ينقصنا شيء، إلا قضاء الصيف معكم، أجلس كل يوم لساعات أعيد على نفسي أوقاتنا التي قضيناها معاً، وأحلم وأخطط لكل ما أرغب أن أقوم به ولم أقم به بعد من أجلكم».

في آخر اليوم تصلني رسالة نصية من أمي، وأنا في طريقي إلى البيت بسيارتي، رسالة من بضع كلمات، أقرأها فيغيب الطريق عن ناظري، ويهطل المطر على قلبي وروحي، أهجس بواقع لا يمكنه أن يكون لمدينتي، لا أصدق إلى الآن أي شيء منه؛

«عمر وأخوه وعائلته جميعاً بخير».

4

زمن آخر

يقول تميم: «انتظريني، سأحبك عما قريب، فطالما كان من اليسير عليّ الوقوع في الحب».

ربما أحببني تميم ليوم أو لأكثر أم ربما لم يفعل. ما الذي يجعله وجلاً من التقدم لخطوات نحوي؟

أراه يمدّ يديه لي ويسحبهما على عجل، هل تنتابه مخاوفه أم مخاوفي؟ هل يخلّذه ضعفه أم ضعفي؟ هل يصدّق عمق مشاعري نحوه، أم تراه يعتقد بأنه لا يستحقها؟

عاد اليوم ذاته يكرر نفسه على زمني، أصبح فيه على هوة مفتوحة

داخلي، أتجول في غرف منزلي أنتظر اتصاله كما وعدني، فيطول انتظاري، فأحرق عهداً اتخذته بالأبأدر بالاتصال به فأفعل. يسألني المورر به حين يخلو مكتبه من الموظفين، أثناء استراحة الغداء أو مساءً في نهاية الدوام. وحين يجيبه صمتي، يدعم رغبته بكلمات شوق محسوبة، لا تخرج عن ضنّ عهده فيها، فأستكين لها وأخالها تغدق عليّ اليوم بعباء ما كان لي منها بالأمس، فأرضى بعرضه وأنتظر حلول المساء. أرثدي ثيابي على عجل، وقبل أن أخرج أنظر إلى مرآتي مستغربة من اعتلاي ومن خبو جاذبتي، تراني أنظر إليّ بعينه أم بعيني؟

أستعجل الوصول إليه كأني ألتقيه بعد غياب، أعدو فوق كل ما يعترض طريقي من معالم تضج بالحياة وتناديني، تستوقفني، تشدني من أذيال ثوبي فلا أعير أيّاً منها انتباهي. أصل إلى مكتبه وأنا ألهث من تعبتي كأني كنت أعدو في سباق طويل. أفتح باب مكتبه، فيستقبلني وجهه بالأمس، وجه لا يطيل النظر إليّ، يتظاهر بانشغاله بأوراق على مكتبه، فأجلس على المقعد أمامه بعد دعوة رسمية منه يقطعها بأخرى تدعوني للحاق به إلى غرفة صغيرة تقبع فيها آلة التصوير الضوئية، فيدفعني نحوها ويبدأ بطقوس غيابه البعيد، غياب يجبرني عليه، يأسرني بين جدران الضيقة فلا أملك من نفسي شيئاً. أتبع تعليماته الصارمة، فيتعطل جسدي عن العمل بسذاجته وتلقائيته، يفقد عفويته وطهره ويمثّل له، عله في مكان ما يلتقي به، وربما يلتحم أخيراً معه.

دقائق قصيرة وينتهي كل شيء، كل ما تفتُّ إليه ولم أُنله إلى اليوم أيضًا.
يتركني أَللم نفسي، ويعود إلى أوراقه المبعثرة، ويشيح بوجهه عني كأنه
يدعوني إلى الرحيل.

الفصل الثاني

لست وحدك

1

بريق عينيها

تتوالى أيامي هنا وتتداخل ببعضها إلى أن يقطع رتابتها بريق عينيها. في يوم عادي لا يبدو مختلفاً بشيء عن غيره، ألتقيها عند طبيب العائلة الذي صودف أن نكون كلتانا مريضتيه. تبدو شابة على مشارف العقد الرابع من عمرها، جميلة، ممشوقة القامة، عيناها عسليتان واسعتان، في بحرهما تنام كل الحكايا، أما شعرها فبنديقي ومسترسل بهدوء على كتفيها. كم تبدو بريئة، مرتبكة وخائفة وعيناها لا تكفان عن إعطاء كل إشارات الدهشة والفرح والخوف، وهي تتحدث لامرأة شابة برفقتها تبدو متقدمة الذكاء والحضور.

يتناهى إلى مسمعي حديث متقطع لها عن الفن التشكيلي واهتمامها المتردد به، وتتبعه بما يبتاعها من غرائب في دروس الرسم التي تذهب إليها أسبوعياً، التي يجب أن يكون انبهارها بها منكشفاً على اللون والتكنيك وكل ما يدرّس في دورات الرسم العادية.

تقول الفتاة: «أقف على حافة التل، ولا أقوى على النظر إلى عمق الهاوية ولا على إطلاق ذراعي للريح».

أستمر باستراق السمع إلى حديثها متأهبة للحظة مناسبة يمكنني أن أدلف منها وأشاركهما حوارهما. خجلة، أبعد مرغمة ناظريّ عنهما، ويستمر سمعي باستقبال حديثهما، فلا يأتيني إلا اضطراب وخوف الفتاة مما لا يبدو أنني أستوعبه، فيشتعل فضول لا يمكنه الاحتباس بداخلي فأعود إلى الحملقة فيهما. أبتسم ابتسامات متواترة كلها يقين، بالذي على الفتاة القيام به، ولا أعرف حقاً من أين أتيت به، إلى أن استجمعت جرأتي ورميت بكلماتي في وجهيهما:

«لا تخافي أيتها الجميلة، العمر سيمضي بك سريعاً وأنتِ تنظرين إلى القاع، فلتبشي وتدعي الفن يأخذك إلى عوالمه».

تنظر الفتاتان نحوي بوجوم، وبعد لحظة صمت قصيرة، تقطعها الفتاة الأخرى قائلة: «آه، يا للمفاجأة! تتكلمين العربية، أسفستان لإزعاجك، لا بد أن صوتنا كان عالياً. أنا أدعى ليلي من العراق، فلتعرفينا بنفسك».

«أنا مي، قادمة من دمشق وما زلت حديثة العهد بهذه المدينة، آسفة لتطفلي، لم أستطع أن أمنع نفسي عن سماعكما».

تبتسم الفتاة الخائفة ولا تشي ملاحظها بالدهشة من تعقيب امرأة غريبة لم تنتبه أي منهما لجلوسها مقابلهما، تفكر بالرد ولا يخرج منها إلا قولها: «اسمي فاتن، أردنية من أصول فلسطينية، تشرفنا بمعرفتك مي». تنظر نحوي بعينين وجلتين كم أعرفهما وسأذكر نفسي مذكرتيهما ولسني طويلاً، بضعفهما كما بقوتها، بحضورهما، بقدرتهما على قراءة كل شيء وترددهما الأبدى بما تستقبلانه.

تبادل جمل التعارف المعهودة بين الغرباء، تقطعها ابتسامات طويلة ونظرات واثقة، كأنها تستبصر نبأ أوريا قدراً ساراً، فتبعث السلام بنفس مستقبلها. كان لقاءنا التالي ثلاثتنا سريعاً بعد ذلك اليوم، ذكرنا بكل اللقاءات المؤجلة مع الآخرين، الملبسة كل الأعذار غير المقنعة، التي تعرف كل منا تماماً لماذا تحتلقها وتتحامى فيها.

2

هيئات حب

أنتظر لقائي بفتاتين لا أعرفهما كأني كنت أترقبه منذ زمن بعيد، أذهب إليه يرافقتني فرح طفولي متحرر من مخاوفي إلى حين، أفقده كأنه أطل غيابه. نلتقي كما اقترحت ليلى في مقهى قريب من منازلنا، في شمال مدينة تورونتو مترامية الأطراف، داخل سوق تجاري فخم وصغير نسبياً، مزدحم بالناس عن آخره، وهدير أصواتهم ودعسات أقدامهم، ستحجب أصواتنا التي ستندلع عما قريب، ولن تحسب حساب أحد. يتبع المقهى لمركز أغذية غورميه له أفرع كثيرة بالمدينة، طاولاته غير الموحدة الشكل، تشغل مساحة كبيرة عند أحد مداخل السوق، تظلل بعضها وحدات إنارة محمولة على قواعد حديدية عالية تعتليها قبعات ضخمة، تبث ضوءاً أصفر دافئاً، تضفي

على المكان جواً حميمياً يتحدى ضوءاً تسير بمحاذاته بلا انقطاع. مكان يبرع بجمع أصناف عديدة من البشر ببساطة وجزالة تمتننها مدينته، تبعث دوماً على عجب لا يمل من انبهاره.

أت إلى المقهى متأخرة عن موعدنا بضع دقائق، كعادتي كما ستدرك فاتن وليل لاحقاً، فألمحهما منهنمكتين بحديثهما. أسرع الخطأ، أسحب مقعدي وأنضم إليهما كأننا كنا بالأمس معاً، واليوم سنكمل حديثنا من المكان الذي توقفنا فيه. ألقى من الترحيب ما يجعلني أسند ظهري وأسترخي بجلستي، تتابع فاتن وليل حديثهما، بعد أن تقفز فاتن إلى الداخل وتأتي لي بقهوة ساخنة، فأنصت إليهما بشغف. لا يأخذ حديثنا منذ اندلاعه بيننا المسالك التي يأخذها عادة بين الناس، وينهمر بيسر اندفاع مياه عذبة فوق ما يعترضها من مرتفعات وسهول.

فاتن، كانت أولى الوافدات إلى المقهى اليوم، انتقت لنا طاولة في الوسط، طلبت قهوتها وقبعت في كرسيها مسكونة بهواجس ما حدث معها بالأمس في درس الرسم:

«أستوقف نفسي كلما انهمرت أفكارى بسؤال ملح، إن كنت واهمة بكل ما أستقبله من أستاذي». تنظر نحوي ثم تتابع «وفي اللحظة التي كنت أتردد فيها بقرار البوح بكل شيء أمامك، قدمت ليلى، مبتسمة من بعيد، وإشراقة الصباح تتبعها وتير طريقها. ليلى حبيبتى، ضحيتى الوحيدة بتحمّل كل ما أعرضه عليها من تخيلات، كل أسبوع».

لمحتُ بعيني فاتن بلقائي بها عند الطيب بريقاً مشعاً بكل ألوان الفرح حين تتكلم عن أستاذها، تخشى الإقرار به أمام نفسها، فاعترفت لها بأنني أرى لديها شغفاً فريداً فيه، وبأن كل شعور جميل نحو أي أحد تجب معانقته وعدم محاربتة أو الوقوف في وجهه. لا أستغرب من جرأتي أمام ليلى وفاتن وفي داخلي ينمو شعور بألفة لا انصياح لها لمقاليذ الزمن، فأهدئ من نفسي اللوامة والمحاسبة، وأركّز بكل حضوري على ما سيقال.

بعد تردد تقول: «أعرف ما قد يجول بخاطركِ مي، وهو ما لا تفتأ ليلى تردده، هناك رهبة بالفعل من مشاعر مختلطة تعتريني بحضرته، كأنني أميل إليه عاطفياً!». تتوقف فاتن قليلاً عن الكلام، تدور عينها في الفراغ، فأتفرّس بملاحها الأسرة والمحبة، بعينها الواسعتين، وحاجبيها الطويلين والكثّين، اللذين يتركان الناظر إليهما، هائماً بمتابعة تناسقهما مع عينها لما لا نهاية، بوجهها البضاوي المائل لأن يكون طويلاً، بابتسامتها الجميلة والمريحة التي تكشف عن أسنان بيضاء، كبيرة ومتناسقة، لتعود إلى كلامها قائلة: «مي، هل ترين حقاً بأنني لا أعطي تجربتي مع أستاذي في المعهد حقها، وأكبّلها بأحكام مسبقة، قد تحرمني فرصة التطور على يديه في عالم الرسم، خوفاً من التعرف على شيء لا أعرفه، رهبة من غير المألوف، ربياً».

أرتشف دفقات سخية من قهوتي قبل أن تفتري، لأقول: «لا أدري حقاً، قلت لك ما أحسسته من فوري، وشعرت وفقاً لما سمعته منك، بالرهبة من أمور كثيرة».

تبتسم ليلى وتسأل فاتن كمن يريد لي مزيداً من الإثارة حول الموضوع: «ألن تصفي لي أستاذك الساحر وتخبرها عن ألامه التي يمارسها عليك؟».

تردّ فاتن محاولة ترتيب أفكارها التي اعتادت على غرابتها بعد أن تستوقفها ابتساماتها الخجول والمتابعة: «كيف يمكنني في كل لحظة ألا أستزيد من الوصف! وهل هو شيء يوصف؟ لا أدري ماذا يحدث لي، ولا أفهم أي شيء منه. مع انتهاء كل درس، أخرج مذهولة، أعيش حالة جديدة كلياً عن حالة الأسبوع الذي سبقه، كأنه في كل أسبوع يضاعف نسبة ما يمارسه عليّ، منتظراً تعاضم دهشتي أو ربما جنوني!». ثم تتابع: «مي، ما زلت لا تعرفين تماماً ما أتكلم عنه، أنت تركّزين الآن على ما بدر من عواطف متعثرة وتائهة نحوه، وأجد فيها تقولين منطقاً مقبولاً لديّ، لكنه من الصعب أن أفسر كل ما يحدث لي في قاعة الدرس بشكل منطقي، فهناك الكثير من الوقائع التي لا يمكنني وصفها، ولا علم لك بها بعد، هي تجربة لم أسمع عنها في عمري، ناهيك عن كوني لم أخبرها بحياتي من قبل. ما زلت أحبو في عالم الما ورائيات، مع أنني كنت مأخوذة به منذ صغري، وهذا الأستاذ - تحديداً - يستخدم خبرته وقدراته الفنية الكبيرة، إلى جانب قدرات لا أعرف ماذا أسميها، بالتأثير عليّ فنياً ولا فنياً. أحسست لبضع مرات كأنه يستخدم عليّ شكلاً من أشكال التنويم المغناطيسي. أثناء الدرس أشعر أحياناً بأنني مغيبّة ولست على طبيعتي، وحين أخرج منه،

أحس بوجع في رأسي، وأنسى في اليوم الذي يليه ماذا حدث. هناك بريق غريب في عينيه، لم أره على أحد قبله، وحين يوجّههما نحوي، أحس بأنها نفذتا إلى داخلي، وبأن لهما قوة استحواذية غريبة، فأخاف وأشيح بوجهي بعيداً عنهما ما استطعت. سبق أن أخبرت ليل بذلك، وأشعر براحة كبيرة بعد أن تقوم بشرح احتمالات ما يحدث بيننا، على ضوء دراستها وخبرتها، التي قد تتقاطع في بعض مسالكها مع ما يجري في هذا الفصل الغريب. أما من ناحية الميل العاطفي نحوه، فهو حتماً شيء يربكني، فأنا متيمة بزوجي، ولا أزال مغرمة به، ولا يمكنني نسيان سنوات انتظاري له.

أقول كأنني أستمهلهما: «يبدو أنه قد فاتني الكثير من بدايات هذه التجربة، وعليكما شرحها لي لكي أفهم. ثم من قال إنّ عليك فهم كل ما يتتابك وبسرعة وتسميته، أو إنّ أياً منه سيغيّر من مشاعرك نحو زوجك؟».

تجيبني فاتن، بعد أن تطيل النظر بعينيّ بخجل من تلقى وميضهما واستوعبه جيداً؛

«أعدك أن أخبرك مي عن بدايتي في مدرسة الرسم هذه، وعن الأحداث التي أوصلتني إلى مكاني اليوم، وسأشرح لك عما وصلت إليه من اكتشافات في هذا العالم الما ورائي، الذي أحدثس بأنك قريبة منه، ولن تقابلي أياً من تلك التفاصيل بأية لفظة استهجان أو استغراب».

«كيف عرفتِ؟ أحس بأنني على شفا هذا العالم منذ طفولتي، وأحس

باستياء لأنني أخذت كل هذا الوقت لمديدي، وفتح ذلك الباب الذي دائماً كان في مرمى نظري. سأصبر نفسي لمعرفة المزيد». أقول بفرح.

تضحك فاتن بخجل وبفرح فتاة مراهقة، أكثر أصدقاؤها من التركيز عليها، قبل أن تنظر في عيني ليلي ثم تقول لها: «أنت أيتها الخبيثة، إلى أين ستهربين، أخبري مي بما لديك».

تبتسم ليلي بهدوء، وتحرك عينيها الشهاولين الجميلتين والبعيدتين يمنية ويسرة، بعد قصي لم أفلح باستجلاها منه بمحاولاتي الكثيرة بعد ذلك. تلعب بشعرها الطويل الداكن والمحمر بحركة عصبية، تدور به بكل الجهات فتجبر المتابع لها على انتظار توقفها عن ذلك. تفكر لوهلة إن كان قرارها بالبوخ في هذه العجالة صائباً، فهذا هو تقنياً لقاءها الأول بي. لا تلبث أن تميل بشفتيها بعد زمهما، كالذي يعلن أن لا خيار لديه إلا بالبوخ، تعدل جلستها وتقول بصوتها المبحوح: «مي عيني! سأخبرك بقصة تحيرني ببداياتها وبخروجها عن منحائها الذي يتجاوز سنوات الآن، ولماذا الآن؟ لا أتوقف عن سؤال نفسي». تمسك عن الكلام ولا تعود إليه إلا بعد أن تطمئن عيناها بالاسترسال، فيما تلحق أنا مل يديها الدقيقتان الخاليتان من طلاء الأظافر، دوماً انفعالاتها: «إنه رجل كنت قد اشتغلت معه منذ سنوات عديدة في مكتب هندسي ببغداد ولبضع سنوات، يُدعى هاشم، ألتقي به مجدداً هذا الصيف لدى زيارتي القصيرة لبغداد، وأحس للمرة الأولى كأنني تعرفت إليه للتو. يبدأ هو بمغازلتي بكلمات رقيقة

لا أدري كيف سمحتُ له بها، ولماذا استوقفتني، وأجد نفسي الآن منجذبة إليه وأفكر فيه طوال الوقت، مع أنني لم أشعر بأي انجذاب نحوه كل السنوات الماضية. لا أدري ماذا أفعل بكل هواجسي! أعرف أنها مغامرة ولن تجلب لي إلا الندم، فهو رجل يجيد التعامل بل التلاعب بالنساء. ربما لا تعرفين مي، لكنني أعيش هنا مع طفلي، بعد أن اتفقنا أنا ومنير زوجي على هجرتي معهما لوحدنا من دونه منذ سنة ونصف السنة تقريباً.

تعود ليل إلى ترددتها بالبوح، وتنتاب ملامحها مشاعر حزن غائر، وباستسلام تتابع الكلام: «بيني وبين منير مشاعر غضب متنامية، خلقت بيننا مشاكسات لا تنتهي، راق لنا بعدها الانفصال مؤقتاً، وقد سهّلت له فرصة الهجرة ذلك. اعتقادي بأنني على استعداد للتورط عاطفياً مع رجل جديد خلق في داخلي شعوراً بالذنب، مع أنني منعزلة عاطفياً عن منير، ومشاعري لم تعد له، وتربطنا تلك الوثيقة التي ربما نخاف -كلانا- أن نمزقها وننتهي من أمرها ويعيش كل منا حياته كما تروق له. ربما نوهم أنفسنا على الدوام بأنها تحمي كيائنا يجمعنا بطفلتينا، وتوفر لهما سقفاً بدلاً من العراء».

أضحك تلك الضحكة الساخرة التي فيها شيء من استعلاء أو غرور، وأقول قولاً أجهر به عادة، مع ما يستجره لي من الكارهين والساخطين؛ «سأقول لك ليلي ما قلته لفاتن، اتركي نفسك تحس ما تشاء، ولا تستبقي شيئاً، المحبة، الإعجاب أو الميل نحو الآخر، نعمة، هبة من السماء،

فلا تبددناها هكذا مجاناً، تعنتاً وتكبراً أو حتى خوفاً».

أفردُ ظهري وأعدّل جلستي وأرسمُ على وجهي ابتسامة من سيلقي بمفاجأته المدوية حالاً، متفاجئة لوهلة من نفسي، ألجم نداءاتها وتحذيراتها بأفضلية التراجع، وأتابع بلا تردد: «سأخبركما كيف اجتزت ذلك الجسر وقفزت في نهايته، ولم تهمني كل أضلعي المتكسرة». أقطع حديثي فجأة لأقول بحماسة «لكن دعوني أحضر لكم دورة جديدة من القهوة الساخنة وبعض الحلويات قبل أن أنغص عليكم عيشكم».

يعود إلى وجهي صفاؤه لدى عودتي، وتقاسمنا محتويات صينية القهوة والحلويات، ألتقط بضع أنفاس وأتابع: «مرت أيامي بلا أي ألقي خاص بعد وفاة زوجي فاروق، إلى أن التقيته مصادفة منذ زمن عتيق، وأحسست نحوه بانجذاب غريب. في البداية كانت بيننا حالة لم نهتم بوصفها، احترت إن كانت حباً أم شغفاً. كان معلمي الذي دعاني للقفز وعدم الالتفات إلى الخلف أو النظر إلى قاع المنحدر، وفعلتها ولم أندم قط، وها أنا أمامكما، قادمة من العالم الآخر».

تنظر ليلى وفاتن إليّ بذهول وحيرة بين تلقيهما نبأ كوني أرملة أم عاشقة.

«فاجأتينا مي، أنا آسفة لوفاة زوجك». تقول ليلى ثم تستدرك: «لكننا لم نفهم شيئاً».

أقول مغالبة حزناً أحاول دومًا أن أجمه حين يباغتني: «بعد وفاة فاروق المفاجئة، بتُّ أتقل بين الصحراء ووطني، أنجز مشاريع لمكاتب والدي الهندسية هنا وهناك، إلى اليوم الذي وُلد فيه النزاع في بلدي، وتطأيرت شظاياها من مكان إلى مكان داخله، وشهدتُ الدمار يتسلل بين حنايا كل شيء، الأبنية كما النفوس. حاربتُ بكل ما أملك من حب وأمل، إلى أن أعلنت هزيمتي الكلية، وقررت أن أهرب بزياد، إلى بلاد ستحتضن حزننا وانكسارنا، وستعرف كيف تنصفنا. وها نحن هنا، بين أيديكما». أتوقف عن الكلام وتلمع عينايا بدموع محبوسة، مدخرة دومًا لذكرى ذاك اليوم. تتلقف فاتن ويلي غزارة مشاعري من فورهما فتنفعلان معها، ليلي ممسكة بيدي، وفاتن تكرر كلمة حببتي على مسامعي وتترقق عيناها بالدموع، فأتابع القول: «لا أعرف إن كانت لفاروق يد بها أصابه، هو ماضٍ وتغلبتُ على حزنه، مع أن أبوابه تشرّع نفسها بوجهي، وإن مواربة، بين الحين والحين». أستمهلها بإغماض عيني، آخذ بضعة أنفاس ثم أفتحها وأقول بصوت خافت: «لا عليكما، سأرجئ قصتي مع فاروق قليلًا. لكن سأخبركما عن تميم الآن». بعد وهلة من الصمت، أبتلع ريقى مجددًا وأتابع: «دخلت مكتبه في يوم حار من أيام يوليو، مع والدتي، التي كانت بصدد بيع أرض تملكها بريف دمشق، وتأجير محل لها في موقع آخر خارج دمشق، وتحتاج لإتمام أوراق قانونية من أجل ذلك. كان يبدو يومًا عاديًا جدًّا، كغيره من الأيام، حاول فيه تميم، محامي المكتب الذي قصدناه، أن يستبقينا لدقائق أطول،

بكل ما أوتي من جاذبية وسحر. لم يلفت انتباهي في أول لقاء، وذهبت بعد عشرة أيام وحدي لاستلام الأوراق القانونية المعدة لنا. دخلت مكانه كأنه أصبح محرابي فجأة، بهيئة חדست بأنها هيئة الحب، بفستان أسود وأبيض قصير وبسيط، وبشعر غجري وماكياج خفيف. تمهلت الخطي، أم أن الزمن كان يمشي ببطء، لا أدري. سلّمت عليه وجلسْتُ على مقعد مقابل له، ودخلت إلى منطقة خاصة بنفسي، هي ما بين الوعي واللاوعي، منطقة أعرفها وأستكين لها، مع ندرة زياراتي لها، منطقة لم أعرف كيف أدخلها مع أي أحد بعده. رجعت إلى منزلنا يومها، وكان صوت خوليو(*) يصدح من مذياع الجيران. وهنت وتباطأ كل شيء من حولي، ولدت عندها مئات الفراشات بجوفي، أحسست بأنني أسمع للمرة الأولى، كنت أسمع معه صوت الحب».

أهدأ كي أستعيد أنفاسي وأمتص دموعي، لتعود لشفتي الرقيقتين المرتجفتين قدرتهما على الحركة بهدوء، ثم أتابع: «أحبته حين رأى الجميع اختلافنا وتوقعوا افتراقنا القريب، فأنا الأرملة المكلومة العاقلة، وهو رجل يسبقه صيته مع النساء وعلاقاته العبثية معهن. خرجت معه إلى كل مكان، كنت كلي له، تحديثُ العالم به، وفي النهاية لم أتزوجه. إنه بعد مضي كل ذاك الزمن يعود للاتصال بي والسؤال عني، منذ بضعة أيام فقط، قبل لقائي بكما. ألا تثير هذه المصادفة العجب؟». أسألها فأتلقى موافقتها

(*) خوليو إغلاسيوس، المطرب الإسباني العالمي.

ثم أتابع: «أجد نفسي تستجيب لندائه، ربما لأنني وددت الاطمئنان عليه بعد كل الذي ألمّ بمدينتنا. أشعر بالذنب لأنني فقدت إحساسي نحوه، لكن الحب الحقيقي لا يُفقد ولا يتحول، أليس كذلك؟ يغير أثوابه فقط، ما أكثر وما أجمل تبدياته».

طال لقاءنا الأول ودام لساعات، تكلمنا به عن أنفسنا، عن ماضينا وجروحنا، سخرنا من بعض مخاوفنا وعيوبنا، ضحكنا كما ذرفنا بعضاً من دموع. غادرنا المكان ولازمتنا رغبة في البقاء معاً لمدة أطول، فللحديث الكثير من البقية.

3

كل ما كنت أتوق إليه

كيف تجرأتُ وبحثتُ لهما بقصتي مع تميم! قصة وانطوت صفحاتها منذ زمن، ونسيْتُ ألسنُ العالم التداول بها، ما الذي يجعلني أنفث فيها الحياة الآن بين سكان تورونتو! أمري عجيب حقًا.

أشعر بالغبطة مع كل بوحي الذي ربما استعجلت به، وشعور في داخلي يطمئنني، ويدفعني للاحتفاء فقط براحة غائرة تنبع من الداخل، باقتراب عثوري على ما طال ضياعه مني، ولم يكن هناك من شيء بالعالم سيعوضني عن افتقادي له.

أعتقد أن هناك ما يصعب علينا تفسيره، مع يقيننا بحقيقة وجوده الأزلي فينا، الذي لا يمكننا إرجاعه إلى موروث جينيّ جسدي أو نفسي، هناك

مُعطى أو مكون في عمق أعماقنا، نلمسه في أحيان قليلة ونعرف أنه يسكن فينا، وبأننا ضائعون، لأننا لا نستطيع لمسه متى شئنا، وبأنه في مكان ليس بالبعيد، يتربّص بنا، ينبئنا في كل مرة كم نحن ناقصون لجهلنا به، بأننا أكثر مما نعرفه عن أنفسنا بكثير، بأنه هناك ينتظرنا وبأننا مهما تواريها خلف كل تلك الوجوه التي نحب أن نلبسها للهروب منه، سنصل إليه يوماً، ونتكلم معه، ولن يحلو لنا البوح إلا له.

يطوف هذا الضياع في داخلي، وأعرف أنني لن أكمل رحلتي، إن لم أصل إلى هذا القاع، وأتصل بذلك المجهول الذي يقبع في داخلي، الذي يتخذ مسميات تزيدني تيهًا، وأحل إشكالي معه، وإلا سأعود مرة أخرى، إلى حياة أخرى، إلى صراع جديد، وأدخل دوائر لا نهاية لها، وستعرض عليّ نفس الأسئلة وذات التحدي، وسأحس بالغباء نفسه كأني ما كنت يوماً هنا، يوماً هناك.

كان للكثير من الحمل التي تبادلتها فاتن ويلي، تناغم ما لم أدخل فيه بعد، وكل ما تصفه فاتن لليلي بشغف، يصلني متقطعاً وناقصاً، لأن جزءاً كبيراً من بداياته وماضيه لست على دراية به، والأهم من ذلك كله، أن رحلتي الداخلية لم تكن مرئية لي بعد، وعشراقي بها أكثر من استقاماتي فيها. كانا يتكلمان عن عالم غريب عليّ، مع أنه كل ما كنت أتوق إليه، لا أعرفه ولا يبدو واقعياً، مع ذلك أشعر بأنه سيملاً فراغات كانت تبحث عنها نفسي دائماً.

انتظرت لقاءنا اليوم بشغف، وإن كان بعد بضعة أيام من لقائنا الأول، وأتلهف لمعرفة قصة فاتن من بدايتها. يبدو أن سحرًا ما يحيط بها، ظواهر لا تعرف فاتن وليلى كيف تفسرنا، وإن بدت ليلى واثقة مما تقوله، وفاتن تتشبث بتحليلاتها واحتمالياتها الكثيرة، كالغريق.

مع كل الغموض الذي بدت الأمور عليه، إلا أنني أعتقد أن فاتن تقع في حب أستاذها، فوقفتُ كعادتي إلى جانب الحب، أدافع عنه وعن طقوس الاحتفاء به، كيفًا وكما، وهو ما قمت به مع ليلى أيضًا. أدرك أن الحب أبواب مشرعة للريح، لا يهمننا ما سنواجهه بفتحها ولا ما تركناه وراءها. وأدرك بأننا من أجله قد نتخلى عن كل شيء مقابل ربما.... لا شيء. لكننا سنقع بالمطبات ذاتها والخطايا نفسها في كل الدروب إليه، إلى ما لا نهاية.

أعلم جيدًا بأنهما رأنا حزنًا غائرًا باديًا عليّ، ولا دخل له بقصتي مع فاروق أو تميم، أتقصّد الهروب من مواجهته في أي وقت، مع أي أحد. حزن له جذور عميقة في وجدان الفلسطينيين والعراقيين قبلنا، عاشت فاتن وليلى في كنفه لعقود من الزمان. أصبح يسكن داخلي وداخل كل إنسان سوري، طفل خائف، لا يتوقف عن النحيب، يضم أجزاءه على بعضها، علّه بالضغط عليها ومعانقتها، يخفف من نبض آلامها. قدر أحق دخلنا في شعابه، كيف بدأنا ومن أين سننتهي؟ لا أحد يمكنه التكهن بمصيرنا.

طالما تساءلتُ، وودتُ أن أشرك أحدًا غيري من القادمين الجدد على هذه المدينة بتعجبي من اختلاف الوجوه المتتابعة الخطو أمامنا، جيئةً وذهابًا،

أو تلك الجالسة حولنا، فما من عرق أو جنس في العالم الواسع إلا ويشاركنا رقعتنا، يتحدث بلغة لم نسمعها من قبل، ينظر إلينا ببريق وحده لا يختلف كثيرًا عن بريق أعيننا، يرحب بنا أو يهابنا على طريقتة، ينضم إليه آخرون يلونون المشهد ويضيفون له مستوى آخر، ينتشلنا عن ذاتنا، وي طرح في داخلنا أسئلة جديدة. ما الذي أجبرنا على الهجرة عن مكاننا، عن أناسنا الذين يشبهوننا؟ لا شيء فينا ليس فيهم، إلى مكان لا يشبهنا فيه شيء، أناسه غرباء من رؤوسهم إلى كعوب أقدامهم، ما الذي تتأمله هنا؟ أن نحمل معهم جنسية واحدة وتصبح تلك الرقعة التي نتقاسمها معًا وطنًا؟ أن يأتي يوم ننظر فيه نحوهم ونرى فيهم أهلًا لنا، لا مجرد غرباء يجلسون معنا ذات صباح جميل في مقهى، يحسبون به القهوة ثم يتفارقون ويتوهون منا ومن أنفسهم في المدينة الكبيرة.

ليلي أولى القادما ت، تتخذ الطاولة ذاتها القابعة وسط المكان، في المقهى الذي التقينا فيه الأسبوع الماضي. تدخل فاتن المكان وهي تستعجل خطواتها، وتلتفت بقلق تبحث عن أي منا، لاهية عن وجودي خلفها فأسارع الخطو للحاق بها. تقف ليلي ملوَّحة لنا، تضحك من قلة انتباهنا، فاتحة ذراعيها لاستقبالنا، فنهرع بطلب قهوتنا بعد تعانقنا، حيث لا يمكننا تأجيل حديثنا أكثر من ذلك.

أراقب ليلي كيف توزع ابتساماتها على المارة يمينة ويسرة، يتملكها على الدوام حماس لا يمكنها إخفاؤه بين جوانبها. ليلي امرأة جذابة، متوسطة

القامة، ممتلئة القوام، ذات بشرة سمراء حلبيية الملمس، غجرية الشعر، وعيناها نجلاوان، مقلتاها سهلاوان ونقيتان كمقل الأطفال وأنفها نحيف وصغير، أما شفتيها فتميلان لكونهما مكتنزتين. تبدو امرأة عملية، غير متكلفة، تحبها دون وساطات، وتجد نفسك تكلمها وتنصت إلى صوتها العالي المكسور في نهاياته ببحه لهجتها العراقية الأسرة. تضحكني كيف تبدأ مكالمتها التليفونية «بها لاو» وتنتهيها «بها لاو» أيضا، وتأسرني كلما أرادت أن تسترعي انتباهنا منادية «باوعيني» أو «عيني». خارطة عمرها تقع بيني وبين فاتن، تبدو أصغر من سنها، تزخر بحيوية نادرة، فريدة بإنسانيتها وحسها الذي يطال كل من حولها. إن شكت من أوجاع جسدها المنهك من أعبائه، لا تشتكي أبداً من عناء اهتمامها بكل الناس، فهي لا تكل ولا تمل أبداً.

تأخذ فاتن بضعة أنفاس لتستجمع أفكارها بعد أن أذكرها بوعدها بأن تقص عليّ حكايتها من البداية، تدور عينها في المكان، ترشف قهوتها السوداء منتظرة عودتي بقهوتي مضافا إليها ما أرغب من الحليب الساخن، قبل أن تهتم بالكلام:

«عندما وصلت لمدينة تورونتو، وبدأت استقرار في فيها مع عائلتي، مررت بكل مراحل الهجرة الكلاسيكية التي يمر بها المهاجر عموماً، من قبول ورفض وقرارات متخبطة بين الاستمرار بالوجود بهذا المكان الغريب مبدئياً، الذي يمكنه في بعض الأحيان أن يكون ببرودة غرفة غسل الموتى،

أو العودة من حيث أتيت. تطورت ممارستي للتأمل التي بدأتها حين كنت بالخليج، بعد أن قادني الأقدار لأخذ دورة بالريكي هنا، ووصلت للمرحلة التي التزمت فيها بمزاويلته. اعتقدت بالبداية كغيري بأنني لا أوفق بكثير من الأحيان بإسكات الصوت بداخلي الذي لا يرتاح ويعيد عليّ جملاً لا معنى لها، محبطة بكثير من الأحيان ولا تزيدني إلا توتراً وخوفاً. عاد الرسم مرة أخرى بعدها صدفة إلى حياتي».

تقطع فاتن حديثها، تسخر من نفسها ضاحكة: «لقد درست الفنون في الجامعة الأردنية، وكما كانت تقول لي أُمِّي دوماً، لم تخرج من يدك لوحة إلى الآن، فلترسمي لنا واحدة ولو صغيرة، بالله عليك!».

«هذا هو حال الأمهات دوماً، أين الإنتاج من الشهادة التي ضيّعت عمراً عليها؟»، تقول ليلى ضاحكة.

فيما تسمّرت عيناها بعيني فاتن تطلب منها بإلحاح الاستمرار في السرد: «في يوم من الأيام وجدت نفسي أسجل في دورة للرسم بمدرسة فنية مرموقة بشارع آفنيو. واطبعت على الانتساب للعديد من دورات الرسم فيها على اختلافها ولمدة سنة. تستوقفني فيها مادة كنت قد أخذتها مع فنان يدعى ستيف آرنو. ليلى، لم أخبرك عن مادتي معه من قبل، وأرى أنني أودّ أن أخبركم عنها الآن. كان آرنو فناناً ناجحاً ومعروفاً، شارك في الكثير من معارض الرسم حول العالم، كما كان معلماً مميزاً، شغوفاً بعالم

الفن والرسم، يعطي من أعمق أعماقه، حتى تكاد ذاته تختفي وهو منهمك بالشرح عن مادته، لكنه لم يكن منفتحاً بشكل كبير، كان متردداً ولا يملك الثقة المتوهجة بالذات، كنت أحس بأنه يتصل بي بدرجة ما، ثم يقطع اتصاله بتواضع واكتفاء تامين، اتصال ربما كان كافياً لإنجاز لوحته الأجل، كما قال لي يوماً ممتناً، وربما كان كافياً لتقديم نفسه لي كمصدر من مصادر الدفع للاعتماد على ذاك المنبع لا أكثر، منبع الاتصال مع كل شيء والإيصات جيداً للرسائل الآتية من مكان ما، ربما خلناه بعيداً، لجهلنا بأسرار ولوجه. أما القدر الأجل، فكان ينتظرنى مع أستاذي، الفنان آلبرت كول».

تبتسم فاتن بحياء بمجرد أن تلفظ اسمه، وتداري فرحاً يخفق الأحبة بمداراته ثم تتابع: «استوقفني، بعد متابعتي لأعماله، معرض كان قد أقامه سابقاً، وفي كل لوحاته صوّر الإنسان فيه ميتاً، لا بريق بعينه، ورأيت تعليقاً على معرضه، أو ربما كان عنواناً له «الموت قبل الموت». عنوان أخافني ولم أعر اهتماماً لما يحاول قوله عبره، وكان هو المبرر لتأجيل قراري بأخذ مادة معه لسنة كاملة».

تتوقف فاتن عن الكلام ثم يعود وجهها لتوجهه: «مرّت الحصة الأولى معه بلا انطباع يُذكر، وزحف الانبهار به كأستاذ في الحصة الثانية، كان ملك التفاصيل، تتملكه كما يتملكها، يغوص في أعماق كل ما يلقي الضوء عليه، ويحيط حكاياه بشغف فني لم أره عند أحد. أخذت بقوته وبثقته بنفسه، لا تأتي لحظة يستعطفك فيها بشيء، هو الخالق لمسرحه، لا المؤدي فيه. استمعتُ

إلى نظرية الألوان تتلى عليّ في حياتي العديد من المرات، ولم أستوعبها إلا حين شرحها لنا، ذهبتُ يومها إلى زوجي، وقلت له، هذا هو الأستاذ الذي سأتعلم منه كل شيء، معه سأتعرف على الألوان كلها.

كانت حزمة شمس صغيرة تنير نصف وجه فاتن وهي تتكلم عنه، كأنها ضوء مسلط على المتحدث بمناسبة ما، فيما نصف وجهها الآخر يركن إلى تواضع لا يرغب بلفت انتباه أحد، مع أنها امرأة رائعة الجمال، بقوامها المشوق وبعينيها الكحلاوين ورموشها الكثيفة وكثيرة الظلال، ثم بذلك البريق الأسر المنبلج منهما، الذي ما إن يُرى، حتى يفقد المستقبل له رؤية أي شيء بعده مؤقتًا، كفلاش الكاميرا تمامًا، بضحكتها السخية، التي تنبئ عن روحها الأخاذة، التي ترفرف وترفرف، كطير لا يمل الطيران ولا يمل من النظر إليه وترقبه كل يوم، نخاله يهبط ليشرب الماء، لكنه لا ينزل إلا ليعانقنا ثم ليطير ويطير.

بعد غياي الوجيز في تقاطيعها، أطلب منها باهتمام يحتل حضوري بالكامل: «لم أفهم تمامًا ماذا تقصدين حين تقولين إنكِ تحسين بنوع من التجاذب أو التواصل غير المألوف بينك وبين الأستاذ! لا أعتقد أنني سمعت بذلك من قبل! اشرحي لي أكثر».

تبتلع فاتن ريقها، تقلّب عينيها ثم تدورها بزوايا غير مرئية، محاولة أن تشرح لنا ما تعتقد أنه ينتابها، متفادية أن تبدو أفاقة وتحتلق ما تقول: «تنبّهت بعد تجارب كثيرة في السنوات القليلة الفائتة، خصوصًا بعد انتهاء الفصل

الأول لي بالمدرسة، أن لدى الآخرين قوة تحيط بهم وتخرج عنهم، وتحت ظرف ما، لا أعرف التكهّن به، يمكنني أن أتبادلها معهم، مكونين ما يشبه حقلاً مغناطيسياً بيننا، أو تياراً كهربائياً، لا وصف لديّ لكنّه».

«كم يبدو ذلك مشوقاً! تابعي، إن كانت البداية هكذا، لا يمكنني تخيل ما ستكون عليه النهاية»، أقول ضاحكة.

تلتقط فاتن أنفاسها، وبعد برهة صمت تستجمع بها أفكارها وتستعيد حماسها قائلة: «مي، سأقص عليك أهم حادثة بيننا، انتظرتُ فصلًا كاملاً لتكتب وقائعها في حياتنا. مرة كنت أعرض عليه أعمالِي التي أنجزتها خلال الكورسات السابقة، بطلب منه، وكنت في غاية الارتباك، وعبرت عن ذلك بكل خلية من خلايا جسمي، وأتبعتها بتصريح، أنني لم أجد بعد الستايل أو الأسلوب الذي أريد أن أكمل فيه طريقي بالفن. في لحظة توقف فيها كل شيء عن الحركة، ثبتّ عينيه في عينيّ، ولم يرمش له جفن طول هذه الفترة الخارجة عن النسق الطبيعي للوقت، لم أعد فيها قادرة عن الالتفات بعيداً عن بريقهما، كما أفعل خجلاً عادة، وسكنت دقات قلبي، انخفض نبضي وخبا صوتي كلياً، كما يختفي أثناء الحلم ولا أقوى على استرجاعه، وقال لي؛

«اطمئني، سأساعدك، جهزي كل المستلزمات من أجلي، ولا تنسي الدفتر ذا المواصفات الخاصة الذي طلبته، والمخططات التي قمت بها، وسأساعدك».

لا أدري، كم من المرات ردد: سأساعدك على مسامعي الصماء، كنت أعلم أنه لا يودني حقاً أن آتي بأي مستلزمات. أحسست بأن عينيه اخترقتاني إلى عمق أكبر من ذلك الذي للعيون القدرة على سبره، كأنني فقدت وعيي ورحلت لمكان وزمن آخرين. ولدى عودتي إلى المنزل، لم أستطع تذكر أي شيء».

«يا الله يا فاتن، كنتُ بحاجة إلى أن أسمع ذلك منك مرة أخرى، كأني أسمعهُ للمرة الأولى، أمل ألا يكون ما وصفتيه لتوك صادماً لي، وأن تكون قد تشربته على مهل. سيكون لنا كل الوقت للحديث حول كل ذلك فيما بعد» تقول ليلى، مرتشفة آخر قطرة من قهوتها، كما سأكتشف لاحقاً، كيف تنهي مهامها كلها على عجل كما متعها.

«هذا التيار الذي تتكلمين عنه، لا أفهمه وإن كنت قد حاولت شرحه لي، المهم في الموضوع هنا، أنه كونني لا أفهم، لا يعني بأنني أرفض قبول أو تصديق الوقائع، كما قلت، سأخذ وقتي بالوصول معكم إلى فهم ما يحدث. لا أستطيع أن أصف لكم درجة الحماس التي تسكنني الآن»، أقول.

تبتسم ليلى ثم تلتفت نحو فاتن وتكرر كعادتها بصوت عالٍ: «عيني فاتن، باوغي» ثم تشد شعرها إلى يمين وجهها بعد أن تدور به من جهة إلى أخرى «لو أنك تجربين مي وتعيدين على أسماعي زيارة الفصل الجالوري أونتا ريو للفن AGO، بوسط المدينة، لربما ساعدت مي على الإجابة عن بعض من التساؤلات الكثيرة المتصاعدة في ذهنها، وأدركتُ أنا بدوري

ما لم أدركه حين أخبرتني عن زيارتك له لأول مرة».

تلمع عينا فاتن قبل أن تستأنف كلامها: «اقترحك في محله ليلي، وبهذا أكون قد تلوتُ على مي القصة بتتابعها المنطقي». ثم تنظر نحوي متفحصة، ثم ضاحكة، تلك النظرة التي تعودت لاحقاً أن أخاف مما ستقوله بعدها: «انظري إليها ليلي، تبدو مشدوهة مما انتهيت لتوي من قصه عليكما، وجهها مليء بالأسئلة».

«ماذا تريديني أن أقول! سعادتي بما تقولين تفوق إلحاح أسئلتني، لا تقلقي، استرسل يادهاشنا»، أقول.

تتابع فاتن بعينين متقدتين «إن كنت سأعتبر أن أول تبادل لتلك القوة الجاذبة بيننا، أنا وألبرت، هو ذلك اليوم الذي وعدني به بأنه سيرعاني، فالمرّة الثانية كانت لدى زيارة المتحف. لكن المفاجأة ليست هنا فقط، هناك عنصر جديد دخل على اللعبة. في المتحف كانت تجربتي الأولى برؤية أعمال فنية عالمية بعد التطورات التي طرأت على تنبُّهي الحسي، وربما يمكنني القول فوق الحسي. كنا نقف أمام كل لوحة، ونسمع نقد ألبرت لها، فنعود ونراها لوحة جديدة أكثر جمالاً وأكبر إعجازاً، هذا ما أحسّه كل فرد من أفراد المجموعة بشكل ملموس وطبيعي. أما ما مرّ معي، وأقعدني من شدة زخه وكثافته، فهو ما خبرته حين وقفت أمام لوحة الجسر (1902) الضبابية المذهلة بجملها، لـ (أوسكار كلود مونييه)، تابعتُ ضربات فرشاته المتلاحقة والمتداخلة ببعضها بعضاً ففتنتني إلى أن أنهكتني، أحسست أن

الأرض فقدت ثباتها تحت قدميَّ، ودارت بي الصالة، كأن شيئاً خرج من اللوحة وجمعني معها وعزلني عن الجميع، لم أكف عن مراقبتها، مأخوذة بتفاصيلها المتجددة التبدّي أمامي، لا أقوى على الحركة، إلى أن انتابني حالة من البكاء الغريب، الذي لم أعرف له سبباً، واحترت كيف أداريه والملمه. هل سبق لكما أن وقفتما عاجزتين أمام جلال جمال أو حضور غير عادي؟».

لم تنتظر فاتن رأي أي منا، واكتفت باستقبال الدهشة المنهمرة من أعيننا وتابعت: «أحسست أنني أقف أمام مونيّه وهو يرسم عمله، وانتقل إليّ مجهوده وهو غارق بتقلات فرشاته المتتابعة والسريعة. كان يمكنني أن أقضي ساعات طوالاً أمام لوحته، تائهة بعبقريته وبتفاصيله، أضع احتمالات لا نهائية لكيفية إنجازهِ لكل بقعة فيها. كيف انتقلت إليّ هكذا تفاصيل، وكيف جزمت بأن ما أحسست به يقارب الحقيقة من أي جانب، لا أدري! أمضي بعدها إلى غرفتين متجاورتين كأني أبحث عن شيءٍ فيها ينتظرنِي. أنتقل من غرفة للأخرى أتابع لوحات فنان كندي يدعى «ألّكس كولفيل»^(*)، فأرى رسمه في الغرفة الأولى دقيقاً كآلة لا حياة فيها، لوجوه جامدة وأدوات وأسلحة، فلا تستهويني، فأشعر بحاجة ملحة لمغادرة المكان. أنتقل للغرفة الأخرى لأجد أن أسلوبه أخذ منحىً مختلفاً. بعد التنقل بين اللوحات،

(*) (1920 - 2013) Alexander Colville

عرف الفنان الكندي ألكسندر كولفيل بدقة تصويره لواقعية مشاهد الحياة اليومية.

أنجذب للوحة ألوانها ترايبية والنور بها خافتا كأنها قديمة، لتشكيلات لا أعرف ماهيتها، أتابع خطوطه وتناسق تنقلاته بالفرشاة بحماس إلى أن أقرأ على جنبها بأنها لعظام أجساد ميتة، يقع قلبي من وجله، أتلفت حولي فأرى آلبرت واقفا خلفي منشدا، وحين نتجمع بانتهاء الزيارة، يسألني أمام الجميع عن انطباعي عما شاهدته، فأجيبه «يمكنني أن أبقى أمام لوحة مونية لساعات ولا أحس بالوقت، ولا يمكن للوحة كولفيل أن تستبقيني لأكثر من بضع دقائق»، يلتفت فرحا بتصريحي نحو الطلبة قائلا: «هل سمعتم ما قالته فاتن؟ بفخر دافق خرج من عينيه».

تجهر ليل بتحليلاتها وبأفكارها بسرعة كبيرة، فتقول بصوت راسخ وواثق من نفسه: «ربما اختزنت الأعمال الفنية طاقة مبدعيها، كذاكرة على القماش المشدود، لا يمكن لأحد محوها أو تناسيها، كأنها تروي لنا الحكاية بعيد سادس أو سابع، يضاف إلى ما تستقبله حواسنا الخمس».

تواجه فاتن إنصاتنا المهيبة بالاندفاع بما يعتمل برأسها من وقتها «أتساءل، ما الذي جاء بي إلى لوحة كولفيل؟ شيء في داخلي كان يبت بوجداني، أن آلبرت أرادني أن أقف أمامها بالذات مطولا، وأنصت إلى رسائلها جيدا، كأنني اتجهت نحوها بإيعاز منه. لم أربط حينها بين عنوان معرضه «الموت قبل الموت» وبين تلك اللوحة، ربما بين إدراك أهمية الموت الحقيقية قبل الوصول إلى النهاية وبين الحياة دون إدراك ذلك».

أنثني بما أسمعته كأنني عثرت على كنز، سأ تأبط أفكار اليوم وأخذها

معي إلى البيت، سأأمل فيها ملياً، ولن أرتاح قبل محاولتي القيام بكل إسقاطاتي اللازمة.

تنسى فاتن وليلى النظر إلى ساعتيهما، فالوقت يداهمهما وعليهما الإسراع بطلب ما يسد رمقهما والعدو للمثول أمام بوابات المدراس لالتقاط أطفالهما، بينما أقبع أنا بهدوء متحرر من همهما، فزياد شاب على أبواب الرجولة ويتنقل بحرية وحده.

نأخذ استراحة قصيرة من الكلام، وننغمس بما جلبناه من طعام، نمضغه على عجل، وعيوننا تستعجل عودة الكلام إلى صخبه الوليد معنا.

4

فرح سماوي

أسترجع وجه فاتن المذهول تمامًا من مشاهداته، عيناها مفتوحتان ومقلتاها تلمعان وتشعان بالحياة، ثم أستحضر قولها الأسر وأعيده في ذهني مرارًا «ما هذا النور الدافق من عينيه؟ هل أراه وحدي، أم أن هناك أحدًا غيري في الرسم شاهدًا على أعجوبة هذا الجمال، تتسرب وتتنقل بذاك اليسر أمام أعيننا».

هل يُعقل أن يكون بريق عينيه نافذًا وأخاذًا لدرجة لم يسبق لأحد أن رآها! ترى هل مرّ عليّ أحد في حياتي بهاتين العينين؟

لا يمكنني إغفال افتتاحني ببريق العيون منذ صغري، فأنا أوليه اهتمامًا ربما

كان مبالغاً فيه، أرى في ثقب العين نافذة تطل على حقيقة، أو ربما روح كل كائن حي، تنفذ إلى أعماقه بيسر لا يمر عبر المتاهات التي تأخذها مسارات أخرى إليه. لكنني مع ذلك أسترق النظر إليه ثم أقتطعه على عجل، كأنني أهاب من وفرة ما سينهمر فجأة أمامي. لو سلّم تميم عينيه لعينيّ، ربما لما تجرأت على إطالة التحديق فيها، ففي اللحظة التي سأشفي غليلي منهما، وأسبر غورهما، لن يهون عليّ انكسارهما وسأخشى مما سأراه من نفسي بمرآتهما.

في المرة الأولى التي تنبّهت فيها لصوت التشيلو، وهلّت، ارتجفت ركبتيّ ثم أوصالي كلها، لوهلة، تلت أوتاره حكايتي التي تاهت مني أو ربما التي هربت عن عمد منها لخوفي من سماعها، وفي وهلة أخرى تلاشت الحكاية ولم تعد لها أي جدوى. ما الذي جمع بين صوت التشيلو وبين ذلك البريق المنبثق من عيني تميم!

لم أستوعب ما قصده فائن بالصدّات الأولى، تلك التي وعدّها فيها أستاذها بأنه سيساعدها، كيف احترقت عيناه طبقات في جسدها، واجتازتها جميعاً ووصلت إلى أعماق رقعة في وجودها، مكان متناهي الصغر وبعيد، خالته خلف السرة ويمتد منها إلى اللانهاية، يضجّ بفرح ساوي، يرفعها وينزل بها على سحابة قطنية، لا حدود لحنانها كما لنعموتها. شيء في داخلها يؤكدها بأن حقيقتها أو خلاصتها تقطن في هذه البقعة، وبأن عينيه أبصر تأها، لمستها ثم هزّ تأها وأعلمتها بأنها حية ولها نبض آخر، يضجّ بالحياة.

تراها كانت تهذي أو تتخيل كل ما حام حول حالتها من تفاصيل!
تقول بأنها نسيّت من تكون، وأين هي حدودها تمامًا!

كم أمقت الحدود التي تكبّلني وفي داخلي يقين بأنني أكبر من ذلك بكثير،
أتحرك داخل محبس لا أدري إن كنت ابتدعته لنفسي، أم أنني حُشِرْتُ فيه
منذ زمن بعيد، ولا علم لي كيف حدث ذلك. مع ذلك أشعر بأنني هشة،
بلا حدود تحميني وتصد الآخرين عني، ويمكن لأي منهم أن يجتازها
ويلعب بأمني كيفما يشاء. هناك حدود عليّ التحليق خارج مدارها وحدود
أخرى عليّ تعزيزها وتقويتها. كم سيكون شاقا هذا الدرب!

لم أسمع من أحد ما وصفت فاتن حدوثه لها بجاليري الفن، وفضولي
يستفزني ويحاصرني باحتمالات كثيرة، كم أحب الهيام على وجهي بالتفكير
فيها. نداء في داخلي يجعلني أرجح أننا نتفاعل بموجب القوة المتبادلة بينما
وبين أي كائن آخر، حيًّا أو جامدًا، كما نقلت لنا فاتن، دون دراية منا، نقرب
أو نبتعد بإيعاز منه، وحين يأتي أحدنا ويخبرنا عنه، نرتد خائفين من تبدّيه
الواضح أمام أعيننا، نحن الذين اعتدنا على عمله خفيةً عن حواسنا.

5

سأصحو على هذا اليوم مرة أخرى

كنت أتوق لأن أكون وحدي معه، في أي مكان وفي أي وقت، ووقتي كله ممهّور بانتظار نداءه، وكان لا يدعوني إلى منزله إلا حين تتعذر عليّ تلبية دعوته. بعد مرات عديدة تحول حنقي من مخططة الخبيث غير المعلن إلى جنون لا يأبه بعواقب أي فعل يتهور بارتكابه، فاستيقظت فجر أحد الأيام التي لم أنم فيها لدقائق معدودة، نظرتُ إلى زياد النائم بجواري ولم أره، أحكمتُ الغطاء على جسده الصغير، وعدوت إلى الحمام عازمة على الاستحمام السريع، أدركتُ مقبض الماء فانسال من الدوش خيط متقطع منه، فأزمتنا مع الماء أزلية، ولم تخلقها الحرب وحدها، فحوّلت مجرى المياه وقرصت على عجل أسفل صنبور الماء، واستقبلت القدر اليسير منه،

وأتممت مهمتي بما تيسر لي لانقضائها. ثبت شعري القصير المبلول ببعض الجل، تريثت قليلاً بانتقاء ملابسي الداخلية، ثم نهزت ترددي بعجالة، وقررت ارتداء لانجري بسيط لا تكلف فيه، قماشه دونتيل أسود وأبيض من قطعتين، ثم ارتديت تي شيرت قطنية بيضاء وبنطلونا جينز يلتصق بقسمات جسدي بدقة، وحذاء رياضياً أبيض اللون مفتوحاً من الخلف، وقبل أن آخذ مفاتيح السيارة وأهرع إلى الباب، باغتني نداء الشقوق الرفيعة الممتدة على طول بشرة بطني، فبحثت عن سليلي الأسود الشفاف، خلعت تي شيرتي على عجل، ارتديته، أدخلت القماش المنسدل منه فوق الجينز وأجبرته على الاندساس داخله، أعدت التي شيرت إلى جسدي واندفعت إلى بيته، أقود سيارتي بمجون لا يرى الطريق أمامه.

قبل أن تعلن الساعة السادسة صباحاً بدقائق، أصعد أدراج بيته القابع في الطابق الحادي عشر، كما قرأت على مدخل بنيته، بسرعة عداء محترف، أبحث عن باب داره وسط الظلام، أتهد تنهدات سريعة وعميقة قبل أن أدق على بابه بضع دقات خافتة، وما إن أتبعها بدقة أقوى من ما سبقتها حتى ينقشع الباب فجأة عن وجهه يتلصص عن من يقف على بابه في مثل ذلك الوقت، يستقبل حضوري المبتل على آخره بكل صنوف الرهبة والضعف والرغبة، بوجوم من يغلبه النعاس، ثم يمدّ يده ويخطفني من حالي ويوصل الباب خلفنا.

نقف على مدخل بيته قليلاً، ينظر كل منا إلى الآخر باندهاش، وجهه

على وسنّه تأكله الحيرة والمفاجأة معاً، ووجهي ينسى وجله لوهلة ويشيح بعيداً عنه ليحتفي بمشهد منزله أخيراً؛

هكذا يبدو منزله إذاً، مدخله طويلاً ويفضي إلى صالة كبيرة، تفتح عليها غرف البيت، في صدرها مكتبة كبيرة يتوسطها تلفاز كبير، على يمينها نافذة كبيرة يلتصق بها باب المطبخ الصغير نسبياً، أجد نفسي بعد لحظات أدخله، وأهمّ بتحضير قهوة الصباح لكلينا.

يأتيني بغلاية وقطر ميز القهوة، أعير الماء في فنجان القهوة من حنفية ماء الفيجة مباشرة وأسكبه بالغلاية، أقمها بالقهوة وأبشر بغليها وتحريكها على النار، يأخذها مني حين ينتهي من إعداد الصينية على الأصول، فأنتهز تلهيه وأعدو إلى غرفة نومه وأفتح خزانة ملابسه الكبيرة وأمرر يدي على قمصانه وأطقمه، أفتح باباً فيها وأغلقه، وكذلك أفعل بالدروج والرفوف، فلا أدع قطعة من ملابسه لا أتمسها وأتملى فيها. يناديني بصوت أمر كي أذهب إلى غرفة الجلوس لاحتساء القهوة ساخنة، أستجيب له من فوري فأجده يزيل الغطاء عن الكنبه الرئيسة ليعدها لاستقبالي، فأدعه ثم أجلس عليها فيجلس جوارى ويقدم لي فنجان القهوة الساخن، ينتظرنى لأتذوقه قبل أن يشعل سيجارته ويرتشف الرشفة الأولى من فنجانه.

«هل أحببتها؟».

أبتسم باستسلام من نسي ذاته على بابه ولا أقول له بالكلمات ما قلته

له بكل الطرق الأخرى «أحب كل شيء منك، إن كان بين أكثر أو بأقل، بسكر أو من دونه، باردًا كان أو ساخنًا، برشة هيل أو بالكثير منه، ابق فقط على تواصلك معي ولا تقطعني».

لا أذكر الكلمات التي دارت بيننا وأذكر صمتنا المتقطع، يسألني بعد وقت قصير أن أقف وأتبعه فأمتثل، ثم يطلب مني أن أخلع بنطلون الجينز عني فأفعل، وينسدل السليب الأسود الشفاف ليغطي بطني وأعلى فخذي، أراه يقف خلفي وينظر إلي من الخلف كأنه يستحي بأن أرى نظرات له تشتهيني، ثم يهمس بأذني: «أحب مؤخرتك»، يهن قلبي من فوره وترتجف أطرافه ويسري دفء سريع بين أوصالي، ثم يتابع همسه: «أحب شعرك مبلولًا» ثم يأمرني بحزم: «اخلعي حذاءك وتابعي المشي أمامي» موجهًا جسدي برفق نحو غرفة نومه.

أمشي خطوات قليلة فيتلاشى وقع قدمي داخل غيوم كثيفة، تسبقني تخيلاتني للآتي فأتحرق ترقبًا لها، فأخيرًا سأكون وحدي معه، متحررة من وجل دخول أحد علينا، أخيرًا أتقاسم معه مخدعه، ولزمن ممتد نتجاوز به بضع دقائق اعتادت علينا، أخيرًا سأستلقي إلى جواره وأنظر إلى سقف غرفته وأستمع إليه وأضحك وأضحك من قلبي، وقد ألقى برأسي على صدره، أعانقه وأنا مملء رُوحِي. ربما تعاونًا في النهاية على قهر مخاوفنا والخروج من ذواتنا والعودة إليها معًا، متأبطين ذراعينا، كما حلمت العديد من المرات.

لا يغادرني وجلي، مدركة في كل وجودي بأني واهمة، وصوت في داخلي يحذرنى وينصحنى بالتراجع، فعن أي رجل تبحثين، وعن أي حب في داخله تنتظرين؟ هذه اللحظة التي تطاردونها لن تلحقني بها، ولا يودّ رجلك الوجود فيها. أنت محاطة بجدرانك وبجدرانها، وما أكثرها جدرانكم! لا هو قادر على الخروج من خلفها وملاقاتك وإعانتك بالإفلات من أي منها، مع أنه يراها وترهبه رؤيتك محبوسة داخلها، تجزمين بقدرته على تحطيم بعض منها، لكنه لا يود أن يقوم بذلك من أجلك.

لا أدري كيف تغادرني تلقائيتي أمامه، أنتظر تعليقاته وأمثل لها، أبالغ بإيهامه بضعفي فيبالغ بإيهامي بقوته، لعبة سقيمة لا نملّ من تكرارها ولم أعرف كيف أخرج عن قواعدها. أخطو أمامه نحو غرفته، وأقف بمواجهة مؤخرة سريره، يديرني نحوه وقبل أن أصبو لمعانته يدفعني على طرف السرير، جذعي مستقل عليه وساقاي تسندهما قدماي على الأرض، وجهي ينظر إلى قسرات وجهه الغائبة، يستمهله عله يعود من سفره، فنحن الآن معاً، والوقت كله لنا. بعجالة لا تفرق بأي من تفاصيلها عما حدث كل المرات السابقة خلف الأبواب، يندفع بداخلي ثائراً، يموج ويلوج بإحداثيات محسوبة، لا تسمح لي بمعانقته ولا بتقبيله، أمّ ذراعيّ مبتغية تطويق عنقه وتقريبه مني، فيرجع بجذعه المنتفض دخولاً وخروجاً إلى الخلف، ينظر إليّ بعينين زجاجيتين، لا توداني أن أرى ضعفهما، لا تسينان تعسف انتمائهما الشرقي، تحكمان عليّ وهما في قمة نشوتهما، كيف سلّمت هذه المرة أيضاً، جسدي لهما!

يعود الصمت والزمن إلى دقائقها البليدة، أسارع بابتلاع غصات كثيرة تولد بلا توقف في حلقي، قبل أن أختنق بها، أسدل السليب الأسود المنحسر قليلاً إلى الأعلى على جسدي، ألمم نفسي وأخطو خطوات متعثرة إلى الحمام، أنقل ناظريّ بزواياه وبتفاصيله فأراها باهتة وحزينة، أشيح بوجهي عن مرآته، أغتسل على عجل، أرجع إلى غرفته، أفتح خزانته، أنتقي أحد قمصانه البيضاء، أرنديه فتلمس حوافه ركبتيّ وأتجه إلى غرفة الجلوس كأن الذي كان ما كان.

«أأعد لك الإفطار؟»، يقولها وهو ينقل خطواته بين المطبخ وغرفة الجلوس.

«لا أشعر بالجوع».

«إنك تزدادين نحولاً، يجب أن تهتمي بصحتك».

ينظر إلى قميصه الكبير عليّ ويكاد أن يبتسم، يجلس على الكنب الكبيرة ثم يسكب لي مزيداً من القهوة الفاترة، آتبه كهزّته التائهة التي لا تعرف لها من مكان إلا في أحضانه، أجلس بجواره وأبشر بارتشاف القهوة بهدوء، أستكين لطعمها المر، كأنها ملاذي الآن، أدفع بمعونتها بما تبقى بجوفي من غصات. يبحث عن الريموت كونترول، يدير التلفزيون، يقلّب بين القنوات، وبعد مرور بضع دقائق ثقيلة يمدّ يده ويدعها تتلمس ساقي، ووجهه لا يزال يتابع الشاشة، أضع كفي فوق يده أتحسسها، وهاجس

كاذب يوسوس بصدري، لقد وعى تسرعه، ربما انصاع لشوق لم يعرف كيف يسيطر على اندفاعه، والآن بعد أن هدأ الثور الهائج داخله سيعطيني من الحب ما أستحق. يدير جسده نحوي، ينظر خلصة إلى جسدي كأنني لست بعد له، يسألني «هل ارتويت مني؟ ألا ترغبين بالمزيد؟». يباغتني سؤاله وتتعثر الكلمات، وددت أن أصرخ في وجهه، أحبك تميم، قبلني، المسني، أطل بتمرير يديك على بشرتي وأمهلي بعض الوقت، لكنني استوعبت سؤاله متأخرة كعادي، بين نظراتي المتوجسة من كل شيء وترددي بالكلمات والحركات، كان جسده يجثو فوق جسدي، يعدو به البراري والوديان، كنمر هذه المرة، يطارد فريسة يعرفها جيداً، ومع ذلك يستعرض عليها قوته، ولا ينسى بعد أن ظفر بها، أن يعوي على جثتها، عواءً يمزق به الأفق.

يلحق بزمن خرجت أنا منه وينظر إلى ساعته، «عليّ الذهاب إلى المكتب، الساعة التاسعة، تأخرت كثيراً».

مذهولة كعادي من كل شيء أنظر ببلاهة إليه كأنني لست مستعدة بعد كل ما نلته لساعتها، للتنازل عن وقت سلبته منه عنوة بعد طول انتظار، فأقوم كعادي بعكس ما تمليه عليّ مشاعري، فأرتدي ملابس من فوري، وأستعد للمغادرة قبل أن يهم بتحضير نفسه لدوام قلما لبي دعوته مبكراً.

6

أيام بتقويم عربي

أهزأ من قدرٍ لم يُبدع بحكايانا وكررها كسادٍ مخبول، لا يزيده التوغل
بإيلا منا إلا متعة وحبورًا. أنصت إلى ألم فاتن التاريخي وأراه امتدادًا لألم
تربّي في داخلي منذ ولادته فيها، وأتى الوجد السوري ليعمّق من مُضيّ
نصله بجوانب روح بدّدت حيوات كثيرة ولم تركز على حالها. ثم أستمع
إلى ليلي، فيكثر السيف نفسه بضرباته ويمر على جروح قديمة ويفقأها فلا
يصيبه لا استعطاف ولا ندم أو تعب.

قصّت علينا ليلي طفولتها، فخلتني في زمن آخر كم تفت إلى بداياته،
وما كان لي منه إلا الحلم به. كانت تذهب إلى مدرستها كل صباح مشيًا على

الأقدام، مدرسة الأمريكان في حي المنصور ببغداد، تمر على بقال حيّهم، يصبح عليها بصوت عراقي أجشّ، كم تفتقده الآن، يعدها فيه أن يومها سيكون مباركا، فتكمل طريقها حاملة معها العصير وقطعة البوسكوت بالشوكولا اللتين تشتريهما منه بإصرار كل يوم، تخرج من حيهم إلى شارع 14 رمضان، الذي يخرق أحياء أخرى جوارهم بطريقه إليهم، أحياء كانت بساتين على أيام والديها، وأصابتها الحداثة بصميمها واقتلعت أجمل أشجارها، تمشي على أقدامها فلا يصيبها التعب، لا من طول الشارع ولا من قساوة الطقس يوما، كل ما يعترضها ينبض بالحياة، من المكتبات للمطاعم والمحلات، تطالع فقريناتها ومعروضاتها باهتمام لا ينقص مع الأيام، تحيي نصب أبي جعفر المنصور بابتسامة ثم بانحناء متواضعة من وجهها إلى الأسفل، كما كان يفعل أبوها بعد أن يخلع قبعته حين تكون برفقته، إلى أن تصل مدرستها، تقف عند الكشك الصغير المنصوب أمام بابها الكبير، تقلّب مقتنياته من الكتب القليلة والمجلات، كأنها تغيرت عن الأمس، وتعهه بشراء رواية منه آخر الأسبوع.

أعي تمامًا حزن ليلى على طفليتها اللتين لن تدركا أن العيش قد يكون بهذه البساطة، وأن الوطن يمكنه أن يكون بهذا السحر والجمال، وإن كان فوضيًّا، متسخًا بعض الأحيان وصاخبًا، بأنهما لم تتذوقا طعم الضياع في شوارع لا تنتهي مفاجآتها ولا يتوقف أهلها عن مناداتك لشتى الأسباب على طول الطريق، لن تعمر سمعيهما باللهجة العراقية الممتلئة بالحياة والحب،

الخشنة والمرهفة في آن معاً، تقوِّضك أحياناً بحسبها الرجولي وفي مرات أخرى بإغراءات أنوثتها، لن يتربيا على سماع أغاني الماضي فيها، التي لا يعرف أحد أن يمنح حكاياهم قدرها مثلها.

لم يمهل القدر ليلي زمناً كافياً تشبع به من وطنها، فما إن بلغت ربيع عمرها حتى قُرعت طبول الحرب واندلعت النار التي باتوا يعرفون تماماً كيف يضرّونها بسائهم وبأحلامهم، نار لا تعرف إلا الحياة على دمهم ولحمهم هم، لم تشبع منهم يوماً، ولها في كل زمان حصاد جديد، لم يبق على حاضر ميسور وموعد بالخير، وأتى أخيراً على ماضي عمره آلاف السنين. تقول ليلي بعينين دامعتين: «من سيصدق الآن بأننا جئنا من غابر الزمان، ومن كل مكان، تعايشنا كالإخوة، تلاحمنا حتى ضاعت ملامحنا وأصولنا، واجتمعنا في يوم بعيد على حب العراق، من سيقرّ بعد رؤية كل هذه الدماء، من؟».

لم تتمكن الحرب من إخماد جذوة شعلة ليلي. كانت لا تركز على حال، تنتقل من مكان إلى مكان، من البيت إلى الجامعة، التي كان انتسابها لها في سن مبكرة، إلى مقر اجتماع الطلبة، إلى ساحة الجامعة أو الكافتيريا، إلى المختبر، إلى رابطة التيار البعثي^(*)، الذي تهاها أنها أخذت بتطلعاته، فيما كان افتتانها بالشاب الذي قدّم لها أفكارهم بقلب شاعري، وتجد في نهاية

(*) التيار البعثي: تأسس حزب البعث سنة 1947، واستطاع أن يحكم دولتين عربيتين هما سوريا والعراق، وهو حزب قومي عربي يتبنى الفكر الاشتراكي.

اليوم وقتاً تنجز فيه واجباتها وتراجع محاضراتها أولاً بأول. كانت تحب الحياة كما تحبها، لم تبخل عليها بشيء حتى بمخاوفها، باعها الأكبر منها الذي لم يكمل هناءها بها. كانت موهوبة مثلي بخلق مخاوف جديدة كل حين، تلعب برأسها وتدخل بين أفكاره، تدفع بشكوكها البغيضة في كل مناسبة، فتتلف لحظات بسيطة، تلقائية ومفرحة بطبيعتها. أكبر مخاوف ليل كانت دينية، تحاصر ردات فعلها بعقوبات دنيوية وأخروية عشوائية، ربما يخلطها كل منا على قياسه، فيما تحررت أنا منها، واستبدلتها بغضب عملاق، يغفو فوق طبقات من مخاوف تجثو بكل ثقلها في أعماقي، لم يبد لي أو لاحقاً لفاتن وليلي أن لي برءاً من أي منها، في زمن قريب.

تدحرج سنوات طفولة فاتن أمامي الآن كما تلتها علينا، تلك التي أمضتها في أرض ما كان يجب أن تخطو خطواتها الأولى عليها، تعثرت ونهضت في كل مرة إلى أن بلغت سن الصبا والشباب، كان محتماً أن تكون هناك، في وطنها مثل كل طفل محظوظ في هذا العالم، هناك حيث وُلدت القداسة والتاريخ والمحبة، ومن ثم الكرامة، قدس الأقداس تدعى مدينتها، أقدم مدن التاريخ وموطئ قدم كل الأنبياء والمرسلين والقديسين، وكل هؤلاء الراكضين خلف قبسهم. كانت أراضيهم واسعة، تسرح فيها الخيالة، تملؤها الخضرة والجمال والخير الوفير، تغطيها أشجار الزيتون والبرتقال، ويتشرب أريج زهرها في كل بيت وفي كل شارع، عبق يعشعش في الروح، ويترك فيها بقاياها. لأشجار الزيتون في مدينتها مكانة ترتفع إلى رتبة الأولياء،

وللكثير منها جذور ضاربة في الأرض لبضع مئات من السنين، لذلك فإن مشهد معانقة نسائها لشجرة زيتون الدار، عندما أُجبرن على الرحيل، مشهد حُفر كأيقونة في ذاكرة التاريخ، لا يبرح مخيلة الكثيرين، من مشارق الدنيا ومغاربها.

كانت طفلة من أطفال فلسطين، ولدت وكيس الخلاص ملتصق بوجهها كما أخبرتها والدتها، حين سلمتها لها الممرضة يوم ولادتها، وتنبت لها بانكشاف الحجاب عن رؤيتها. صحت على قصة مدينتها، تُتلى عليهم كالصلاة بصوت أبيها، مدينة لم ترها إلى الآن، لكنها ورثت عشقها منه، ثم من حزن وتغني كل العالم العربي عليها وبها في كل مكان. فمع كل مسؤوليات الأبوة في كل بقاع الأرض، على الأب الفلسطيني مسؤولية كم هي ثقيلة، أن يرسم لأطفاله صورة وطن ضاع، وطن لم يروه بعد، حلم يتبين لهم في كل يوم أنه عصي على التحقيق. إن كان الأنبياء يخافون على ضياع رسالتهم وتعاليمهم وتضحياتهم بعد مماتهم، فكيف يمكن تصور ذلك الخوف الذي يعيشه هؤلاء الذين فقدوا أوطانهم أمام أطفالهم! كان أبوها يعرف أن عدوهم أراد إيهام العالم، أن الإشكالية على المكان، في حين أن محاولاته اتجهت، ومنذ اليوم الأول، إلى سرقة الانتباء، سرقة الهوية والكيان حتى سرقة الحلم بالزيارة، ناهيك عن الحلم باسترجاع المكان. كان يحكي لهم عن أيام طفولته كأنهم سيعيشونها، ويتذوقون طعمها يومًا ما، إلى أن مرت كل تلك السنين أمامه، خيبة وراء خيبة، يتلقفها قياديو

القضية، ويمررونها لكل عصابات العالم، لتنتهي على مائدة عشائه، فينهي بها يومه ويحبس دموعه أمامهم، ويحلم بيوم جديد.

مع وفاة أبيها المبكرة، ماتت القضية الفلسطينية بداخلها، حنقت عليها من بعده، وحملت ذنب رحيله. كل الحزن الذي نما طفلاً بداخلها، وتربى إلى أن غدا فتياً مثلها، يرافقها أينما ذهبت وكيفما تلفتت، قتلتها داخلها مذ مات أبوها، واحتل حزنها على غيابه كل شيء.

كانت لفاتن ميول عادية للرسم، ومحاولات بسيطة فيه، اعتقدت أن لا من شيء فيها يميزها عن أي فتاة، لا بد أن جربت يدها بالرسم، على جدران البيت حين كانت صغيرة وعلى كل ورقة وقعت بين يديها في مراحل عمرها المختلفة. لم تكن موهبة الرسم من الهبات التي صدّقت أنها منيت بها، ولم تكن تريد الاعتراف بها يوماً، أنكرتها على نفسها، وأغلقت الباب في وجه كل النداءات التي كانت تصرخ بها روحها نحوها.

الفصل الثالث

روح لا تنام

1

الهالة

تحتل ذهني مفردة الطاقة الآن. أخرج من لقاءاتنا محملة بها، أقلبها من كل أوجهها، كأنها غدت تسيّر كل شيء. تخرج عنا وترافقنا ولا دراية لنا بها، تشي بأسرارنا وبأحوالنا وبما يحول بخاطرنا دون أن ننطق بكلمة. فالشجرة عندما نجلس بظلها، تسمع همسات طاقتنا، وهكذا تفعل ورقاتها، وحبّات الرمل التي تحملنا، والكلب الذي مرّ بجوارنا للتو، وتوقف ونظر نحونا، والعصفور الذي حلّق فوق رؤوسنا، وربما حطّ أمامنا، والصديق الذي يقاسمنا برهتنا، والهواء الذي يغمرنا.

ما هذا العالم الذي دعّني ليل وفاتن إلى ولوجه؟ إنه كل ما أتوق إليه،

وفي داخلي حدس يقودني نحوه كأنني مشيت دربه من قبل. كل ما أسمعه منها يبعد ما لا أستعجبه كأنه كل ما أعرفه، وإن بدا عليّ الاستغراب لأول وهلة.

أهرع لمكتبتي مستنعدة بكتاب (*) أثير لدي، أبحث عن أسطر فيه، ميّزتها برسم خط أسفلها، فأعيد قراءتها، عليّ أقع على ما لا أدري بأنني أستقصي عنه، فأقرأ نتيجة من نتائج نظرية الكم الفيزيائية:

« أصغر الأجسام التي يتألف منها عالمنا ليست أجساماً مادية، صامتة وخرقاء، بل في جوهرها رزم من طاقة، تنطلق بالكون بوعي حر، غير مفكر، لكنه مسئول عن السير التفصيلي لعمليات الكون».

فتعقد الدهشة كياني، ويرخي ما قرأته منذ سنين، ظلالاً مختلفة عليّ الآن، فبعد أن اعتقدت أنه قد انتهى ما بجعبة هذا العلم من كنوز، يأتي ويقلب عليّ مجدداً صندوق عجائبه، ويرافقني كصديق قديم، يعرف الطريق وكله حماس أن يكون مصدر دهشتي من جديد. نحن من جهة، مادة ذات كتلة تخضع لقوانين نيوتن للحركة، ومن جهة أخرى نحن طاقة، نور صرف تحكمه فيزياء الكم، وأنشتاين ضم طرفينا إلى بعضهما بمعادلتها الشهيرة. ثم أقرأ:

«هذه الجسيمات تتحرك بلا هوادة بالفضاء الفسيح، مكونة علائق

(*) كتاب «لغز عشتار» لفراس السواح.

وتفاعلات مستمرة دائمة التوسع داخل شبكة منسوجة بإحكام».

فترسخ بداخلي اعتقاد قديم، كثيرًا ما تنزه بعقلي، عن ارتباط بعضنا بالآخر بكون كله تشاركي لا انفصال فيه.

الوعي والمادة، كالروح والجسد، كالكون والوعي الكوني، متضمنان ببعضهما في رابط وثيق لا ينحل، فأحدهما هو الشكل المقابل للآخر.

الآن أدرك كبر المسافة بيني وبين نفسي، بين عقلي وجسدي وذلك الآخر مني الذي لا أدرك له أسما. وحين نمت هذه المسافة، تربى الخوف بداخلي كل هذه السنين، فغدا عملاقا ومسيطرًا على رغبات ومطامح كثيرة كانت تود لو أخذت فرصتها بالتجلي بأيامي.

تقول فتن: «ليتك تعلمين أن عقلك الراجح هو الذي يضيق عليك الفرصة ويحرمك من أكثر نعم الحياة هناء»، تراها كانت هي الأخرى تأمل لي بالدعوة ذاتها التي أسمع الجميع يدعونها ويكررونها لبعضهم بعضًا ولا يعيشونها أبدًا؛ الدعوة بهناء البال.

لكنها، وفي الوقت ذاته كانت تطمئنني بأنني على أعتاب العالم الآخر، وإن كنت أهاب الدخول إليه فعليًا إلى الآن. كانت تعلم أن عقلي دائم التشويش، يقطع كل المسالك المؤدية إلى السكون، وفي لحظات صفاء ذهني، وغياب لفكر لا يهدأ، أذهب إلى هناك بلا إرادة فعلية مني، ويحل السلام، ويشع كل ذاك الجمال الذي لا أعرف كيف أستبقيه وتتوق إليه روحي.

تقول ليلي: «أنت تجادلين بلا هوادة أو استسلام بالدين والوطن والسياسة والمجتمع والله، بكل ما تملكين من قوة وبأس، كأنك في معركة مصيرية، وبشأتك فيها ستنفذين الآلاف من البشر»، ثم تضحك، في الوقت الذي ترغب به فاتن بإمسالك رقبتني وإخماد أنفاسي، وفي حوار آخر تتبادلان الأدوار فيما أثبت أنا على عنادي وولعي بالجدل.

تقول فاتن في إحدى المرات: «أعترف بأنني معجبة بالكثير من أفكارك، والأهم بصدقك وبطيبتك، بإخلاصك وحماسك بعرضك لاكتشافاتك ولقناعاتك، الذي دفعني فعلاً للتفكير فيها وفتح أمامي احتماليات ما كنت توصلت إليها وحدي. ومن جهة أخرى، تذكّرني بنفسني منذ بضع سنوات، لم أكن على هذا القدر من النشاط والحماس أو حتى الحق، لكنني كنت بشكل ما أشبهك، سريعة الغضب والاستثارة، يبدو عليّ التعب مما أجرجر نفسي إليه بكل يسر، ينضب مني حزن عميق، تنفسي سريع كأفكاري، يخلو من أي محطات استراحة تسمح له بالوصول إلى أماكن قصية في جسدي، ويكتفي بالتسكع بين صدري وأنفي».

أكره ندمي وكل مسبباته في يومي، أبغض انجراري في كل مرة إلى حوارات لا فائدة منها، تزيد سخطي وسخط كل السامعين للغوي. ما أسهل ذهابي إلى موقعي هذا واكتشافي المتأخر دومًا، أنني أقف فيه وحدي. يجب أن أعد نفسي ألا أتورط بالجدل حول الإرث الشرقي، سواء الديني أو الاجتماعي، وأسلاكه الشائكة، مهما آمنت أن الحق يجانبني هنا أو هناك،

فالتغير لا بد آت، ولن يولد على يدي في حوار ليوم.
تحليلي العلمي المعقد يلتقي مع ما تؤمن به ليلى وفاتن ببساطة شديدة،
فهما لم تجهّدا بالضرورة من مقاربتة مع معتقدهما الديني، وارتاحتا لمسير
كل منهما بدربه، ولم تجدا مشقة بإرخاء جفونهما كل مساء، إيقاف هدير
الأفكار برأسيهما، وأخذ أنفاس عميقة والإبحار إلى هناك.
ما أبأس أن يُرى الكون بعيون العقل وحده. كم تأخرت بالوعي أن
التحليل العلمي والفلسفي هو طريقة محدودة بالنظر إليه!

2

شرر الموروث

نلتقي ثلاثتنا بالقهوة ذاتها، فجلبتها باتت خلفية ألّفناها بحواراتنا، ما إن نلقي السلام على بعضنا ونتعانق، نهرع لإحضار قهوتنا والجلوس حول طاولتنا والتحول لأذان صاغية، نظل على هذه الحال ساعات، نأجل رغبتنا بالطعام، كي لا يُقطع حديثنا، إلى أن يحين وقت المضي للمتابعة ما تبقى من يومنا الطويل.

تبدو فاتن هذا الصباح على حالها المعتادة، ثمة ما يؤرقها، عيناها تَحْمَلان تساؤلات وحكايات لا تقوى على حيازتها بداخلها أكثر من ذلك.

تبادرها ليلي بالقول «توشك عينك على البكاء، ما الحكاية، ماذا جرى معك بالأمس؟».

تجذب فاتن شعرها بعصبية إلى الخلف، تمتص شفيتها بحنق مكبوت «لا أدري كيف أبدأ، كالعادة أنا في حالة ضياع، لا أستطيع تفسير ما يحدث لي، وهل أتخيل كل شيء، أم إنه يحدث فعلاً، من يخطط لما يحدث، الأستاذ، القدر أم العبث؟».

أستعجلها طالبة منها الاستفاضة بالوصف، مؤكدة لها شوقنا لسماعها. تبلع فاتن ريقها، وتأخذ نفساً عميقاً، وتقول «تحمّلاني، ربما اعتقدتما أنها أضغاث تخيلات، أعطيني رأيكما، أريد أن أرتاح. كما تعلمان، هذا هو الفصل الثاني لي مع أستاذي ألبرت، نحن الآن في منتصفه، والمادة التي سجلتها معه لهذا الفصل، هي لتعلم الرسم بالألوان من صورة فوتوغرافية ننتقيها على ذوقنا». تلتفت فاتن نحو ليلي مقتطعة حديثها لتقول «سأعيد ما حصل معي من أجل مي. في الأسبوع الأول لي بالفصل، دخلت متأخرة عن موعد المحاضرة، وكان الجميع يجلسون على طاولة مستطيلة طويلة حول الأستاذ، الذي كان يشغل مركزها، كان الخجل من تأخري ومن مئات الأسباب الأخرى، يملأ حواسي، وعيني الوجلتين تبحثان عن مكان يأويهما ويريحهما من تجولهما بالفراغ، وعندما وعيت لضرورة إيجادي المقعد فارغ أشغله، وجدت أن المقعد الذي بجواره تماماً قد ترك فارغاً. عندي شك دائم بأنه يمهد لكل شيء حسب إرادته، من أكبر التفاصيل إلى أدقها، فمن الذي ترك لي هذا المقعد شاغراً، هو أم القدر؟ هل أدرك كلاهما شوقي وانتظاري له؟ ما هذه الصدفة!«.

أجابتها ليلي بصرامتها المعهودة «كما سبق أن أفضيت لك، لا أعتقد أنها مصادفة، من وداعكما المرتبك في الفصل الماضي قرأ خوفك من انتهاء الفصل، وهو الذي ترك المقعد فارغاً، ليستقبلك استقبلاً يليق بشوقك، ويؤكد لشوقه أيضاً».

أتساءل بوجل من يخاف أن يضيّع المزيد من التفاصيل القيمة: «تمهلاً، ما قصة الوداع هذه؟ ما الذي فاتني هنا؟ وداع واستقبال وشوق؟».

يبدو أن اليوم الأخير في الفصل الماضي كان مفاجئاً بوجعه، حطّ على فاتن ونزل فيها كأنها أصيبت بحمى أو بطلق ناري، مما جعلها تستبق عجزها في مواجهة الأيام التي ستقضيها دونه حينما يأتي موعد الفصل المقبل، كما حاولت ليلي أن تفهمني.

أقول دون أن أتنازل عن ذهول سيرا فني لزمن طويل: «لا بد أنه يشعر بمشاعر خاصة نحو فاتن، إنه يحبها. ربما اعتقد أنها تحبه! ما الذي سيجعله على دراية باحتمالية افتقادها له إذا؟».

تبادل ليلي وفاتن الابتسام، ونظرات تحدس ولادة مهمتهما بمدارة مشاغبتني من الآن فصاعداً، ثم تعود فاتن إلى تفاصيل ما حدث بالأمس وترد «الموضوع أعقد من ذلك، هذه المشاعر لم أحسها مع أحد من قبل، أحسست بالوهن لأنني أبتعد عنه، لكنها ليست مشاعر حب عادية. حب من نوع آخر، هل تصدقان لو أخبرتكما بأنني أحس بأنني أحبه كأنه طفلي

ومرات كأنه والدي! إلى جانب مشاعر الحب التي تودان أن تتهماني بها على الدوام».

أنظر إلى فاتن بإعجاب معجون بالدهشة وهي تتكلم، فحين تشرح ما ينتابها، تشرق عيناها من شدة تأثرها وانفعالها فيصبح لديها استجداء خاص بهما، يطمئن كل هنيهة على وقع الكلمات على سمع وعقل المنصت لهما، فيما تتابع «دعاني أكمل لكما، جلست في المقعد الذي بجواره وأنا أرتجف خجلاً وشوقاً، فأنا أخيراً قريبة منه. كنت أنظر إليه مع عشرات الأعين الأخرى التي تقاسمنا الرسم، فأرى عينيه بحالة تشبه تلك التي تتوقف عندها الأعين عادة قبل أن تهماً بالبكاء، مرخيتين، يشوبهما احمرار خفيف، لا من تعب أو إعياء بل من وجد يلّم بهما، تنقلات رأسه بطيئة، يتحول بها وجهه من تبدّد إلى آخر، كأن من الطبيعي أن يكون للإنسان العديد من الأوجه، كل منها أجمل من الآخر، وكلها هو. ما زلت مأخوذة بحضوره، منجذبة بكل كياني إليه، والزمن بطيء أو يكاد لا يمشي، جسدي خفيف أو أنني تركته على المقعد جاثماً بلا حركة وحلقت فوقه، وبعد يتغير فيه كل شيء، ولا تعود له قيمه وأقداره المألوفة.

ثم ذاك الفرح الذي يخلق بيننا، ما الذي سيقف بيني وبين إدماني المتنامي عليه؟

كان علينا أن نعدّ الصور والأفكار التي ستؤسس للموضوع الفني الجديد لكل منا، وهو ما لم أوفق به في الليلة التي سبقت هذا اليوم وأنفقتها

في البحث بلا جدوى، وعندما ابتدأ بسؤالي، طلبت منه أن يمنحني بعض الوقت لأرتب أفكاري، وبأنني لست مستعدة بعد للإجابة. استغرب من ردي وأراني إحباطه، وبعد أن انتهى من سؤال الجميع، تابع الدرس وهو يوزع انتباهه للجميع ويستثيني منه، كأنه كان يوبخني عن مقابليتي شوقه بكل هذا الإهمال، ولم يفترض الارتباك. أم تُراه كان لا يود إحراجي؟ لقد فوجئت بأنني - ولأول مرة - أرى فيه رجلاً إلى جانب كونه أستاذًا، وخوفًا من انعكاس ذلك على عينيّ حين ترمقانه، بتّ أتحاشى النظر نحوه. إنني متيقنة من أنه يرى كل شيء، فما من شيء يفلت من رصده. أحيانًا أحس بأن لديه عينين خلف رأسه أيضًا. أينما أخذتني أفكاره وهواجسي، أوقن بأنه يقرؤني، وأحس بعجز تام حيال جاذبيته وقوته! أنجداني بالله عليكم!!.

تبادرنا ليل بصوتها المؤكد والمطمئن «لا أحس بأنه رجل عادي، يحاول غوايتك، هو أستاذ عبقرى».

أردُّ بنفاد صبر: «إنه رجل، وإن كان معلمًا استثنائيًا، إنه منجذب إليك، كما أنك منجذبة إليه، ما الغرابة في ذلك؟ نحن بشر، وقلوبنا تنبض بين ضلوعنا، القلب لا يفهم القيود، العقل وحده يقوِّض كل شيء».

تردّ فأتن بإصرار تغلفه حساسية قلما تتحرر منها: «أنا أحب حسام الأمس واليوم وغدًا، ولا يمكنني أن أحب غيره. ولا أقبل أن يتسلل هذا الإنسان بيننا، مع انبهاره الشديد به، هل يعقل أنه يمارس عليّ سحرًا ما؟».

تقول ليلى بعد صمت قصير: «لا أعتقد. لا بد أن يكون هذا الإنسان على درجة عالية من الشفافية أو ربما الروحانية، من يدري! وما يمكنه الإحساس به أو لمسه بالآخرين، لا يتمكن منه الكثيرون، وهو ما جعله يقدر ما يراه فيك».

أعود إلى عناد سيتملكني هو أيضًا طويلاً فأقول: «لماذا تهربون من مواجهة الحب؟ تقفون في وجه كل العطايا، من أجل موروثنا الخائق لكل الجمال، المدعي دومًا حمايتنا، حمايتنا من ماذا؟». أتابع وحسّ ساخر ولاذع يرافق كلماتي «يتلفت موروثنا حوله وبحذاقة نادرة يردّ، حمايتكم من أنفسكم! أقول لكم، الحب في بلادنا ومنذ الأزل مواطن هارب من العدالة، ولن يعطوه حريته في أي وقت قريب. مفاهيمنا وتقاليدينا كلها تعوم على السطح، ولا تجرؤ على الغوص إلى أي عمق، إلا إذا طُرحت أمامها مسألة دينية أو تاريخية، وليتها تخرج بعد جهداها الكبير بكنز يدخل البهجة إلى أي ركن في الحياة أو يحدث فيه أي تغيير نحو الأفضل. أضعنا الوقت كله في فلسفة غير مجدية، وأضعنا كل فرص الفرح، اعتقدنا أننا غدونا أمة أكثر ثقافة، فإذا بنا أكثر بؤساً، ليس إلا. أمة متخصصة بكتب الرغبات والتعالي فوق نداءاتها وهي في غفلة عن نفسها وعن الجميع، لا تلبي إلا أصداها».

«لا، أنا لا أخاف الموروث كما تقولين. أنا لا أحب أستاذي ببساطة، يمكنني أن أقول إنني منجذبة إليه بشكل ما، أحب أن أكون حوله، وأهم

ما في الأمر، أنني أود أن أتعلم منه كل شيء. إنه يشئت تفكيري بكل تلك المشاعر التائهة نحوه، وأنا أريد أن أركز على فني». محاولة ألا تبدو مستفزة تسترسل فائن بأحداث بضعة أسابيع مضت «سأكمل لكما ما حدث كي أصل بكما إلى يوم أمس في النهاية. بعد كل تلك الهواجس التي راودتني، من ملله مني، لاهتمامه بطلابه الجدد، لفهمي الخاطئ لما يريد مني فهمه، لخبيته من اختياري الضعيف لموضوع لوحتي المقبلة، قررت أن أنتصب لأوهامي وضعفي، وأن أركز على موضوع لوحتي. بحثت عن كتب في المجموعة التي بحوزتي، التي جمعتها من مجلات وكتب ومواقع إلكترونية إلى أن استفزتني صورة فوتوغرافية لمنظر طبيعي تحتله صخور ملساء، ترقد بينها أحجار بارزة الأسطح، يتدفق بالفراغات التي يحدها توزعها، شلال من المياه الرقراقة. صورة تعكس الصخب والفوضى والجمال والثبات والتردد الذي أعيشه، صورة قلبت حالتي إلى حالة من الثقة والتحدي والإصرار على الحضور، فقررت أنها هي. وحين عرضتُ عليه فكري، بدا بقمة النشوة والفخر بي».

تبتسم ليلي من قلبها وتمدّ يدها ممسكة يد فائن «عيني فائن، أفرحتني، هذا ما أودّه منك، الثقة، عليك الثقة بحدسك أكثر من ذلك».

تبتسم فائن سعيدة برأي ليلي، الذي يكون دومًا جسرًا بينها وبين فهمها حقًا لما يدور خلف أبواب هذا الفصل الغريب الأسر، باتت في كل مرة، لا تصدق كيف ستمضي كل تلك الساعات المضنية والمفرحة في آن، وتركض نحو ليلي، لتريح لها هواجسها.

تجذب فاتن نفسًا قصيرًا وتكمل وصف المشهد: «بدأت العمل في موضوعي بانسجام وثبات، وبدأت المعالم الأولى بالظهور كما حلمت لها أن تكون في الأسابيع المتتالية، وعندما شاهد ألبرت عملي بالأمس، أشاد بقوة ضرباتي للفرشاة، وباللون الأول الذي انتقيته، وكيف تنقلت فيه بين النور والظلال، وقال بأن عملي يمتاز بالتلقائية وفي نفس الوقت بالإصرار. تشجعت وأكملت الرسم، ومر الوقت سريعًا، إلى أن قارب وقت الدرس على الانتهاء، وجاء دوري لمناقشة ما آلت إليه لوحتي لهذا اليوم، عاد إلي الخجل والخوف والتحفظ، وسألته بكل جبن: هل يمكنني إلغاء اللون الأصفر من لوحتي، لا أرتاح إليه؟ نظر إلي نظرة هي خليط من الدفء والحب والإغواء والضعف، وأرخى جفونه وقال؛

«عندما ننظر إلى شيء ونحس به، يصعب علينا محوه أو التظاهر بأننا لم نشاهده».

«When we look at something and feel it, it becomes hard for us to delete it or to pretend that we didn't see it»

وبمجرد انتهائه من جملته، أحسستُ كأن غيمة كثيفة حطّت على رأسي، غيمة من سكون، ضاع فيها سمعي، ولم يعد حاضرًا إلا طنين أذني، ربما لثوانٍ، صحت بعدّها من حالة تشبه الإعياء، على صوته يقول «يمكنك استخدام الكمبيوتر لتحقيق ذلك»، فقلت باستعجال «لا... لا، سأقبل باللون الأصفر، لا أود محوه». ثم أعاد الكرة مرة أخرى حين سألته عن

بأقاي الألوان التي استخدمتها، فدخلتُ حالة السكون إياها، وصحوتُ على صوته يقول «استمتعي بالرحلة وانسي أمر الوجهة، لا تعطها أولوية لا تستحقها. ركزي انتباهك على الوجود بال لحظة عوضاً عما ستجزيه فيها».

«Enjoy the journey and forget about the destination, don't let the destination take precedence of the journey. Focus on the realization of being rather than on doing»

ثم دخلت في حالة السكون مرة أخرى، وصحوتُ على صوت عالٍ يقول لي «اتركي نفسك، دعي طاقتك تجري، لا تقفي في طريقها».

«Let your energy flow, don't stand on its way»

خرجتُ من الفصل أرتجفُ، جسمي ينتفض، كستارة خفيفة أمام نافذة كبيرة مشرّعة في وجه رياح يوم عاصف، أحسستُ بأنني عارية أمام الجميع، الآن سيدركون بأنني ضعيفة أمامه وأمام نفسي، لماذا أراد أن يكشفني أمام الجميع، وما هدفه من ذلك؟ ألا يرى ضعفي، ألا يحنّ علي؟ ما الذي يريد مني؟ شاهدتُ أحاسيسي المرفقة تخرج رغماً عني، تغشيني وتغشيه وتغشي كل من شغل المرسوم بالأمس!».

يسود الصمت بيننا بعد أن انتهت فاتن من سردها، نحسّ بتخبطها وبقلقها، نحاول أن نأخذ وقتنا بإدراك كل ما حدث، وبإيجاد الكلمات المناسبة لتحدثتها وتطمينها. ما أبعدنا يومها عن إدراك أن رغبتها بإزالة

اللون الأصفر، لون القوة والثبات، كان محاولة منها بمقاومة ما يعترها من فوضى المشاعر، وبأن ألبرت باستبقائه للون الأصفر، كان يسألها أن تستسلم لمشاعرها نحوه وبألا تقف بوجهها، ليسهل عليه التأثير عليها بالرحيل إلى عوالم الإبداع والسكون.

تبدد ليل كعادتها سحابة صمتنا، تدور بشعرها من اليمين إلى اليسار، لتتركه مجموعاً على إحدى كتفيها «عيني فاتن، مع كل الخوف والضياع اللذين تحسنيهما، لا يمكنني إلا أن أقول، ما أجمل ما تمرين به. سنحاول معاً تفكيك بواعث قلقك واضطرابك. هدئي من خوفك، لا داعي للمبالغة بردات فعلك، لا أحد يريد أن يُظهر ضعفك، ويضحك منه أمام أحد».

تجيبها فاتن باستياء ممزوج بوجل: «لا أعرف ماذا أطلق على هذه الحالات، ضربات، صدمات؟ لقد كررها معي ثلاث مرات! إنني متيقنة بأنه المحرّض لها، كيف يمكنه ذلك؟».

«إنه يحاول أن يثير حواسك لكي تعمل بأعلى طاقتها، يبدو أنه يرى تحبطك وترددك. تذكرني بأنك ما زلت تشكين بقدراتك الفنية، وهو يرى ذلك، ويحاول -كمعلم- أن يحفز موهبتك لكسر قيودها» تتابع ليلى بثبات.

لم أجد تفسيراً لما حصل، فهذه كانت المرة الأولى التي أسمع فيها قصة كهذه، وتحليل ليلى لم أجد به ضالتي، فما كان مني إلا تكرار ما لا أفتأ عن قوله: «لا أريد أن أضغط عليك فاتن وأكرر ما قلت، لكنك تعترفين بأن

لديك مشاعر نحوه، وها هي تغمر الغرفة بأكملها، أرجوك أن تسترخي، وتدعيها تسري وتغرق كل خلاياك، لا عيب في ذلك، ولا انتهاك. استغلي كل هذه المشاعر الغنية، فالفن يحتاجها ليخلق إبداعاً، هذا هو الذي ينفق الفنان زمنه لإيجاده، جاءك راکعاً على ركبتيه، فاستقبله ولا تقاتليه كأنه عدوك اللدود. خذي منه ما يود أن يهديك إياه، ولا تفكري في كل ما حذرک عالمنا من عاره، أرجوكِ».

تضحك ليلى من تكراري لذات الفكرة المتوارية خلف كلماتي معظم الوقت وتقول: «مي، أحس بغضب كبير منك نحو الموروث، علينا معالجتك منه»، ثم تنهض وتعانقني، كأنها تربت على غضب تراه طفولياً، ولا يثير حنقها اليوم، فتكتفي بحثه على الهدوء، ثم تتبرع بإحضار القهوة وحين تعود تتجه إلى فاتن قائلة «فاتن، احتسي بعضاً من القهوة واهديني». تغب بدورها من كوبها ثم تتابع قائلة: «لا أعرف عن هذه الصدمات، لكن أجزم معك بأنه المحرّض لها».

تهدأ فاتن بعد أن انتهت من سكب ما أرقها ليلة أمس. تسند ظهرها بعد أن تعدّل استقامته على كرسيها، تتنهد طويلاً وتشيح بوجهها نحونا كأنها تعتذر عن الإطالة، ثم تنتزع حقيبتها وتذهب لتحضر لنا بعض الحلوى من الداخل. فيما أجلس على حافة كرسيّ، لا أرمي بثقلي كاملاً عليه كأنني أرتفع عنه بضعة ميليمترات، أضع ذراعيّ على الطاولة، وأقوسهما بوضعية الاستعداد لسماع المزيد، أفتح عينيّ بشغف الأطفال، لا أسمع نداءات

شيء، هاتفي، معدتي، واجباتي والتزاماتي، آلامي، كلي أذان صاغية ولا وقت لدي لأحد.

تعود فاتن بحلوى تعدنا بأنها صحية، تقطع ليلى من قطعة كيك الشوكولا المعد بالسكر الطبيعي لقمة صغيرة، تلتهمها بسعادة، تلتفت نحوي فترى ترددي بنوع الحلوى الذي أرغب بتذوقه أولاً، وتسألني عما قرأته بعيني منذ بداية لقائنا، بعد أن تقطع لي بحزم قطعة مما تذوقته وتضعها في صحنِي: «ماذا عنك مي، هل من أخبار جديدة عن صديقك العتيق؟».

أبتسم ابتسامة أنتزعها من أعماقي: «ماذا سأقول لكم، بعد أن هزأتُ به ومن نفسي التي كانت تعشقه، وعدت أكلمه بغنج وبتمنع من تملك الأمر كله بيديها، وسخرتُ بالسنين التي ضاعت من بين يديه، وأضحى فيها وحيداً، وببضعة الكيلوجرامات الإضافية التي اختزنها، صحت منذ يومين غارقة بحبه من جديد. لم يعد أي شيء حولي كما كان، فالأغاني اتخذت مكانها الدقيق في وجداني، كلماتها تحاورني وحدي، أنغامها تشدو مع كل الموجات الصادرة من قلبي، والألوان اشتد ألقتها، والسماء زحمت مشاهدها، والروائح الطيبة طال عبقها، حتى الهواء غدا له ملمس، هناك من عبث بقيم كل شيء، غير بقوانين الطبيعة، وسيّرهما على مزاج الحب. اعتقدت أنني أحببت في الزمن الآخر لصغر سني ولقلة خبرتي، وها أنا أقع بنفس الخطأ مرة ثانية، لا مبرر لي الآن سوى حماقتي. كل ما فيّ لا يريدني أن أعود إليه، عقلي، حسي، تاريخي، كلماته تحاول جادة هي أيضاً أن تثنييني عن

المحاولة، حتى النبض الذي عاد متدفقاً بقلبي يخاف أن يكون له».

يسود صمت قصير بيننا، أرى في عيون فاتن وليلي ما لا يمكنني أن أصفه بأنه حزن على حالي، بل تعاطف يفهمانه ويبحثان جادتين عن مخرج مضيء له.

تبادر ليلي: «حببتي، أسرّتنا بمشاعرك الرقيقة. ما الذي أعادك إلى موقعك القديم ذاته، هل أبدى لك مشاعر خاصة؟ مي، احكِ لنا عنكما، هناك ثغرات في قصتكما، تمنعني من أن أرى الصورة على حقيقتها».

تلحقها فاتن وتقول، وعيناها تعانقان كل العذوبة التي قرأتها بعيني: «كم أتمنى أن يكون جديراً بمشاعرك مي. يا لجمال عينيك! هل رآهما بكل حالتهما؟ هل رآهما بمجرد انتهائهما من بوحهما العذب؟ كيف استطاع في الماضي مقاومتها؟».

أجول بعيني بعيداً عن عيني فاتن بعد أن أبتسم لهما امتناناً، ثم أعود وأجبر نفسي على الاستمرار بالابتسام وأتابع: «سأرد على تساؤلك ليلي أولاً، عدت إلى موقعي القديم معه، مع أنني لم أره منذ زمن بعيد، فلقد اتبع معي أسلوبه الساحر كعادته، أغرقني بمدحها لي من زوايا كثيرة، بعضها خاص به وحده ولا يراها غيره، كرؤيته لي ككاتبة مثلاً، وإصراره على تصويره، الذي أرفضه كل مرة بعناد شديد. داعبتني كلماته الرقيقة طوال اليوم، كلمات توقظني من النوم، وتأخذني إلى سريري مساءً، تسألني عن

حالي وعن أسباب تغير صوتي ومزاجي، تقرؤني، كأنها لم تتركني يومًا. ثم اعتلى مسرحه الكبير، وتدافقت الأشعار تؤدي دورها التاريخي، بلا انقطاع، كأن عرضها الجماهيري المقبل غداً، وصدحت الأغاني ترقص على أنغام حسه، أغاني قديمة لم يعد يرددها أحد، وأغانٍ دارجة بهذه الأيام، توليفة مجنونة من إعدادة، يقطعها بآرائه ومعلوماته المتدفقة في السياسة والتاريخ والأدب والاقتصاد. فاكشفت انفتاحاً في فكره كان ينقصه في الماضي، فرويته للدين أخذت منحى صوفيًا، بعد أن كانت مغلقة وتقليدية، وفي مرات عديدة محرصة لخلافات بيننا، نبدأها بحوار هادئ يتطور سريعاً إلى صاحب، وينتهي بصوته يحاضر في بنبرة عالية، حوار ترك تداعياته مخبئة في قلبه، تنخر بسكينة ثم بمشاعره نحوي بلا رحمة. غضبه أيضاً يبدو أنه قد روضه، فأضحى أكثر صبراً وعمقاً، وهناك بُعد روحي واضح في كل كلماته، غلّف كل ما يصدر عنه الآن بغلاف أكثر سلاماً وحكمة. فإما أنني حنيت لأيامي معه، وركضت عائدة إليه، وهو ما أشك به، أو أنني تأثرت بشخصيته الجديدة، التي تأملت فيها خيراً، ورأيت أنه بها قد ملأ الفراغات التي أبعدتني عنه في الماضي. وحين سألت عن المرأة التي ندم أنه لم يرتشف حبها إلى النهاية، فقال بلا تردد، أنتِ».

يسود صمت قصير بيننا، تقطعه ليل قائلة: «ما تقولينه يذكرني بوضعي المعكوس مع منير، فهجومه وسخريته الدائمة من تديني كانا يثيران حنفي ويدفعاني بعيداً عنه. كان يشعرني بتفوقه الدائم عليّ، ويتباهى بالمتقنين

أمثاله، الذين توصلوا جميعًا لحقيقة عبث الأديان بمشيئة أيامنا وغيرها من الآراء التي تغضبني الآن استفاقتها في رأسي. ما علينا منه الآن، أراك سعيدة مي، وإن كنت تبدين خائفة، أنت بحاجة إليه الآن، فلماذا لا تستغلين وجوده وتنهلين من نبع هذا الحبور؟ أنت بنفسك تقولين إنه قد تغيّر. إن كان كل شيء يبدو ساحرًا لك الآن، فاستمتعي باللحظة كما كنت تقولين لنا دومًا، فعالم الحب لا يمكنك أن تدخليه متى تريدين، وما أحوجك له في هذا الوقت من حياتك. لكن أين هو الآن؟».

أما فاتن فتقول: «أنا أفهم مي، إنها تخاف أن تخذل نفسها معه مرة أخرى، من منا لا يريد أن يغرق وينزل تحت الماء، حتى آخر نفس فيه، لكن مع رجل يستحق ذلك».

«إنه لا يزال يقطن مدينتنا، رغم كل يحيط بها من دمار. أنا معكم تمامًا ومع نفسي، وسأقفز مرة أخرى، وبلا أجنحة، لا من أجله فقط، بل من أجل الحب، ولن تهمني هذه المرة أيضًا، كل أضلعي المتكسرة». أرسّم على وجهي ابتسامة من لا تريد أن تبدو ضعيفة أمام بوح لا تدري من أين ستبدأه، وإلى أي عمق تود لقدميها أن تنغمس فيه. ابتدأت عيناها كلامها قبل صوت في مصاب منذ زمن بعيد بالعطب، صوت مبلل ويشكو من برد عتيق، يقطع أوصاله وانهار كلماته، يحدج صوتي كل حين السامع له، يستمرئه كأنه يقول له بأنه بخير وإن بدا عكس ذلك.

«كانت لنا أيام كثيرة معًا، وإن لم تدم طويلًا، يقطعها سفري، إما امتثالًا

لالتزاماتي العائلية أو العملية بمكاتب والدي. كانت والدي تقوم مقامى أثناء غيابي، وترعى زياد كما اعتنت يوماً بنا، وإن خلقتها أكثرت بعطائها معه كما لم تفعل معنا، مما جعلني أركن عليها، وأخرس صوتاً لا يفتأ يذكرني بتقصيري وبإخفاقي بدور الأمومة. ما أجمل البدايات وما أطول عمرها في ذاكرتنا، وإن كانت على أرض واقعنا لا تتجاوز دقائق معدودات، لم أشبع يوماً من إعادتها على ذهني والغرق بتفاصيلها. تتوالى أمامي مشاهد لقائنا الثالث ربما، حين جئته مع أبي، وخرج كعادته يودعنا على باب مكتبه، ويمشي معنا خطوات حتى سيارتنا، كم بدت المسافات كبيرة، والزمن بطيئاً، أكاد أشتم الهواء يومها، وأحس بلمساته على خدي وشعري، كأنها توقي إلى قبلات شفّيته على طول بشرتي. كان جفناي مسترخيين، من مداعبات النسيم ومن تخيلي لأيامنا المقبلة معاً، قدماي لا تلمسان الأرض، وصوتي يخرج مني همساً كأنه حفيف أوراق شجر كثيف، يكتظ به طريقنا. سافرت بعدها بمدة قصيرة وفي زيارتي المقبلة غدونا معاً، نعيد رسم خريطة دمشق، على وقع أقدامنا وعجلات سيارته وخفقات قلوبنا. لم أعترف له بمشاعري بمفردات صريحة وواضحة، ورميت بها بعد إلحاحه بوجوب الكتابة، على قصاصات ورق ثم بدفاتر كثيرة وأرسلتها إليه رسالة بظهر الرسالة، ولم يتوقف عن مطالبتة بها، كأنها حق من حقوقه. بحدسه المرهف تنبأ بوقع الكلمات في داخلي، بالتصاقها الفريد بمشاعري، وإن كنت لا أشي بها بمفرداتي حين أتكلم، كيف علم بذلك؟ سؤال ما زلت أسأله لنفسي إلى اليوم. في إحدى المرات التي ربما كنت أستجدي بها مشاعره، قلت له إنني

سأكتب عنه رواية تليق به، ما الذي دعاني لهذا القول؟ حدس آخر أواجه به حدسه، وأؤكد لنفسي مجدداً تشابهنا، وأن أقدارنا ما كانت لتلتقي لو لم يكن من أجل كل ما حدث فربما بانتظار ما لم يحدث بيننا، وهينا أو ثِقنا له كل تلك السنين. لم تغافله كلماته في يوم من الأيام، كان حارساً أميناً لها، يكيلها بميازينه فتخرج بحساب، لا تعترف بضعفها ولا بتعلقها حتى بأكثر لحظاتها حميمة. إلى أن غبت في إحدى المرات عن عينيه وقلبه مدة تجاوزت فيها تحمله، وحين عدت، فاجأني بالفتاة التي أضحي يحبها، ولن أقول استبدلني بها، فما قاله بوصفها، ما كان لي منه ذات النصيب. لم أقوَّ على أي رد فعل حينها، وأنصتُ له بذهول ثم باستسلام، فكل ما كان في جعبتي من دروع كنت قد سلّمتها له منذ زمن ليس بالقصير.

وصف لي لقاءه بناديا في بيروت، هرباً من أنظار أهلها بدمشق، ومعانقته الطويلة لها على باب الفندق الذي جمعها لثلاثة أيام معاً، تغزّل بجملها ورشاقة قوامها كأنها تقف أمامه منتشية بهيامه بها، وصف لي دلالها له، إلى الحد الذي كانت تعامله كطفلها، تطعمه بيدها وتمسح له شفّتيه بمنديل رقيق، تختار له لباسه ثم تساعد على ارتدائه، تغسل له شعره وتحلق له ذقنه، وأنا أسمع به بصمت، مسلوقة الانفعال والإرادة. صدّفته، بكيت ثم تحولت إلى آلة لا تتوقف عن الانتخاب. كانت الوجوه القاطنة أو الزائرة بيئتنا تتبدل أمامي، تنظر بحزن إليّ، تتكلم إلى بعضها، تنتقل بغرف البيت، تأكل ما قدّم لها، تحتلس النظر إليّ، تدير وجهها دون أن تنبس بشفة، ثم

ترحل. كان ذلك في صيفية من صيفياتنا الطويلة في مدينتي، انقضت وأنا غائبة في صحراء واسعة لا نهاية لها، لا أبحث فيها عن ماء أو ظل، أستلقي على جنبي أعانق ساقي، منتظرة أن تحيط ذراعاه بخصري من جديد.

يسود صمت جليل بيننا كأننا رجعنا فتيات صغيرات، فما ألقيت به على أسماعهما لم تتوقعاه أبدًا، لن تنكرا أنهما شعرتا بحزن خفي يرافقني بقصتي معه منذ البداية، لكنّ انكساري فجأة أمامهما أربكهما كما أدهشهما. كانت عيناى منكسرتين كعصفور صغير مبلى على آخره، لكن ليس بالمطر.

تتجرأ ليلى على اختراق جدار الصمت: «الآن فهمت أسباب ترددك وحذرِك من العودة إليه. العلاقات التي لا تتقاسم أرضًا مشتركة تحيا عليها، معرضة لما مررت به معه على الدوام. لا أظن بأنه كان صادقًا بوصفه لها، أحسه بأنه بالغ بتصوير دلالها له، ليشير غيرتك. لا أشك بأنه أشاد بك أمامها أيضًا. هذا تمامًا ما أهابه من علاقتي بهاشم، أحس بأن فيه شبهًا من تميم، لا يغدق بالكلام، ولا يربط نفسه به، يحب لنفسه الحرية، ودائم التورط بعلاقات عابرة مع نساء لا أعرف عنهن شيئًا. أودّ أن أصدق الصورة التي بنيتها عنهن، من أنهن سطحيات ويعشقن اللهو بمشاعر الرجال، تصوّر يريخني، ويفتح المجال أمامي، لكي يرى اختلافي عنهن فيهرع نحوي ويسلّي عنهن».

«لا أدري ما كان سيكون عليه قراري لو استبقاني إلى جانبه، لو طلب مني ترك عملي، الرحيل عن الصحراء، والعودة إلى مدينتي. ربما كان

يعرف جوايي مسبقاً، قبل أن أواجه نفسي به، فلم يخرج نفسه بالسؤال. على القدر الذي أحببته به، وأوقن بأنه أحبني على طريقته أيضاً، لم يكن أيّ منا على استعداد للارتباط بالآخر، ثمة لا مسمى كان يحثو على قلوبنا ويهلنا الاعتراف به أو النظر مباشرة إليه، تمرّسنا مع الوقت على التعايش معه والتسليم لماهية حب غريب جمعنا.

«ما الذي حدث بعد ذلك مي؟ هل انتهت قصتكما على هذه الحال؟».

أطرق أمام سؤال فاتن ولا أقول شيئاً لبرهة قصيرة، يتلبّسني حزن لا يليق عليّ، وإن خالطني فاتن لوهلة، أعتقد عكس ذلك، شيء بي يشي بأنني أرتاح للحزن، أعدّه أقدم أصحابي، يضيفي على هيتي وقاراً يزيد من أناقتي، ويباعد المسافة بيني وبين الآخرين، ثم لا أجد بداً من المتابعة «بعد مضي بعض الوقت، رجعت وكلمته، كأن شيئاً لم يكن، أنصتُ إليه ووقفت منه على مسافة كان يملئها عليّ على هواه، في كل مرة. تهاديت على موجه، أعلو معه حين يودني مرافقته، وأهبط إلى القاع وحدي حين لا يرغب بي. حالة لا مسمى لها أيضاً، ارتضيتها ولم أقو مع الزمن على التحرر من أغلالها».

بعد صمت جليل وطويل نسيباً، تنقلب ملامح ليلى المتعاطفة معي، ويغمرها حماس تحقق في حبسه داخلها وبلا تردد تقول بصوتها الواثق والعالِي: «مي، لماذا لا نكتين قصتنا؟».

نُطرق قليلاً على باب فكرتها، نتبادل النظرات فيما بيننا، ومن صهوة فرحتي أسقط على أرض وجلي كعادي، أنفي وجود الحكاية وقدرتي على تلاوتها وإن راق لي اقتراحها لوهلة قصيرة.

«عدينا بأن نحاولي، فكري بالأمر». تنهي ليلى قولها بابتسامة عريضة ومطمئنة، ثم تتغلب على تردددها وترمي بسؤال لا مهرّب منه، محاولة أن تلهيني عن غصة تميم وهلعي من الكتابة، وإن زجنتني مرغمة بأسى مدينتي «كيف يتدبر أهلك أمرهم في المدينة الأكثر شجناً في العالم؟».

أحاول الرد متجنباً الانغماس بتفاصيل مؤلمة. هو قرار وصلت إليه بعد مرات كثيرة أملت فيها أن أنقل وجعي كما هو ولم أفلح أبداً، لا قبل البوح ولا بعده، فلا الكلمات قادرة على ثقل الأسى، ولا المستمع حاضراً أو متأهباً لحمل بعض منه معنا.

3

معرفتي به عتيقة

أعترف أنني، ومنذ البداية حمّلت تيمم عناوين لا علم له بها، عناوين تركته يتعثر بطريقه إليّ وجعلت استغنائي عنه في الماضي أمراً صعباً. بشكل ما كنت أعوِّض فيه ما فاتني من وطني، اعتقدت أنه بامتلاكي له، سأعبي كل تلك المساحات التي كنت أحتاجها من وطني وبقيت فارغة منه. طفولتي في وطني كانت عبارة عن صيفيات مبعثرة، تحاول جاهدة الارتواء من كل التفاصيل والانغماس فيها، كأنها حقيقة لم تكن بحجم صيفية، بل بحجم عيش يومي، يتكرر يوماً وراء يوم. كنت أخال نفسي في إحدى المدارس القديمة الثلاث التي اشتهرت بمدينتي، أصدقائي كثيرون، عضوة بفرقة الكشفة فوج رقم أربعون مثلاً، ونجتمع ظهر كل يوم جمعة لمناقشة الأنشطة

التي علينا تعلمها وممارستها، وأذهب إلى مدرستي مشياً على الأقدام، مرتدية مريولي المدرسي المكوي بعناية، أكل البليلة والفول النبات والقضامة المسكرة على الطريق كل يوم، وأتقن اللهجة الشامية بكل منمنماتها وأمثالها وأقوالها، وبلطفها الذي يقوِّض كل مناسبة مهما صغرت، بأنني أقطن في أحد شوارع دمشق التي تأخذ أسماء أحد رجالها التاريخيين، منذ عشرات السنين، وجيراني لا يزالون كما هم، يشاطرونني سكنى ذات المبنى، كأنهم لا يتغيرون ولا يكبرون، يعرفونني حق المعرفة في كل حالاتي ويجوبونني كامتداد لهم.

تميم كان وطني الذي حُرمت منه بشكل ما، وكنت بين أولاده مغتربة، كان الذي سأمسك يده وأمشي بشوارعه أخيراً كأني حقاً منه، كلي منه، لا شيء فيّ غريباً عنه.. كلمته يوماً وكان يمشي في شوارع حيّه، ويحدث جيرانه، ويمسك بيد طفل يرافقه مشواره، كنت لا أريد أن أكلمه فعلاً، وددت لو يَبْقِي الخط مفتوحاً، ويدعني أسمع ما يصدر عن المكان من أصوات، بداية بصوته الأثير، ونهاية بمداعبات نسائم دمشق الباردة.

أحببت هيئته بكل تفاصيلها، أحببت كتفيه وزنديه، أحببت عينيه، بضعفهما، بتلك الكسرة براويتيهما، بلونهما الذهبي الطفولي الخجول، وحاجبيه الكثرين الفوضويين، أحببت شفثيه خصوصاً حين ترتعشان، وهما على حافة بوح ما، أحببت صوته وكلماته وانتقائه لها بحذاقة وخفة محترف وعاشق للحياة، عثرته كانت في نزقه، يريد الحياة على أطراف أصابعها معه، دوماً

بذروتها، لا هواده أو استراحة أو هدأة تأمل... لم أكن أملّ منه ولا من التمرغ بعالمه وقصصه وجنونه ووقوفه المفضل على مسرّحه، يلقي به الشعر أو يغني أو يمثل أدواراً، ما أكثر ما تحمله ذاكرته منها.. وأكثر ما كنت أتوق إلى مرافقته لي، هو حسه، حسه نحو كل شيء. كنا إذا لم نكن معاً، نتكلم على الهاتف ليل نهار، ونسمع الموسيقى، لا نترك موضوعاً لا ندلي برأينا فيه من كل زواياه، كان بيننا انجذاب فكري وفني لا يشبعه كل الجدل الذي أتحمنا الوقت فيه.

أحببت حتى أحلامي به، بقربها مني ومنه، بهشاشتها وبغياب الوحشة والغربة عنها. حلمت أنني أمشي إليه يوماً، أقطع شوارع حي هادي، ألهاها وأتوق دوماً إليها، أمر ببيوت أعرف أصحابها منذ الطفولة، إلى أن أصل بيته، بابه طويل، ذو درفتين كبيوت الشام العتيقة ومشّرع، أدخله وأنبع الأصوات القادمة من داخله، من ممر طويل وضيق إلى آخر أوسع منه، أصل إلى ساحة تنتصف المكان، تتوزع فيها نباتات وورود مختلفة الأنواع، تخرج من أرضها شجرة خضراء كبيرة، يجلس تحت أوراقها أناس يتحدّثون ويتضاحكون، تبسم لي قلوبهم الطيبة والمحبة حين أمر بهم. أجتازهم لأدرك غرفة جانبية يلفها السكون، أجده داخلها، متكئاً على جنبه، فوق كنبه كبيرة، يدثرها غطاء يعطيها حميمية سرير، وساقاه مقوستان بوضعية جنين، وعيناه شبه مغمضتين، أجلس على الكنبه بتلك الفجوة التي تركتها وضعيته، وأرجع ظهري ببطء حتى يلتصق ببطنه، ثم أستلقي بجواره آخذة وضعيته ذاتها وأتكور بصدرة، كأني أملأ جوفه، وأمدد ساقَيّ بمحاذاة

ساقيه، يحيطني حينها بذراعيه ويشدّ عليّ ويستبقيني، ويطول الحلم، حلم يضع بإحساسي، بإحساسنا، ويرسم لي ما ستكون عليه أيامنا.

حدست منذ البداية أن معرفتي به عتيقة، أنني ربما سبق لي أن التقيته، وأن هناك أمورًا ستظل معلقة بيننا، كان دومًا يقول لي، كنت على وشك أن تكوني هي، وأنفقت عمرًا على أمل أن أصبح هي. لكن بالقدر الذي كان به مترددًا، كنت به مطمئنة إلى أنني لست مضطرة لأخذ أي قرار بعد، فالوقت لنا والاستسلام للزمن القصير الذي يجمعنا هو كل ما أملك معه. ربما كان يعرف أنني ملاذه، وعندما يحين الوقت سيستلقي معي على سريري بيت جدّي، ويدع السكون يلفه، لكنه لم يستسلم بعد، هو يتقن اللعبة معي ويبارسها مع غيري، وأنا أتعلمها منه ولا أجيدها، وكلانا واقع بأزمة كبيرة مع الآن، تلك الذات المهتزة، التي تتنّ كلما دخلنا في حالة التوحد. فالقاعدة الذهبية هنا، «إنّ سعينا إلى شيء، فالشيء ذاته يسعى إلينا، ويبدو أنني لم أكن أسعى إليه حقًا!».

4

بين الشهيقي والزفير

يعود إليّ ذلك اليوم الذي يتكرر وأصحو على نداءاته ذاتها، يذكرني
بالكلمات وبالكتابة كأنني خذلتها في عمر مضى ولم ألحق عليها وتاهت
مني في الفراغ. الكلمات تهرب مني ومهارتي بلملتها وتجميعها ممهورين
بموطئ قدمي بدرب صحوي.

أوقن كل اليقين بأنه يمكنني أن أكتب روايتي في بضعة شهور، وربما
في ليلتين ولا تؤخرني إلا رهبتي من كل شيء. أوّجل ما لا يؤجل، وأبتكر
عقبات لا نهاية لها، أقدم أشياء لا معنى لها على ما يسكنه المعنى كله، وأدفع
بكل ما أبتغي بعيداً، إلى أن أعجز عن تذكره واستحضاره.

هناك من يرجح الدمامة بالظهور، ويخلق داخل الجمال الرهبة من البزوغ.
أكاد أجن من أن الأحلى أجن، والأقبح أقوى! ألهذا تخرج القباحة منا بهذا
اليسر دوما!

سيأتي يوما وأعطي نفسي حقها، أرتاح وأريحها.
تقول ليلى: «نفسك الحقيقية تقبع بين الشهيق والزفير، وحين تُلحقين
النفس بالنفس لا تلتقينها، تغلقين الباب بوجهها!». ما الذي يسرّ أنفاسي، ويمنعني من لقاء نفسي، إن كانت على هذا
القدر من الجمال، ما الذي يخيفني منها؟
أجلس لأتنفس وأبعد بين شهيقِي وزفيرِي عليّ ألتقيها. أكرر التمرين
وأنا أرتعد خوفاً.

ممّ أنا خائفة؟ ما الذي سأراه عليها؟
منذ التقيت بليلي وفاتن، خُلق في داخلي كائن لا يكفُّ عن الحركة
والتساؤل، يبحث في كل مكان عن أجوبته، ولا يبدأ قبل أن يصل إليها،
يعيد تجميعها بسرور ويذهب بها إلى لقائنا المقبل. تزامن ذلك مع عناوين
كتب كثيرة باتت تظهر بوجهي، وتدعوني لاقتنائها وقراءتها والانغماس
بعوالمها الغريبة لأول وهلة، التي لم تألف روحي سواها بعد الانتهاء من
قراءة بضع صفحات فيها.

تردد ليلى وفاتن على مسامعي وجوب ممارستي للتأمل، ولا يزيدني

دفعهما إلا خوفاً من إخفاقي بذلك أيضاً. تشتكي فائن من صوت عقلي المرتفع والصاخب أحياناً، فأغضب، وفي بعض الأحيان أنصاع لشكواها، وأشعر بالندم، وبعدها بقلة الحيلة.

كيف أسكت عقلاً لا أعرف الوجود خارجه؟ وهل لي وجود آخر فعلاً دونه؟

ما الذي سأجده وراءه؟ وما الذي سأسمعه حين أخرسه؟
تقول لي فائن:

«جربي أن تري نفسك بمعزل عن عقلك، ستتعرفين على ذكاء يفوق ما تعتقدين أنكِ تملكينه باستخدام تفكيرك الآن».

أصدّقها وأتوق لهفة لبلوغ ما تدعوني إليه، ولا أعرف كيف أفعل ذلك، فمحاوالاتي القليلة إلى الآن لم تفض إلا إلى ثرثرة أعرفها جيداً، لا تلبث أن تصمت لثوانٍ، حتى تعود إلى عملها بنشاط لا يخيب.

تقول لي ليل:

«اخلقي الفراغ في كل شيء، بينك وبين زياد، بين حبك لتميم وبين حنقك منه، بينك وبين كل ما تنظرين إليه، بين الفكرة والفكرة، بين الجملة والجملة، بين الكلمة والأخرى، حتى بين الحية والحية، كأنك تقفين بينها جميعاً، يمكنك أن تعتبري ذلك كله تأملاً».

ثم أقرأ من كتاب (قوة الآن) لإيكهارت تولى (*):

«هو عالم كان في مرحلة سابقة من عمر الكون، قبل كل تلك الانقسامات التي خلقت كل هذه التعددية، عالم من الصمت وانعدام الحركة، حياة سلام، وفي نفس الوقت حياة فرح، وأعلى مستوى يمكن للإنسان أن يكون به حيًا».

فلا أصدق شيئاً كما أصدقه، ولا أصبو إلى شيء كما أصبو إلى بلوغ هذه الحالة التي يتعطل بها كل هذا الحزن المعمر داخلي. حالة أعرف في أعماق أعمقي أنني لبدتُ بها لمئات السنين وربما لأكثر، وأذكر منها تسعة شهور رقدت فيها بسلام فريد، في جوف أُمي.

(*) Eckhart Tolle – «The Power of Now – A Guide to Spiritual Enlightenment».

الفصل الرابع

شغب مشاعر

1

قهوتي تجالس مخاوفنا

«كنت أبحر في عالم صامت، يغرق كل ضجيج فيه ويختفي، لا صوت من أي نوع، إلا همهمة السكون، وفرح وسلام كاللذين يصاحبان الموسيقى عادة، يحتلان كل شيء. أخرج من هذا العالم، على أعتاب ألم عظيم أحسه بداخلي، يُقبَض فيه على قلبي ويُعصر بقوة، أحسه يُنتزع من بين ضلوعي، وأشعر بأربطته المغروزة بجسدي تتقطع وتنفصل عنه، فيما أقبع في الظلام أحاول الهرب من هول ألمي، فلا أعني إلا صوتي ينادي حسام مذعورًا: «أحدهم يحمل قلبي بيده ويضغط عليه، كأنه يحاول أن يقتله من أحشائي.. بالله عليك أوقفه، امنعه..... وردّي قلبي».

تبدأ فاتن كلامها عن حالة تعجز عن أن تطلق عليها اسمًا أو وصفًا معروفًا. كل الذي تمكنت من قوله هو إنها كانت تعي ما يحدث لها كأنه واقع آخر تعيش فيه. كانت مستلقية في سريرها وبجانبيها حسام، لا تدري إن كانت نائمة أو نصف نائمة، لكنها بغفلة منها أحسّت بألم فظيع، رفعت رأسها فجأة عن وسادتها حتى استقام ظهرها وصرخت من الألم، ثم نادى حسام بأعلى صوته.

ارتبطت عادة الكتابة لديّ بمقهى تكرر ارتيادي له، رغم بُعد منزلي عنه، إلى أن تحولت إلى عادة يومية، منذ انتقلت من مسكني بشمال المدينة، وغدوت في مركزها وعلى مسافة قريبة منه. منذ لاح المقهى لأول مرة في طريقي وأنا أقود سيارتي، عرفت أن علاقة خاصة ستنشأ بيننا، ولسنة كاملة لم أقطع عن زيارته. يطلّ المقهى على واد تملؤه الأشجار الكبيرة الهرمة، يفترش العشب فستقي اللون أرض الوادي، ملاحقًا منحنياته صعودًا وهبوطًا على مدّ النظر. يطلّ مركز مدينة تورونتو بعيدًا من وراء الأشجار، لا يُسمع شيء من صخب الحياة بشوارعه، بأبنيته العصرية العالية، متباينة الارتفاع، تمر بينها غيوم لا نهاية لتشكلاتها ولا لألوانها المتبدلة طوال ساعات اليوم. لديّ موقعان بالمقهى، موقع على طاوولاته المدورة الصغيرة في الخارج، المطلة على الوادي مباشرة، وموقع في داخله، على الطاولة الكبيرة التي تجمع رواده المتتابعين.

المقهى كان منزلًا قديمًا من منازل تورونتو بمنطقة ريفر ديل، انقلب

إلى مكان عام يقدم المشروبات الساخنة وبعض الحلوى البسيطة، واحتفظ بملاح شخصيته القديمة ولم يستغن عنها. كيف لا أتمسك بكل قديم ومدينتي تحترفه بشغف عاشق لا يمل من خلقه بكل ركن فيها!

نتفق على الالتقاء فيه، في المقهى الذي سأدعوه لاحقاً بـ «قهوتي».

يخلب المقهى لبّ ليل وفاتن، تقفان مشدوهتين، تتأملان الوادي الفسيح الممتد أمامهما، تتلفتان حولهما، تتفحصان بناء البيت القديم الذي يرقد المقهى في طابقه الأرضي. تلتقي نظراتنا المنبهة -كعاداتها- مما قالتها فاتن، أخيراً على طاولة دائرية صغيرة جمعتنا، أقرب ما تكون إلى رصيف الشارع، فاستمهلها بضع دقائق أخرى، أثب داخل المقهى وآتي بالقهوة ساخنة، تتلففها شفاهاً، نغبّ منها رشقات سريعة قبل أن تعود أنظارنا إلى فاتن، فأبادر بالتعليق على ما قالتها في البداية برأي يدعم وجهة نظر لا أكف عنها:

«فاتن، ألا تعتقدين أن هذا الحلم أو هذه الرؤية لا أدري ما أطلق عليها، إحياء قوي بأن الأستاذ خطف قلبك وانتهى الأمر! من الذي اقتلع قلبك من مكانه غيره؟ ثم كيف جرؤت على إيقاظ حسام هكذا، ألم يستغرب من حالك؟».

«كان الله بعون حسام مما سيراه على يديك يا فاتن»، تقول ليل بمرح. يعود البريق إلى عيني فاتن، اللتين تبدئان كعادتهما بمدّ البساط الذي

ستمشي عليه الحكاية، تنفض عنها حلمها وتداعياته، تمدّ ذراعيها على الطاولة، ثم تمسك بطرفها ويتملكها حماسها المعتاد:

«هل تذكران الصدمات التي منّ عليّ بها ألبرت في الأسبوع الذي مضى؟ لقد كررها معي هذا الأسبوع أيضًا! لا أدري ما الذي ينتظره مني، أن أهرب من الفصل مثلًا؟».

«عيني فاتن! لم نفهم شيئًا، اهدئي وقولي لنا ما حدث؟»، تقاطعها ليل.

تبتلع فاتن ريقها، تستجمع أفكارها ثم تقول:

«كان ألبرت يقوم بجولته المعتادة حولنا، يتفحص ما آلت إليه لوحاتنا التي استهلينا العمل عليها الأسبوع الذي مضى ثم يعلق عليها، توقف أمام لوحتي، لوحة الصخور وشلال المياه إياها وقال لي (أضيفي الضوء الذي تتطلبه بعض الأماكن)، قلت له (سأضيفها لاحقًا) نظر إليّ نظرة جانبية، أقسم بأن شرارة من نار خرجت من طرف عيني، واخترقت طبقات في وعيي، كما فعلت بالتأكيد بأنسجة عيني وما وراءها، وبنبرة عالية وجادة قال لي (بل الآن)، دخلت بعدها في حالة السكون التي كلمتكم عنها، حالة أقنعت نفسي الأسبوع الماضي بطوله بأنها وهم، وعدت أمس وتأكدت بأنها حقيقة، أسرتُ بغرفة السكون وجدرانها حاصرني واقتربت مني إلى أن التصقت بي ولم أعد أقوى على الحراك». تتوقف فاتن عن الكلام ولا تتوقف عيناها عنه، تحمّلها استجداء لا يمكن لأحد ألا يشعر بتبعية

نحوه، ولا تنسى أن تضيف حملهما وجلًّا وتيهاً معجونين بحزن متعب
آتٍ من مكان قصيٍّ.

تولد برأسينا أنا وليلي الكثير من الأسئلة، أسئلة تساير فاتن بمخاوفها
وأخرى تعرج على مخزوننا المعرفي، تفاضل بين محتوياته عليها تجدد إجابة.
بعد صمت قصير، وعجز بالبحث عن أجوبة، أفتح عيني عن آخرهما
وأقول بحق:

«لا أفهم ماذا يحدث، ستفهمينه، إن طلب ذلك منك مباشرة، دون
الحاجة لكل هذا الاستعراض».

مع ذلك أشعر بأنني وقعت على كنز، لا أطيق صبرًا بفتح صناديقه
وخزائنه، ولا تزيدني الدعوة للحُلْم إلا حنقًا وتوترًا. ليت الطريق مزود
بخريطة ما، لكنت ابتعتها والتهمتها التهامًا.

في حين تقول ليلي: «أكملي لنا ما حدث بعدها، حدسي يقول لي، بأنه
يعرف تمامًا ما يفعل، ولا يقوم بأي شيء جزافًا».

تسند فاتن ظهرها إلى الكرسي، كأنها وصلت وجهتها، وها هي تهبط
من على ظهر جوادها، ترمّ شفيتها قبل أن تفرجها، تدور عينيها بيننا،
وتتابع الكلام:

«سألته مرة أخرى في إحدى جولاته علينا عن ألواني، فقال لي (وَصَحِيحًا

أكثر من ذلك) ثم طلب مني النهوض من مقعدي وجلس مكاني ناظرًا مباشرة إلى لوحتي، ثم ترك أنامله تتلمّس خطوطي وتتبعها بانحناءاتها صعودًا وهبوطًا، ثم أمسك الفرشاة وقوى اللون الأخضر الذي كنت قد أضفته على المياه المنهمرة من أعلى المنحدر، أمام دهشتي وجودي عاد وقال: «قولي نعم» ثم التمتعت عياني فجأة ومن وهج مضيء خرج من عينيه، كأنه حزمة نور صباحي ضيقة ومشقة، فدخلت من فوري في حالة السكون مرة أخرى. هل تصدقان أنه لم يعطيني الفرصة لأقول نعم أو حتى أن أختار الصمت!».

تجول عينا فاتن في الفراغ قبل أن تعودا إلينا:

«الحقيقة أنني لست على ما يرام، لا يمكنكما تخيل أحاسيسي، بجانب غضبي المكبوت عنوة في داخلي، أنا خائفة، ماذا لو كان هذا الأستاذ ساحرًا أو مشعوذًا؟ ماذا لو تعرضت لأذى لا رجوع عنه؟ أنا أفكر جديدًا بالانسحاب من مادته. لم أعد أحتمل كل ما يقوم به، أحس بأنه ينتهك إرادتي، وأفكر جديدًا بالتنازل عن كل ما سأتعلمه على يديه. حين أعود إلى منزلي بعد انتهاء يومي معه، أتعرف إلى امرأة جديدة بداخلي، امرأة تستغربها حتى عائلتي».

أصمت وأعود إلى التيه داخل شبكة أفكار، أبتدئ من نقطة، وخلال طريقي إلى نقطة أخرى فيها، أتعثر بعقدٍ ونقاطٍ أخرى تأخذني إلى أفكار لا تمت للفكرة الأولى بصلة.

يظهر على ملامح ليلى استعدادها للكشف عن مفاجأة، كانت تنتظر الوقت المناسب للإعلان عنها فتقول:

«لا أخفيك أنني ومن المرة الماضية، بعد أن رجعت من لقائنا وفكرت بما حدث، انتابني اعتقاد بأنه قد يكون معلمك الروحي، وانتظرت لقاءنا اليوم، وما كنت ستقولينه لنا، لأحسم أمري. بعد كل الذي قلته، أرجح أنه كذلك، وإن كان معلمك الروحي حقًا، فأنت في نعمة لا تدرकिन قيمتها».

لم أكن قد سمعت بالمعلم الروحي من قبل، ورفضت الرؤية من خلال النافذة التي كانت ليلى تحاول تشريعها أماننا، ودفعت مرة أخرى بفكرة تأثير المجتمع على رؤيتهما للقصة من أساسها.

«الأستاذ بالتأكيد يجب فاتن ويريد أن يلفت انتباهها. أنه يدرك بأنها خجول ولا تثق حتى بقدراتها الفنية، يمكنه تخيل البيئة التي نشأت فيها حتى إن لم يسألها عن ذلك. لا شك بأنه يودّ لها لو تخرج من قوقعتها». أضع إسطوانتي في مكانها وأعيد دورانها.

الحقيقة أنني غدوت أوافق ليلى وفاتن على رؤيتهما لغضبي المبالغ به نحو الموروث الديني والاجتماعي لبلادنا، عندما أجلس وحدي وأعيد على نفسي حوارنا. أخذت الكثير من الوقت لأعني بنفسي، أن كل مبررات أي غضب ليست مقبولة، وأن عقلي دائم التحليل والمقارنة وإصدار الأحكام،

وأناي المتنفخة بتفوقها بسبب ذلك، هما سبب غضبي، وعلى إيجاد طريقة للجمهما، وأن دمي لما يقوم به الآخرون، المغلقون على عقائدهم، من إقصاء لكل من يخالفهم بالرأي، أقوم أنا على الطرف الآخر، بمثله.

فاتن ساهمة، تفكر بما قالت ليلي، لأنها حقيقة لا تريد أن تأخذ قراراً تتوقف فيه عن حضور درسه بعد الآن. هي خائفة، لكنها تعرف أن في الأمر أكثر من ذلك، فضولها وحدها يقودانها لأن تفكر باحتمالات أخرى. فمع أنها تدرك بأنها تحب ألبرت بشكل ما، وعلى الأرجح، ييادها ألبرت إحساسها، إلا أن هذا الاحتمال الذي أصر عليه، لا يمكنه بأن يكون الوحيد.

تقطع ليلي هواجس فاتن قائلة:

«لا شك أن ألبرت معلم استثنائي بفن الرسم، لكنه يبدو أنه يهدف إلى تقديمك إلى عوالم جديدة عليك، تضعك في مواجهة نفسك أولاً، تطورك روحياً، وتترك آثارها الإبداعية على عملك الفني في النهاية. هذا الطريق طويل، سميهِ ما شئت».

تنصت فاتن بكل حواسها لكل ما صدر عن ليلي، تتشرب خلاياها، لأنه أفضل ما تود أن ترسي سفنها على شواطئه، ثم تقول:

«هل تعتقدين ذلك؟ لا أدري ماذا أريد. راق لي ما قلتيه ليلي، سأقوم بالمزيد من جلسات التأمل، وسأقرأ حول فكرة المعلم الروحي. سأفكر في الموضوع بعدها، وعليه سيكون قراري».

ترتاح مخاوف فاتن إلى حين فتسأل ليلي باهتمام:

«الآن أخبرينا عما يجول في قلبك وعقلك».

تبتسم ليلي بخجل، وتتألاً عينها بكل ألوان الطيف، وتحكي لنا عن مشاعرها المتنامية نحو هاشم، كيف أنها تحقق بمدارة فرحها العارم والصاخب حين تكلمه، كيف تفضحها كلماتها ونبرة صوتها وضحكاتهما ووقفاتها بينهما، وإن أحست بأنه يبدو متكلفاً حين يها تفهما، مع أنه أبعد ما يكون عن ذلك.

تُكمل ليلي:

«هناك شعور يدفعني لملاحقة رغباتي ومبادلته لعبه على الكلمات والمشاعر، وبنفس الوقت والقوة، هناك ذاك الشعور المرافق لي الذي يحذرنى ويضع في طريقي كل الاحتمالات المؤذية».

تولد في عينيّ شعلات من غيظ، وأقول بنفاد صبر، وببرة صوت غاضبة بعض الشيء، وإن حاولت أن أداريها:

«لا تقولي لي بالله عليك، تأنيب الضمير والعقاب الديني».

«أخاف على طفليّ من أذى يلحق بهما من أفعالي غير اللائقة، كما أخاف بالمثل على والديّ، كيف سأجرؤ وأنظر بعيني والدي بعد أن أستمّر بعلاقتي به، ثم ماذا لو مشيت على هوى هاشم، فاعتقد أنني قد سبق لي

أن أقمّت علاقة عابرة مع غيره، ماذا لو صحا على فكرة تركي بعدها؟ لا يمكنني تخيل وقع ذلك عليّ».

يتلبّس الخوف ليل وهي تدافع عن نفسها، يأخذ من يريق عينيها ومن عادتهما بالنظر مباشرة إلى أعين المنصت لهما وهي تتكلم، كما يربك حركات أطرافها، فتلم شعرها على جانب وجهها ثم تعيد فردة بحركة عصبية.

تنقل فاتن نظرها بيننا، تتابع حديثنا، وتأخذ وقتها بفهم وجهة نظر كل منا. تميل فاتن إلى موافقة ليل ببعض من هواجسها، وفي الوقت نفسه تحس بأن الموقف لا يستدعي كل هذه المخاوف، فهي وحيدة هنا، وهاشم هناك، وقد تكون هذه التجربة هي ما تحتاجه ليل الآن.

تتابع ليل: «هاشم يحس بحذري ويختار دومًا السخريّة منه. إنه يستمر بمغازلتي، ولا يتوقف عن إظهار شوقه لي، حتى وصل به الحال، لاستجدائي أن أقبل الخروج معه حين أزور بغداد في المرة المقبلة. أنا مستغربة من نفسي، لم ألتفت إليه عندما كان في مرمى نظري كل يوم، ولم أحب اللكنة التي يتحدث بها أهل الموصل في حياتي، والآن، كلما سمعت حروفًا هاربة من لكنة مدينته ومندسة بين كلامه، يقع قلبي من الفتنة، عدتُ فتاة مراهقة لا تحيد مواراة أي شيء يعترها، ما الذي يحدث لي؟».

تبتسم فاتن وتمدّ ذراعها محتوية كتف ليل وتنظرا نحوي، ثم تتحول ابتسامتهما إلى ضحكات صبيانية، تستبق الغضب اللابد، سيأتي من صوبي.

أفهم عليهما وأبادرهما بصوتي الذي يعرف متى يعتلي المنصة:

«تعرفان رأيي جيداً، وبما أنكما تضحكان منه، فسأعيده بهدوء، علّ في الإعادة إفادة. أولاً فكرة أن أذى سيصيب أي أحد من وراء أي فعل من أفعالك، هو وهم، شطح لا مكان له في الواقع، ولا توجد قصة واحدة ملموسة تؤكده، ثانياً، بنظريتي حول التانغو بين الرجل والمرأة، لو أن أكثر الرجال اتزاناً، أقام علاقة مع أكثر النساء تلاعباً ومكراً، وراقت له، سيلحقها ويعيد الاتصال بها ولن يسأل بتاريخها ولا بتحذيرات أحد، كلنا يبحث عن سعادة ورضا نفسه، والنفس طماعة ولن تستغني عن من خبرت معه ما لم تخبره مع غيره، حتى إن كان مطلوباً للعدالة. أخيراً أنا أرى بأنك ستذهبين بتجربتك حيث لا تتوقعين، وكل خطوطك الدفاعية هي مجرد ثرثرة فوق مياه دجلة».

كم أحب إيلاء فائن برأسها، تلحقها بابتسامة عذبة من عينيها أثناء إدلائي برأي من آرائي التي لا تنتهي، لا لأنها توافقني، بل لتؤكد بأنها تسمعني حقاً، وبأنها حاضرة بكل وجودها في هذه الهنيهة معي. فعُلّ ركنت إليه طويلاً وأسهم بقطع مسافات كبيرة بيننا.

تمسك فائن خصلة سميكة من شعرها تدلت بالقرب من وجهها وتدفعها إلى الخلف، تعدل جلستها، تنظر في عيني ليل كأنها تأخذ موافقتها، ثم تتجه بنظرها نحوي لتخبرني عن أن وجود ليلي هنا وحدها، وابتعادها عن زوجها، والتخبط النفسي الذي مرت به في بغداد وفي الخليج، وأحضرت

معها الكثير منه إلى هنا، أو ههنا، أخذ منها بريق عينيها، لكن المسار الذي اتخذته باكتشاف ذاتها وتطويرها والبحث عن السكينة الداخلية، كان شفاءً لها. لم يتحقق لها ذلك إلا بعد دراسة جامعية ودورات جانبية لمدة سنتين، تعرفت من خلالها على أساليب العلاج النفسي والتداوي بالطاقة.

ترتاح ليلى للمساندة التي قدمتها لها فاتن مؤكدة بأنها مدينة لمرضاها بسلاهما الحالي، بعد أن أصبحت تفهم ألمهم وضياعهم، كأنها تلمسه بأصابع يديها، فقد كانت هناك في يوم ليس بالبعيد.

حين التقت ليلى بمنير لأول مرة، كانت في سنتها الثانية بكلية العلوم، بجامعة بغداد. كان منير يكبرها بثلاث سنوات، يدرس الهندسة الميكانيكية، من قادة الحراك الشعبي، رياضي من الطراز الرفيع.

علمها منير السياسة، ونقل لها حماسه الثوري، قصّ عليها حكايات أبطاله في العالم، وكيف تأثر وآمن بهم. كان ذكاؤه متقدماً، وتخرج بتفوق تقدم به على كل أقرانه، وتبارت المكاتب الهندسية في التعاقد معه قبل تخرجه.

كان لا بد أن يكون للمطالبة بالحرية في بلادنا ثمن فادح، لم يقوَ عليه أعتى رجائها، ودفع منير ثمنها من روحه. فمن معتقل إلى آخر، ومن استجواب قصير، إلى آخر يقصّر العمر بقسوته، استهلك منير أحلى أيام شبابه.

تزوجا بعد تخرجهما وانتقلا للسكن في إحدى مدن الخليج، وخيل إليهما أنهما سيملاّن الدنيا صحباً وحباً وجنوناً. أنجبا طفلتين جميلتين،

وشيثاً فشيئاً ضاع كل الألق والحماس اللذين كانا يجعلان شخص منير، وبات ذاك الرجل كثير الشكوى، المبتز عاطفياً، الذي لا يجد متعة ربما إلا بعمله، وانتصرت بذلك عليهما كل سنوات المعتقل، وأخذت منهما، مع الحلم بوطن لا يشبهه وطن، شاباً لا حدود لما كان سيهبه لبلده.

أثر كل ذلك بنوعية وطعم حياتها معاً، فبعد مرور بضع سنين، وفي يوم جلست ليلي فيه مع نفسها، رأت أن مخاوفها قد زادت، وبأنها متعبة وليست سعيدة، إلى أن بدأت تتناها نوبات هلع تطورت لاكتئاب حاد، وصلت به إلى يوم توقف فيه كل شيء، وانخرطت في نوبة بكاء مستمرة، قطعها صراخ هستيري، فدخلت المشفى ومكثت فيه مدة شهر كامل، تتعالج بشكل مكثف من أعراض مرضها الذي احتلها بالكامل.

لو لم يتقدما صدفة بطلب الهجرة إلى كندا، لكانت لا تزال في بيتها بالصحراء، تحتل من منير ما لا قدرة لها على احتماله. ولو لم ترجح فكرة هجرتها مع طفلتيها أولاً إلى هنا، لما سهّل عليهما الوصول بطريقهما إلى نهايته بهذه السرعة، لمرت سنوات وسنوات، يتأملان فيها تحسناً أو أي تغيير بقدرهما أو بقدر وطنهما، رجاء أيقنا الآن فقط، كم كان مستحيلاً. غدا الانفصال المؤقت عن بعضهما هو الموضوع الوحيد الذي راق لكليهما.

«مي، ماذا عنك، هل حدث اتصال بينك وبين تيم؟»، تقول ليلي بقدر من الاهتمام كم أجلّه وأركن إليه.

«جاء وقت مفاجأتي لكما، تعالا معي، احملا أغراضكما ورافقاني». حملت كل منا حقيبتها وكوب القهوة الساخنة، الذي اختفيت قبل دعوتي لهما للنهوض، وطلبت دورة جديدة منه، وسارتا خلفي باتجاه سيارتي، أخرجتُ من صندوقها غطاء قطنياً أبيض، تتناثر ورود صغيرة بألوان باهتة على أرضيته، وسلّة مربعة من القش تحوي سندويشات حُضرتها لهما في البيت، ثم اتجهت إلى الوادي. اخترت مكاناً تظله أغصان أكبر شجرة فيه، مددت الغطاء ودعوتها للجلوس عليه.

«خبرينا عما حدث معك الأسبوع الماضي»، تلتفت فاتن نحوي بعد أن تنتهي من تعبيرها عن استحسانها لمفاجأتي، فأقول:
«كم أنا فرحة بأن المكان راق لكما».

أنظر حولي بانبهار بعينين شبه مغمضتين، تستقبلان أشعة الشمس الدافئة والنسائم العبقّة برائحة العشب الأخضر الندي وأواصل:
«لنعود لصديقنا العتيق». أنتقل من فرحي الطفولي إلى وجد لا يفارقه انكسار شقي «لقد تحدّثنا عدة مرات في الأسبوع الماضي، بلحظات أحس أننا وحدنا، نتنفس الهواء نفسه معاً، لا توجد حواجز بيننا، لا مادية ولا زمنية، كلماته تهمس في أذني، وأنفاسه تكاد تلسع خلايا عنقي، وجوفي تحوم فيه مئات الفراشات، وفي لحظات أحس بأنه يكثر من إطلاق أحكامه عليّ، يحاصر عفويتي ولا يترك شيئاً يبدر عني يفلت من رصده. أرجع إلى

العالم المادي الذي يحسن تقويزي فيه، كأنه حقاً ينتقم من نفسه التي ترى ملاذها معي. فهو تارة يلومني على حزني، وتارة على الذبذبات الصادرة عني، كأنه يستخدم مفرداتكم، ثم يعرّج على بعض آرائي، إلى أن ينتهي بانتقاد ضعفي. ثم يناقض نفسه ويقول: «أنت حين تنتقد الآخر إنما تنتقد ما تراه بنفسك.» لا أريد الآن إلا أن أرى حقيقة ما يجمعنا، ربما لا يرى إلا اختلافنا، الذي يخنقني باكتشافه له في كل لحظة، ولا أرى إلا تشابهنا. يعجبني عقله وتحليلاته وتعقيداته وتمرغه في كل ما يثير اهتمامه، هو لا يحب الأسطح، ونزعت لا اختراقها تشبهني. نختلف كثيراً لكننا نلتقي ونقاطع، ولا أدري إن كان يرى ذلك أو يتلهّى عني بكل الأحداث والأشخاص الذين يثيرون فضوله ويضيّعونه مني».

تقول ليل:

«صدقيني، هو قد تغير على ما أفهم من كل كلامك عنه، لا تحاسبيه على ماضيه معك، أعطه فرصة جديدة، أنت بحاجة لوجوده في حياتك الآن. مخاوفك تأتي من الماضي، وتستبقين المستقبل معه، استرخي صديقتي، ولا تفرطي بتأويل كل ما يبدر عنه».

«هذا ما أنوي أن أقوم به نحننا. لعبة أن أجده وأفقدته مائة مرة بالعمر هي لعبة لم أجدها يوماً، ولا أريد أن ألعبها مجدداً. الحل يبدو بسيطاً، ألا أحبه!! أن أعيش الحالة وأحتفي بكل عطاياها وكفى. إذ أن أحبه، لكنني مع ذلك أريد المزيد، لا أود التنازل عن أحلامي فيه، وسأصر على تخيله في

كل مكان وعلى تمنى مرافقته وتذوق كل شيء والغناء والرقص معه، على الضحك عليه ومنه ومنا، على القراءة معًا والتمرغ بحوارات فلسفية نثبت فيها أننا عبثيون وجدليون وتافهون وأذكاء، على التلامس وتبادل القبل والتعانق في كل مكان وفي كل وقت، ما الضير في ذلك، قولاً لي؟».

أعترف لهما بتيهي الكبير أمام نفسي، مكان ألتقي به مع كل العاشقين على وجه الأرض، لا يختلف فيه أحد عن أحد.

تقول فاتن:

«أريد أن أصدقك، جدلاً هذا ممكن، وسيضمن السعادة لكليكما مؤكداً، ألا تحبينه، أو تحبينه قليلاً، لكنه واقعياً عصي عصي، كل كلامك عنه حب بحب».

«ما زلت إلى هذا اليوم أشك بحبه لي، لا بد أنه أحبني في يوم ما، في ساعة ما، وهذا الذي يوقظ لديه حيناً متواتراً، يعرفني ويراهن عليّ، مهما كانت أعداد المرات التي أخفقت فيها توقعاته أو خابت آماله. هل تصدقان أنني في زمن ما عندما استيقظت على حقيقة أنني لم أعد أحبه، شعرت بالضيق، بالضيق والأهم بأنني خذلته وخذلت الحب ونفسي، خفت أن الذي كان حباً ربما لم يكن كذلك. أطلت النظر بصوره، وفرحت بأنها لم تفعل بي شيئاً، قرأت اسمه وناديته بصوت عال ولم يتحرك في داخلي أي شيء، حاولت أن أتذكر أرقامه السحرية التي أطلبه بها، التي كان لكل رقم فيها فنتته عليّ،

ولم أتذكرها! فرحت بأنني شفيت منه، وبأن أمره كله لم يعد يعنيني. لكنني في الخفاء من نفسي ومن أوهامي ومخاوفي، حملته معي أينما ذهبت وكنت أعرف بأبعد نقطة في ذاتي، أنني لم أحب أحدًا يومًا سواه».

التناقض والكذب على الذات أيضا فضيلة أخرى من فضائل العاشقين، ربما فكرت فاتن بينها وبين نفسها، قبل أن تنهد وتختار أن تقول:

«لا تحزني مي أرجوك، كما قلت سابقًا، اللحظة هي كل ما تملكين معه، فعيشيها، ولا تنظري إلى الوراء».

2

المعلم الروحي

أصحو اليوم مبكرًا، كما فعلت لأيام عديدة مضت، وأعدو لأخذ
وضعتي على كنبتي لأمارس التأمل، كما وعدت ليل وفاتن. أثني ركبتني
وأدعها مستلقيتين على الكنب، وأمد ذراعي إلى أن يلمسهما كفاي المفتوحان
لأعلى، بوضعية التأمل الأكثر ألفة، أغمض عيني وأحاول التركيز بتنفسي،
أخذ نفسًا عميقًا أتبعه بزفير مثله، وأكرر ذلك فتعاودني أفكار اللثيمة
وثرثرة دماغ لا يهدأ. وبعد محاولات حثيثة أفتح عيني وأنظر عبر النافذة
إلى السماء المتبدية أمامي. تفاجئني الغيوم بعدوها السريع خلف بعضها
بعضًا، تبدلها وتشكلها الرشيق أثناء حركتها. يسلبني عرضها من تتابع
أفكاري وتغمرفني سكينة ثم حبور يجلل يومي كله بعدها.

كم فرحت بليلي، ففكرة المعلم الروحي أنقذت فاتن من هواجسها،
 فلاجوبتها فعل الترياق عند اللزوم. لا بد أن ليلي حزمت أمرها، بعد أن
 جمعت كل الذي قالته فاتن بالأمس إلى حلمها المدهش به، يحملها ويحمّمها
 بالنور بزمن البدايات، ربما ما أفرحني أيضًا أن شيئًا بعيدًا بليلي لا ألمسه، قد
 هدأ واستكان بعد استحساننا لفكرتها، فمع كل اللطف والاهتمام اللذين
 يبدران عنها، أستشعر حبًا للسيطرة يركد بمياهاها، يتبعه غضب مبيت،
 إن لم تمض الأمور على مرادها.

تمتد فاتن بحلمها على جنبها في أرض الرسم خائرة القوى، ركبناها
 مشيتان وذراعاها تلحقان بهما، وتضمهما بالقرب من جوفها، جفناها مسبلان،
 لكنها بكامل وعيها. يأتيها ألبرت ويرفق يرفعها عن الأرض، ثم يحملها
 بين ذراعيه ويمشي بها بضع خطوات إلى المغسلة التي تركز إلى أحد حوائط
 المكان، يفتح حنفيتها، فيتدفق ماء رقراق بارد منها، ينزلها لتقف على قدميها،
 يقف خلفها، صدره بمحاذاة ظهرها، يمسكها من خصرها ويرفعها كأنها
 طفلة الصغيرة لتطالها، فتباشر بسكب الماء على وجهها ورأسها، ماء شديد
 النقاء، مضيء كماء الفضة، ثم ينزلها على الأرض مرة أخرى، ويعود ويرفعها
 ويكرر ذلك ويكرره، فتغرق بمشاعر حب، لم تجربها من قبل، بفرح وبسلام
 نادرين لم تتخيل وجودهما بهذه الحياة. شعرت فاتن، والماء ينحدر على
 وجهها، كأن بعضًا من مخاوفها وظنونها، عثراتها وخيباتها، تنحسر وتنسال
 معه. كانت فاتن في وقت ما في حلمها، كأنها تسكب نورًا على رأسها عوضًا

عن الماء، فيخترق أجزاءها كلها ويعود لينبعث من كل أركانها.

تُرى، أين هو ألبرت من الآخرين على دربه؟ وبأي درجة يرتقي أو يتخلف عنهم؟ ما الذي يختلف فيه عن أي أحد منا؟ هل يغضب ويثور مثلنا؟ أين هو من أنا، وهل لا يزال صوتها عاليًا داخله؟ تراه يرفد بمشاعر التسامح والتعاطف كما يوصف المعلمون الروحيون عمومًا، أم إنه لا يزال يصارع رغباته وشهواته كما أحقادهم ومباعث حنقه مثلنا؟

لألبرت هيئة عصرية لا تشبه الصورة التي نراها عن المعلمين الروحيين، بلحاهم الطويلة وجلاليهم الواسعة وعمائمهم على مختلف صورها، بتائمهم وحلاهم الغريبة، بأوشحتهم وأحذيتهم الخفيفة، بالكحل في عيونهم البراقة وبأصواتهم الشجية الثابتة والقوية. ألبرت شاب وسيم، بهي الطلعة، طويل القامة، أزرق العينين، أبيض البشرة، دقيق الملامح كطفل صغير. لا تغادره أناقته على بساطة ثيابه كما لا تفتأ فاتن عن وصفه لنا، كما رجولته، حاضرة بكل ما يخرج عنه.

الآن فقط يمكنني أن أراهن أن فاتن لم تكن مهيأة للقاء ألبرت، حين وقعت عينها على اسمه في لائحة المدرسين لأول مرة منذ سنة ونصف السنة، وحين سجّلت بفصله، كانت متأهبة له وإن لم تدرك بأنها دعته رسميًا ليكون معلمها الروحي، أو إنها لم تسجل بفصله دونًا عن أي وقت مضى، إلا تلبية لدعوته هو لها؟

3

شرائع زمن مضى

هل يلعب تميم بحداقة مرة أخرى لعبته؟ وهل أكذب نفسي مرة أخرى
أيضاً أمامه؟

على القدر الذي أتوق أن أكون فيه معه، أصدقه. لم يتغير حقاً، حين
أبتعد، يجهد أو ربما قليلاً، بالعودة بي إلى إحداثيات محسوبة بدقة، يجنبي
أن أقف دوماً عندها.

في البدء، يدفع باباً في داخلي لا يدخل منه بشر، ويقف بمواجهة وجه
لا يراه أحد، يكلمه ويسأل عنه ويكاد يسترق النظر إلى عينيه، ينفذ حقاً إلى
داخله، إلى أبعد نقطة فيه، يذكّره بآخر زيارة له، ويرى بنفسه مدى تعطشه

وشوقه إليه، ليعاوده بعد بضعة أيام، يضمن فيها ارتشافه لعقار خاص يعدهُ بنفسه فيأمن على إدمانه له، ثم يشدّ الرحال من جديد.

لم يسمح لي بالأسئلة منذ التقينا، أمسك بذراعي، وأجبرني على توقيع عقد بيننا ألا أفعل، فامتثلت له، كما فعلت مع عقود كثيرة غيرها. كان يقول لي: «ما حاجتك لطرح أسئلة أجوبتها معروفة؟». ورفضت خلف أي منها، أتساءل، إن كانت أسئلة مألوفة، فأسبق الزمن وأسمع صوته يسخر منها، فأرجع أسئلتي إلى جوفي خائبة الرجاء.

لم أكن معه نفسي، حقيقة يجرحني الاعتراف بها. كان هناك الكثير من الأقاليم بداخلي، ربما مشى حذوها ولم يدخلها فعلاً، وكم تمنيت أن يفعل. مع ذلك هناك نوع من ألفة تأتي من مكان وزمن آخرين، يوقن بوجودها كلانا، أجهر بتعلقي بها، فأدفعه إلى الهروب الأزلي منها. أقول له:

«لن أرجع إلى عهدي معك مرة أخرى قبل أن أمتحنك، فلهذا الزمن شرائعه التي ترفض أن تدعن لقوانين زمن مضى».

يصمت برهة من الزمن، كأن سؤالي باهته، أو ربما لمفاجأته من وقوفي في وجهه، أو ربما ودّ لو يكذب نفسه ويدفع بشكوك معرفتي بوهنه بعيداً. أواجه صمته بالقول بصوت هامس وهادئ:

«أنت لا تحب النساء، لا تلمسهن، لا تشبع نفسك منهن، تكتفي بالنظر إليهن من بعيد».

أصمت قبل أن أتعثر وأعترف له:

«لا تغريك مواطن أنوثة المرأة بالتمرغ بها، رغبتك تفضّل لو تطفئها
بنفسك وتنصرف بهدوء».

تصلني أنفاسه المضطربة على الطرف الآخر من الهاتف التي وعت
بأنني أودّ أن أختبر جسده قبل أي شيء آخر:

«تودين لو تجربينني! أنا جاهز، يمكننا أن نلتقي في مدينة ما».

«لثلاث أو أربع ليالٍ، بعدها أقرر إن كنت صالحًا لعلاقة حب تناسبني»،
أقول ضاحكة.

صدّفته مرة أخرى، ركنت إلى فكرة أنه تغير وربما بان له بأنه أحبني
في يوم بعيد، وحنّ إليّ، وبأنه سيلمسني الآن بعد تصالحه مع مشاعره
نحوي، فهو صادق مع نفسه ولا يمكنه أن يجبرها على مشاعر لا تعترىها،
ومنيّت نفسي بتلك الليالي المعدودة. لكنه قرّر من التزامه بها كعاداته، وفي
داخلي الآن اعتقاد بأنه انتقم من صراحتي اللاذعة في ذلك اليوم، وأراني
قدرته على زجّي في مكاني المأثور، خلف الأبواب، وإيهامي مع نفسه،
بأنني أذهب إليه طوعاً.

الفصل الخامس

الموت قبل الموت

1

الحجرة لن تسقط

يمكن أن تكون هذه هي المرة الأولى التي آت بها إلى مقهانا مبكرًا، حماس خطف النوم من عينيّ الليلة الماضية، وأجبرها على الصحو قبل الفجر، لأمسك الكتاب الذي غفوت على صفحاته، فأكمل قراءة الفقرة في رواية (طريقة المحارب المسالم)^(*)، لدان ميلمان، حيث انتهيت.

«إن فهم فكرة ما، هو استيعاب يقوم به المفكر من بُعد واحد، وسيقوده في نهايته إلى المعرفة، أما الإدراك فهو ثلاثي الأبعاد، هو استيعاب يقوم به العقل والقلب والفترة دفعة واحدة، وبشكل تلقائي غير مدفوع، ويأتي فقط من خبرة مباشرة».

(*) «The way of the peaceful warrior» Dan Millman

رواية «طريق المحارب المسالم» تحكي قصة الرياضي المشهور دان ميلمان مع معلمه الروحي «سقراط» ثم التقاءه بوليفة روحه «جوي».

هذا تمامًا ما كنتُ أختلف فيه مع الكثيرين، ممن يتبنون أفكارهم، بل يقاتلون من أجلها وهي ذات بُعد واحد، أفكار ومعتقدات لم تمرّ عبر القلب، والأفدح لم يكن لها درب عبر الفطرة.

تتجه عيناى منذ اندلع باب المول، إلى طاولتنا، القابعة في الوسط، فأجدها كما تركناها، فأعدو نحوها، قبل أن يراها أحد آخر، أسحب الكرسي وأتهد بعرق ثم أجلس عليه أنتظرهما. تنضمّ لىلى إلى بعد دقائق، بطلتها المحبة والتائهة، تنظر حولها بعينين ألمحهما كأنهما زجاجيتان، ببشرتها الملساء الخالية من المساحيق، وشعرها العجري الطويل، وهندامها البسيط والتنظيف. بعد عناق حميمي، تبشي قلقها على الحال التي لا بد ستكون عليها فاتن بعد ليلة أمس.

لحظات وتخطو فاتن نحونا، يجللها وجلّ ورقة تكادا تكسرا صاحبهما، هيئة يعرفها كل من ابتلى بالحب. وجهها شاحب ولا تغادره جاذبيته، شعرها مرفوع عن جانبيه، ترتدي بلوزة قطنية بيضاء مع بنطلون رياضي، يعتليهما مانطو شتوي أسود مبطن بريش البط، لا يستغني عنه أحد هنا.

تقف فاتن بمحاذاة طاولتنا، وتعطي كل منا حظها من نظراتها كثيرة الكلام، فتقف لىلى وتعانقها ثم تقول:

«سأذهب لإحضار القهوة، اجلسي حبيبتي، ولا تقولي شيئاً، انتظريني!».

أما أنا فلا أتنازل عن فرحي الطفولي، المحفني بلقائنا أولاً، وكل شيء يأتي بعده، وسنجد حتماً مخرجاً لما يؤرق أياً منا معاً.

حين جاء وقت البوح أخيراً، اتجهت أنظارنا نحو فاتن:

«بالأمس، كنت أفكر طوال الوقت، كيف ستكون نهاية يومي الأخير لهذا الفصل، تُرى، هل سيطلب عنواني البريدي أم رقم هاتفي، أو ربما طلب لقائي! في اللحظة التي تمنيت فيها أياً من تلك الاحتمالات، وُلد تخبطي مما سارد فيه عليه وقتها، فتهدت بين رغبتني وهلعي من ذلك. كم بدا حزيناً صباح أمس، وتساءلت، أين ذهب كل الإشراق الذي يحيط بوجهه عادة؟ رؤيته على هذه الحال أوقفت الأسئلة التي لا جدوى لها برأسي ودفعت بأخرى حائرة وقلقة على حاله. انشغلت بلوحتي طوال اليوم، فيما وجلي وأسألتي تقوم بعملها في خلفية عقلي، وعندما جاء وقتي ووقف ألبرت أمام لوحتي، وجدتنني أؤكد له أن الحجرة لن تسقط، فقال لي (ليتها سقطت) فقلت له للمرة الثانية بكل ثقة (الحجرة لن تسقط) فرجع وقال لي (كنت أتمنى أن تسقط)، فجوابته حينها بعصبية واضحة (لن تقع)، وبثقة استمديتها مما قاله لي ابني الصغير كريم (هذه الحجرة لن تسقط، ستجري المياه من حولها ومن تحتها، لكنها ستظل ثابتة)، ابني البريء الشفاف، الذي يفوق حدسه حدسي، ورهافة حسه حسي، فمعدنه لا يزال نقياً لم تعكره شوائب الأيام وآثامها. فما كان من ألبرت إلا الاستسلام، فأخفض رأسه، حتى خلته اختفى بين كتفيه، وتمتم بصوت منخفض (كم

تمنيت أن تقع)، ثم خرج من المرسوم والحنق يجلل ملامحه كالأطفال، وحين عاد إلينا كان وجهه محتقناً خمرى اللون».

«لم أفهم شيئاً! لماذا أراد لها الوقوع؟ استرسلني فاتن، ساقع من الكرسي لشدة تنبهي وتشنجي، هذا العالم سيفقدني صوابي. أكملني بالله عليك». أقطع كلام فاتن كما أفعل دائماً، فأسئلتني لا أكثر منها.

تقول ليلى مندهشة: «عيوني كريم! يأتي هذا الصبي بجمل تفوق عمره الحقيقي عدداً، من أين يأتي بها؟! الله يحاماه».

تبسم فاتن فخورة بطفلها ثم تسترسل بكلامها:

«حين جاء وقت الاستراحة، وخرج ألبرت من الفصل، استجمعت قواي، وتبدلت حالي المضطربة، بمجرد أن تذكرت اتصال حسام بي قبل دخولي المدرسة بدقائق، يطلب مني أن أتمهل وأركز بقيادتي، ثم يخرج عن سياق يوم رتيب ليقول لي كم يحبني، في وقت كنت أفكر فيه كيف سيكون عليه زمني دون ألبرت بعد اليوم! ما الذي جعله يتصل بي حينها؟ كم كان ذلك غريباً وآسراً!».

«لا بد أن حسام يشعر بتغير ما فيك، ولا يمكننا إغفال الرابط القوي بينكما. أحببت أنه عرض كل ذلك ببساطة وبرشاقة، كأنه يقول لك، أنا دوماً إلى جانبك حبيبتي»، أقول.

يهبط على وجه فاتن سلام خاص يحمل في تركيبته حب كبير، يضفي

على ملاحظتها قرب وصدق، لا يزيدان تقاطيعها إلا جمالاً:

«أنتِ على حق مي، بيننا رابط قوي، يمكنني أن أقول بأنه ولد متيناً منذ البداية».

تبتسم ابتسامة رضا ثم تكمل:

«آخر تعليق من ألبرت يومها على لوحتي كان يتعلق بالضوء والظل، رجع وطلب مني أن أضيف بعض الظل، بعض العتمة، مشدداً على أن كثرة الضوء الموجود فيها ليس صحيحاً. كان قراره حتمياً، لا رجوع فيه، لم أستطع إدخال العتمة، فتركت اللوحة على حالها. تأكد ألبرت عندها أنني لا أرغب بالسقوط كما لا أقوى عليه، وأيقن أنه لن يرَ مني إلا النور، النور فقط».

في يوم عادي وبعيد، جلست فاتن في المقعد الخلفي من الحافلة، الذي كان ينقصه راكب واحد بالمقدمة ليكتمل العدد، وينطلق بهم السائق إلى وجهتهم، انتظرت في داخلها، ولمحت من بعيد شاباً وسيماً أسمر يقف وحده على الرصيف، بجانب موقف الأوتوبيس العمومي، ينتظر حدثاً أو أحداً على وشك الوصول، يرتدي سترة جلدية سوداء تبدو غالية الثمن، وقميصاً قطنياً أبيض، يعطي انطباعاً بأناقة شبابية لا تؤدّ أن تبدو متكلفة وجينز يليق بقوامه الرشيق. تساءلت عن شخص هذا الشاب المجهول، الذي يبدو غريباً عن المدينة، فهي هنا منذ ثلاث سنوات، وتعرف كل وجه

على هذا الطريق، فمن هو هذا الغريب؟ ركّزت نظرها على عينيه الواسعتين، الشهاولين والحادتين، ولمحت رهبة تقطن بجوار الجمال فيها، فلم تستطع مقاومة رغبة كبيرة ولدت بنفسها حينها، بجلوسه إلى جوارها.

«سأجلبه وأدعه يجلس بجانبك، وسألقي بالطالين اللذين يجلسان في جوارك الآن خارج الحافلة، لا عليك!». يقول أبو مجد بعد أن يمعن النظر بفاتن.

أبو مجد، رجل لا وظيفة له، يقوم بمهمة دفع الطلاب المنتظرين أن تقلهم إحدى الحافلات المتسرّبة على الموقف كل بضع دقائق إلى وجهاتهم، داخل الحافلة التي يختارها لهم.

في هذه اللحظة البهية، المسجلة من الأقدار لهما وحدهما، أيقنت فاتن بأن أبواب الحب كانت متأهبة لهما، هي وحراسها وملائكتها، كانوا يقرعون الطبول وينفخون المزامير، يعلنون الحرب مع السلم، كانوا يZFونها إليه. بكل حدس الأنثى وأمومتها، عرفت أن الآتي مسئوليتها ولم تكن تنتظر منه أي شيء وقتها. من أين جاءت تلك المعرفة الموقنة بنفسها، ومن أين جاءت كل تلك الأجوبة، لأسئلة لم تكن مطروحة، عن شخص غريب وقعت عليه عيناها للتو؟ استمرت في التحديق نحوه، إلى أن رآته قادمًا نحوهم، وشغل المقعد جوارها، جلس قربها، ولم ينظر إليها، وطوال الطريق خالت أن ضجيج دقات قلبها قد أضجر الراكبين والسائق والمارة، وحمدت الله أن أحداً لم يلتفت إليها.

«وكيف كان وداعكما؟ هل تجرأتِ وعرضتِ عليه شرب القهوة معكِ؟ لا تقولي لي هذه هي النهاية!»، قالت ليل، وسِمت الدهشة والترقب تسكن عينيها.

نظرت فاتن باستغراب إلى ليلي وبخية من لا يعرف صاحبه جيداً بعد، قالت:

«ماذا تتوقعين؟ بالطبع لا!»، ثم أردفت: «عندما أشرف اليوم على نهايته، كنت امرأة تتلوّى من وجع دقات قلبها، كانت تتسارع كالسم المنتشر سريعاً في العروق، إلى أن جاء الوقت الذي فيه أُلقيت بيدي بين يديه، ثم تلعثمت لأقول (أشكرك، معك اكتشفت الألوان كلها). غادرتُ بعدها المكان مسرعة، فشفّيتي بدأاً بالارتعاش ودموعي كانت على وشك الانهيار، وما إن ركبت سيارتي وأغلقت الباب حتى انفجرت بنشيج لا أعرف كيف أقف بطريقه، كان عنيفاً لا يهّمه ما يعترضه، وله القدرة على جرف كل شيء. كم كان ذلك غريباً! كان بكاءً ممتدّاً لكنه صامت، فقدت فيه إحساسي بجسدي، وتوقف تفكيري والصوت الذي لا يهدأ في رأسي. بعد مُضي ما لم أحسّ به من الوقت، أرفع رأسي فأرى الثلج حولي ينهمر بغزارة، مرافقاً دموعي، والبياض والجمال قد أغرقا كل شيء من حولي. مع احتلال النحيب لكياني، أشهد ولادة حب من خامة غريبة بداخلي، يكبر وينتشر كبقعة ضوء في الظلام، يحلّ على مهله مكان دموعي، حب أكبر من أن تحويه دواخلي، ولا يشبه حباً آخر عرفته من قبل. في داخلي

إحساس بأنه حب يمكنه الإتيان بأفعال خارقة، ولا يمكن لشيء أن يقف في طريقه. ربما فهمت الآن كيف أضافت الأساطير إلى شخصيات أبطالها أبعاداً ألوهية، لا بد أن هذا الحب يجمع عنصرًا إلهيًا بمكونه، مادة تم تركيبها في السماء». كانت الدموع تغطي مقلتي فأتن وبالطبع أكثر من ذلك فيها.

يصيبنني الوجوم، ويلجمني عن الكلام ويترك بعض الدموع المستترة في مقلتي، فهلع فأتن من البعد والشوق، حتى إن كان مؤقتًا، يصيبنني في الصميم، فكل من يلوح بأعلامه يذكرني بوجلي العضال من كل احتمالية فقدان لأي من أحبائي، احتماليات لا نهائية تقف حول سريري كل ليلة، تحرق بي ولا تغيب إلا حين يغلبني النعاس.

تجبرنا ليلى على الخروج عن وجومنا فتقف على عجل:

«عيني، تضورنا جوعًا! دعونا نأكل!».

تحمل كل منا حقيبتها، نترك معاطفنا معلقة على ظهور مقاعدنا، ونهرع لشراء لقمة تسد خواء معدنا. نعود إلى طاولتنا وكلام كثير لا يزال محبوسًا داخلنا، ينتظر دوره بالتدحرج والتسلل بين لقيمات طعامنا.

كان الوقت على وشك الانقضاء، وليلى قد اقترب سفرها لوطنها، فتحكي لنا عن استعداداتها له، ثم تستغرب من هيامها برجل مثل هاشم، لا يشبهها بشيء، غارق في عمله وانتصاراته، لا يشبع من الدنيا ومغرياتها،

يعيش متعه إلى آخرها، ويضحك ساخرًا من كل مفاجأتها. تتساءل ليلي:

«هل أحبه؟ أم أنا متشوقة للوقوع في الحب؟»، ثم تراجع عن تردها لتقول: «قررت أن أعدّه بأنني سأخرج معه، لا أدري كيف وأين، سأتركه يخطط لذلك في بلد فقد الأمان فيه دربه. لم يبقَ لي سوى أيام بينكما، وأكاد أجدها تمر ببطء لم أعهده بها منذ زمن بعيد. مع شوقي الكبير لوالديّ وسعادي بأنني سأغدق عليها بمحبتتي التي كم يستحقانها وهما في هذا العمر وحيدان، بعد أن أنهكها تنقلهما من مكان إلى آخر على مدى حربنا التي لا نهاية لها، لكن شوقي له يغطي على كل شيء».

ثم تسألني ليلي عن حالي، فأؤكد لها بأنها ليست بحاجة لاستجدائي، فأنا امرأة تحاول دومًا التحرر من مخاوفها بالروح. حالي تشبه حالها، وأفهمها تمامًا، لا تزيدني الأيام إلا شوقًا وتولعًا، وأحاول الهروب من حزني، مع أن تميم دومًا يقرأ ما بين السطور، ويشتمّ حزني المتواري بين الحروف، حتى وراء صمتي.

«كان يكلمني كل يوم، والآن أحس بأنه بات يفضل الرسائل النصية، أين تختبئ الحقيقة معه، في الصوت، في تلك الرسائل أم في الرسائل التقليدية أم في الحياة المعاشة بتفاصيلها؟ لماذا يختار أن يهرب مني ويختبئ خلفها؟ أو خلف حالة يعيشها وحده؟ كل ما أفهمه من ذلك هو إنني مملّة، أنه ليس هناك ما يمكننا تبادل الحديث حوله، أنه لم يعد يشاق إلى صوتي، لا ينتظره، لا يرطب مذاق يومه، كما يفعل صوته بي! هل سأقاتل من أجله،

وأكتفي بالحصول منه على ما يود منحه لي، هل سأهم بهدم بعض أو كل تلك الجدران التي يعمل جاهداً لبنائها بيننا؟».

تقول فاتن مثبّنة عينيها بعينيّ الموشكتين على البكاء:

«لا أعتقد بأنه الآن يخاف أن يحبك، بعد كل الزمن الذي باعد بينكما، لا بد أنه رجع إليك، لأنه بحاجة إليك، هو يعرفك، وليس بحاجة لاكتشافك من جديد، لكنه بالتأكيد لا يقوى على الحزن ولا يريد مزيداً منه، لا تكوني كأني امرأة أخرى، لا تزيد الزمن إلا شكوى وحزناً ومرارة، مهما كانت أسبابك مبررة، هو يرفض الحزن، مع أنه لا يسكن مدينته سواء، أو افقه تماماً في ذلك، بل معجبة بشجاعته وبحكمته التي من الظلم ألا أشيد بها!».

أهز رأسي موافقة فاتن، ولا أقول لها، كم هو سهل الكلام، لم يجبر تميم على السكوت، إلا الأمر مما نتخيل أن الحال عليها الآن في مدينتنا.

بإلحاح من ابني زياد، وبعدها من ليلى وفاتن، تعلمت بعد سنين عجاف ألا أرتكب بحق نفسي ما كنت أقترفه صباح كل يوم، فتوقفت عن طقوسه، وأصبحت كالغريبة عن أرضي، لا أسمع أخبارها، ولا أتابع وجوه كل من رحل عنها، إلى السماء أو إلى بلاد الله الواسعة. كم كان يؤلمني أن يأتيني أحد من سكان المدينة الهادئة، ويسألني إن كنت قد شاهدت أخبار اليوم، ما الذي سأقوله لهم، أرجوكم، لا تخبروني، فما ترونه أو تسمعونه كخبر يمر على الشاشة، هو فجعية بالنسبة إليّ، اتركوني أقف على رجلي، أمشي

خطواتي في هذا اليوم إلى أن يأتي الظلام، أندس تحت ملائتي وأحاول أن أنيم روحًا لا تنام.

ابتعدت إلى الدرجة التي قلّصت بها الاتصالات بوالديّ، فالرسائل التي يبثها صوتهما، لا أقوى على تحمل ألمها وضعفها. في مقابلها هاجمتني كلمات الروحانيين التي تضيق عليّ هي أيضًا، أينما أشحت بوجهي، التفاؤل، الإيجابية، التأمل، إسكات العقل، توسيع الوعي والوعي الكوني والأنا والوجود الأعلى، كلها تصرخ بي، تسألني أن أصل إليها، ولا أصل، وفي كثير من الأحيان، أقرر أنني لا أريد أن أصل، وأجد نفسي أصرخ (فلتصمتوا جميعًا).

2

«أبعث لك بإشارة الموت»

في الساعة الخامسة صباحًا، وفي الوقت الذي يهَمُّ الله فيه بإيقاظ الشمس، ودعوته للإعلان ولادة يوم جديد، كانت هناك، كما تعود منها قاطنو السماء أن تفعل، تتجول في فضاءات لا تملّ من اكتشافها أو مجرد الغياب فيها. في مكان ما، التقت فاتن صوته، يردد «أبعث إليك بإشارة الموت».

ثم رأت رمزًا غريبًا يظهر أمامها هكذا فجأة، بلا استدعاء منها. تتذكر أنها قد رأت هذا الرمز من قبل، يشبه في شكله علامة الخطأ، أو حرف الإكس بالأحرف اللاتينية، يتمركز في عيون الشخص التي تسكن لوحاته، محاولة كمد بريقتها.

إذا هذه هي إشارة الموت! تحدث فاتن نفسها.

تملكها خوف غريب عليها من وقتها، هربت منه نحو أسئلة تحاول تهديتها، ما الذي أراد أن يقوله ألبرت عبر هذه العلامة في لوحاته، وما الذي يحاول قوله لها الآن؟

رجل على هذا القدر من الشفافية والسحر، ما الذي يثيره في الموت؟ ولماذا يقوم بمهمة تقديمه إليها؟

ربما أراد أن يدعها تموت قليلا فتذوق حياتها قدرًا يسيرًا من طعمه، فيما الصدمات الساكنة التي طالما عرضها لها، ولا زياراته المتكررة لها بأحلامها، ومحاولاتها مع التأمل العميق، إلا صوراً من صور الموت المؤقت أو الموت على قيد الحياة.

ربما كان وجودنا سلسلة غير متناهية من التنقل بين الحياة والموت، وهو ما يود ألبرت لفاتن إدراكه.

للجمال السخي رهبته، أحلق في السماء وأنقل ناظري بين تكاوينها فيصيني وهن في جوفي، كذاك الذي يتتابني حين أنظر إلى تقاطيع زياد أو تميم، أتوه وأخرج من الوقت، وفي داخلي يمتلئ شيء ويفرغ، تتماوج مياهي في داخلي وترتجف، تعلو وتهبط، فأخالني خائفة ولا ألبث أن أعود وأحس بسلام ثابت وعميق. أهو وجد أم فرح؟ في لحظة أخالني بين الغيوم

لا يفصلني شيء عنها، تحيط بي وتنقلني بينها، وتبتسم وتبتسم فأستسلم إلى بهائها وأبادها الابتسام، وفي لمحة أقرر أنني اكتفيت ولا يمكنني احتواء كل هذه الارتعاشات، فأشيع بوجهي برضا وأغمض عيني بامتنان كبير. كلما تجرأت وأعدت النظر إلى السماء، عاودتني الاختلاجات في دواخلي وامتدت أياد كثيرة، وفي غمضة عين سحبتني إلى الأعلى وغيبتني في مكان على القدر الذي أخاله بعيداً، أوقن بأنه أقرب إليّ من نبض الدماء في عروقي.

كيف يربض جسدي على الكنبه هادئاً لا يتحرك، وشيء ما مني يلمس الأفق ويتنقل بحبور من مكان إلى مكان فيه؟

ما الذي تغير بي وجعل السماء تحاكيني كما باتت تفعل منذ مدة وجيزة؟ طالما كانت سقفي ولم أنظر إليها بذاك الوجد يوماً! أيعقل أن يتبدل كل شيء حولي حين أعطيتها حقها من الانتباه؟ وهل الأمر على ذاك القدر من اليسر؟

3

تانغو أزلي

تقضي ليلى وقتاً استثنائياً في مدينتها البعيدة. لقد كانت دعواتها مسموعة، ومرّ كل شيء بسلام، غادرهم الخوف والحقْد والرصاص حيناً، وسمح لمدينتهم، ولو بجزء متناهي الصغر فيها، أن تشبه مدينة حفظوها في ذاكرتهم في الماضي البعيد. تستغرب ليلى وقدمائها تقفان ثابتتين على الأرض هنا من جرّاتها في الذهاب إلى هناك، ومن تهورها باصطحاب طفليها معها.

تنتظر ليلى يومين، ترتب بهما كل الفوضى التي ضربت دواخلها، وتكلمه. يتفقان أن يلتقيا، فتستعد لموعدهما، فتظهر مواطن الجمال في وجهها وبجسدها ببساطة ترتاح لها، من دون أن تنسى تلميحاته بما يؤثّر منها، فتوليّه اهتماماً

أكبر. يوصلها سائقه إلى شارع ينتظرها هاشم في آخره. ومنذ ولوجها سيارته وابتداء مشوارهما، لا يتوقف هاشم عن اللعب بالكلمات والإيحاءات، وإلقاء دعابات تشي بطفولته كما برعونته، فتواجهها ليلى بنظرات تستوقفها حيناً، وبكلمات تنهره بلطف شديد عن المضي فيها. تسترق ليلى النظر إلى تفاصيله طوال الطريق، مأخوذة بوقعها عليها. كم تحب طول قامته، أناقته المفرطة، رائحة عطره وحضوره، جلجلة ضحكته، وشقاوة نظراته.

تتساءل بعد أن طال الطريق، إلى أين هو ذاهب بهما، إلى أن توقّف أمام بيت قديم في إحدى ضواحي المدينة التي تعيش هدوءاً نسبياً هذه الأيام، ليخبرها بأنه بيت للعائلة ورثوه عن جده، والآن هم بصدد تجديده ويرغب لها بأن ترى ملعب طفولته فيه. لا تقول شيئاً، ينزلها برفق ممسكاً يدها، ويمشيان قافزين فوق كل فوضى أعمال البناء التي تفرش طريقهما. بعد بضع درجات يدلفان إلى الصالة الرئيسية التي تشيدها أعمدة إسمنتية جرداء، تحمل سقوفاً لا حواف لها. بعفوية لم تكن تنتظرها يمسك بذراعها، ويديرها نحوه، يعانقها عنقاً طويلاً، وبعد أن يهمس في أذنيها بكلمات تعيد الحياة إلى كل خلية في جسدها، تقبل شفتاه على مهلهما أذنيها، ثم تنتقلان إلى رقبتهما، وتلتانها بقبل كثيرة وصغيرة، تفرّقها لحظات سكون وترقب. لا تدري ليلى من أين ظهر كرسي مهترئ، يجلس هاشم بعجل عليه، ويجلسها على حجره، مذهولة تدير وجهها ليوافق عينيه فتختطف شفتاه شفتيها، فيما يدها ترفعانها قليلاً كأنهما تدعوانها لتغيير وضعيتها،

بحيث يواجه صدرها صدره، فتمثل لرغبته، أما شفتاه فلا تتوقفان عن التهام كل ما نبت على شفتيها من رغبة وشغف فيه، يحاول جسدها الامتثال لإيحاءات جسده المتطلبة، المباغته والسريعة، إلى اللحظة التي ترى ما تخرج به يده من جيبه. حين تلمح المناديل الورقية، تجفل ويشحب وجهها فجأة، يهلعها تمدد شهوته، ويخيب ظننها بما ينتظره منها على عجل هكذا، وتغزوها مشاعر الندم التي تحررت منها مؤقتًا حتى تلك اللحظة، فستوقفه مطالبة إياه بالعودة من حيث أتت. في طريق عودتهما، يسكن صمت ثقيل بينهما، فاقطعاعها خلوتها أثار حنقه، وحنق الكلمات في داخله. لم تتمكن ليلي من تخيل التماهي معه في مكان عام، قد يفاجئها به أي كان، ويضعهما في موقف هما بغنى عن التعرض له، هذا بالطبع إلى جانب أن تخيله خلوتها يفقد الحميمية التي تنشدها معه، ما الذي داهمه حينها؟ لا تزال تتساءل، هل كان تصرفه وليد اللحظة أم أنه وفق تخيل ثم تخطيط مسبق؟ أيًا كان، فتمنعها وقف بشكل ما في وجهه هو أجسها ومخاوفها، التي هابت أن تداهما عندما تلقي برأسها على مخدتها. قرارها الذي اتخذته بأن تعيش مشاعرها نحوه، وأن تكون الأمور تحت سيطرتها، قد نجحت فيه، وبقي عليها أن تهزم مشاعر الذنب ولوم الذات وكل ما يؤدي إليهما.

مخاوف ليلي ومشاعرها الزاخرة بالذنب والندم، مع محاولاتها ترويضها، تسللت إليها من أول ليلة، ولم تمض ليلتان إلا وكانت تنام جنبها كشريكتها في هذه الحياة، وإن كانت شريكًا بات يؤثر من الكلام أقله.

لا تتمكن فاتن من إخفاء قلقها نحو شخص هاشم، ومدى جديته
بالتعامل مع مشاعر ليلي. تتململ ليلي وتتغير ملامحها، من حديثنا حول
مخاوفها، وبشكل خاص ضعفها، تنفضه عنها في كل مرة وترجعه إلى جوفها
كلما بزغ رأسه خلصة عنها وواجهنا.

الفصل السادس

العالم يبدو مختلفا

1

لوحة الملكة

انتظرت دهشتي فاتن كل أسبوع وحجزت قبلي مقعدها على طاولتنا، وفاتن مرتبكة بوصف ما لا يوصف لنا، تنقل ناظرها المبلل بالدموع بيننا، تعيد ما حدث في المرسوم على نفسها أولاً قبل أن تستفيق على حقيقة أنها تنقله إلينا. بعد أن أنكرت على ليلي، وفي بعض الأحيان على فاتن، الكثير من الإسقاطات، رجعت وهدأت وبحثت وقرأت وتابعت -وعلى مهلي- تشربت التفاصيل الخارجة عن المعقول، وكوّنت بحجر أساس وراء الآخر عالماً جديداً، لا أبعاد واضحة له في مخيلتي بعد.

كانت فاتن ترى ألبرت في كل مرة كأنه قد ازداد جمالاً وسحراً وشباباً،

متسائلة: إن كان تغير فعلاً أو إنها هي التي تغيرت، ولا تفتأ تؤكد لنا أنها لم تكن تسمع أو ترى شيئاً في الفصل، إلا ذلك الكائن الذي تغطيه الروعة من كل جوانبه، وكلما تخيلت أن ما حدث للتو هو الأكثر غرابة، يفاجئها الدرس القادم بوقائع تفوق السابقة دهشة وغموضاً. ودّت دومًا لو تسأله عن كل ذاك الجمال المتجلي أمامها، إن كان لملاك، أو لإنس مثلنا؟ صبت لو كان بإمكانها أن تستفهم من الجميع إن كانوا يرونه كما تراه هي؟ أم إنها وحدها تحت رحمة تعويذة ما!

«لكن ألا يضيعنا الحب تحت رحمته جميعاً ويمارس علينا ذات الظلم؟»، أقول لها.

باتت فاتن مع الوقت تتقن التواصل والإبقاء على حالة الحضور المرجوة معه في الفصل معظم الوقت. يحضر وعي آخر بها، تتباطأ فيه حركة عقلها ويتوقف إنتاجه السخي من الأفكار، فتدخل دائرة سحرية وخاصة تجمعها معه، يتغير معها كل شيء، ويصبح أكثر حقيقية، سهولة وتلقائية، تصبح مسكتها للفرشاة، واستخدامها للألوان، كأنها في مكان لا جاذبية فيه، حتى خطوطها، تصبح كأنها ترسم نفسها بنفسها.

تسجل فاتن في مادة رسم لوحات جدارية في الفصل الثاني إلى جانب مادتها مع ألبرت، كان قد نصحتها بالتسجيل بها. كل الصراعات التي تواجهها وحدها، من ازدياد تعلقها به، لخوفها من فراقه في نهاية كل فصل، لهلعها من تورطها معه بعلاقة غرامية، لحنقها من سيطرته على تفكيرها

ولكل تلك الفوضى التي أحدثها في داخلها، للعوالم الجديدة التي فتحها أمامها، لضعفها أمام نفسها وأمامه الذي يقوض كل شيء فيها، ولتمرد لها من كل ذلك، سكتها على قطعة القماش الكبيرة الممدودة أمامها، وبجنون راحت تعبث بالألوان وترميها ليمتصها النسيج المسكين، ويتحملها عنها، كانت تصبو إلى إطلاق خلاصتها ثم الإمساك بها وبلوغ ذلك السكون الذي لا تود العودة منه، سكون تعرفه وكم ترتاح في كنفه ولا تلبث أن تفقده في كل مرة.

تفاجأت فاتن تمامًا عندما ظهرت تلك المرأة واحتلت لوحاتها، وجهها ينظر إليها بتحدٍ تعرفه جيدًا، عيناها كبيرتان، تعيش فيهما كل الألوان، يقطن فيها الحزن كما الإصرار. دُعرت فاتن بتبديها الأول، فوجهها كان يعكس غضبًا وانكسارًا خشيت عليها منهما، لم تهدأ وتخنح لطلبنا التعرف عليها إلا حين رقت نظرات عينيها، وظهر تاج على رأسها توارى أسفله شعرها الكثيف، تاج تجهر فيه بقوة تستحقها، تعلن فيه أحقيتها بمملكتها، عشتار(*) هي أم ليليث(**)، فهي لن تُدعن لإرادة أحد، إلا لإرادة نفسها، وسترحل

(*) عشتار: آلهة الحب والحرب عند البابليين، هي الإلهة المؤنثة، الأم الكبرى، الجامعة لكل التناقضات، هي الأولى والآخر، البغي والقديسة، الزوجة والعذراء، الأم والابنة، العاقر والكثيرة الأبناء، القابلة التي لم تنجب أحدا.

(**) ليليث: هي إلهة الريح والهواء، الزوجة الأولى لأدم قبل حواء، التي لم ترض بسيطرته فتمردت وهربت منه إلى الأرض تاركة وراءها المئات من أولادها. هي المرأة بجهاها الجامح، وفتنتها التي لا تقاوم، رمز الأنوثة المجتمع مع الذكاء الباهر والكبرياء العالي، التي غار منها الرجل عبر التاريخ، وألبسها أثوابا من العار والبغاء والقسوة.

مع عواطفها للأماكن التي تود أن تأخذها إليها، هي التي تخلق الحب بداخلها، ومنها سيفيض وينهمل، ويلوّن عوالم ما كان لها لون دونه.

تقول لنا فاتن: «هذه المرأة حاضرة طوال الوقت، تنظر إليّ وتتمنى ألا أخذها، أنا بحاجة إليها، أتمنى أن أخلق الوقت للوجود حولها وسماع هسهساتها التي لا تنتهي».

2

حضور لا يعرف غياباً

تتمكن فاتن في لحظة تجلٍّ أن تسحب الخيط، الذي يجمع حوادث صغيرة كانت تتكرر معها، وتبدو لها بأنها عادية، وليست ذات شأن لتوقن بأنها لم تكن تحدث عبثاً. كتتابع إحساسها الغريب بوجود ألبرت معها اليوم بطوله، يرافقها بشكل ما، منتصباً خلف كتفها الأيمن، حضور لم تتأكد من واقعيته إلا حين عاد وفرض نفسه عليها. في يوم من الأيام تعبر عن رغبتها لصديقتها في الفصل برؤية ألبرت دون قبعته لتأتي في الدرس المقبل وتراه متخلياً عنها لأول مرة. في يوم آخر تذهب مع زميلة من مدرسة الرسم لزيارة متحف يعرض لوحات لفناني (المجموعة من سبعة)^(*)، تمشي في

(*) المجموعة من سبعة - جماعة فنية تضم سبعة رسامين كنديين، لورين هاريسن هو أحد مؤسسيها. ذاع صيت الفنانين السبعة ببداية القرن العشرين، حيث كانوا يجتمعون باستديو =

مرات تضم أعمالهم العديدة فتؤخذ بتقنياتهم في الرسم وتطول مراقبتها لتفاصيل لوحاتهم، وفي اليوم التالي، تدخل الفصل متأخرة فتجد ألبرت يتصفح كتابًا كبيرًا، يقرأ للطلاب منه، ثم يرفعه ليواجهها مغلفه، تقرأه فتلجمها الدهشة، فينظر في عينيها ويقرأ عنوانه بصوت عالٍ لا يستخدمه عادة: (المجموعة من سبعة)، هو الذي لم يسبق له أن ذكرهم أمامهم من قبل!

في أحد الأيام، تفتح فاتن خزانتها تطالع فيها ما يمكنها أن ترتديه لمرافقة حسام إلى حفل عشاء عمل، فتنتقي ثوبًا قديمًا لديها لم ترتده منذ زمن، ترميه على السرير فتنب نقشته إلى ذهنها، وتلتقي بنقشة مماثلة تمامًا، لبنتال كانت ترتديه فتاة غريبة التقتها على باب الفصل لأول مرة قبل أيام، وكان ألبرت يكلمها عن هذه النقشة، ويبيدي استغرابه منها ويسألها إن كانت هي السائدة هذه الأيام، لأنه بات يراها كثيرًا، هو الذي ندر أن يتكلم مع أحد، ناهيك عن أن يوجه سؤالًا شخصيًا لأحد، أو أن يستخدم نبرة عالية بصوته، كان يريد أن تسمعه، وتنبه إلى ما يقوله. لا تتوقف فاتن عن التساؤل: إن كان ألبرت أوحى إليها بلبس هذا الثوب، مما قد يعني بأنه يبصر محتويات خزانته، بل يريد لها أن تعلم بأنه يفعل، والأفدح بأنه يمكنه أن يؤثر في قراراتها.

=خاص ويرسمون معاً، فأخذت خطوطهم روحاً متشابهة. وخدمهم حسام الشاعر
وارتباطهم الكبير بالطبيعة الكندية، شغف حلق بهم بعوالم ساحرة وحرّهم من النمط
الأوروبي التقليدي السائد حينها.

في يوم آخر، يتصل بها حسام من مكتبة «أباف جراوند» في مركز المدينة لشراء مستلزماتها من أدوات ومواد للرسم، كان قد طلبها ألبرت منهم في بداية الفصل، وفاجأها حسام بالتطوع بجلبها لها، مع أنه لم يلبّ خدمة لها كهذه من قبل، فتسمع في الخلفية صوتاً كم تعرفه، تجفل لسماعه أوصالها قبل أن تفرح كعادتها، فينبئها حسام أن أستاذها بجانبه يساعده بانتقاء الأغراض بعد أن تعرّف عليه. تهاجمها أسئلة لا يريحها أي احتمال لإجاباتها، تصل بها إلى أنه يتحداها ويريد لها أن ترى مدى استحواذه عليها، بأنه يقرأها خارج الفصل أيضاً، ككتاب هين ومفتوح أمامه، يقلب بصفحاته كما يشاء، أما ما ألهعها فهو احتمالية أنه يقرأ حسام ويتدخل في قراراته. كيف أمكنه أن يشارك حسام مكانه ووقته؟ وكيف تعرّف إليه؟ ما الذي يريده منه وما الذي يريده منها؟ كل ما خبرته داخل الفصل كانت له مبرراته عندها، وحصرتها برغبتها في التعلم على يديه فنون الرسم وأسراره، أما دخوله بيتها، والتجول بحرمة على هواه، فهو ما لن تسمح به أبداً، وعليه أن يعلم ذلك جيداً. لم تشعر في حياتها بهذا القدر من الوهن، كيف تسمح له بامتهان كيانه داخل الفصل، والآن خارجه بهذا القدر؟ لا يمكنها أن تصدق أيّاً مما يحدث لها منذ دخل أيامها.

في يوم آخر تجلس فاتن حول ألبرت مع من يشاركها الفصل بشكل دائري وتتابع أصابعه وهي تلاحق الخطوط الموجودة على لوحة أمامه، لامرأة عارية مرسومة بالفحم، كان يدعوهم لمراقبة استمرارية الخطوط

المنحنية، اتصاها وانسيابيتها، ويتنقل بنظراته بين الجميع، إلى أن يصل إلى كلمة (اتصال) بكلامه، فينظر نحوها، ويكرر كلمة (اتصال)، ويثبت نظره في عينيها، إلى أن وصلت بلا شك، إلى حقيقة أنه يود الاتصال بها، فتذكرت حينها الصوت الذي كانت تسمعه ليلاً، وقالت في نفسها، ربما يريدنا أن نتصل به على طريقته، فلتبعث له بأسئلتها إذاً، ولتنتظر إجابته كيف ستكون. في البدء حين أطلقت سؤالها سمعت صوته يقول قولاً مقتضباً، فاعتقدت بأنها واهمة، وعندما تكرر سماعها صوته، صدقت بأنها تسمعه حقاً، أما وعيها بذلك، فلم يمنع مخاوف جديدة من غزوها.

في إحدى المرات تسمعه يقول لها «أحبك» فأصرخ كطفلة حين تخبرنا بذلك من صدق نبوءتي، غير عابئة بغرابة كل ما تصفه لنا، وأذكرها هي وليل بأنني أكدت لها بأنه يحبها في الكثير من المرات طالبة منها أن تسلمها للأمر وتصدقاني.

أما الملكة في لوحاتها فلم تأبه لأحد وداومت على ازدهارها من يوم إلى آخر، عرفت فائن في كل واحد منه كيف تعطيها وتأخذ منها، أصبحت أقوى وأجمل، لم تعد خائفة، حلّ سلام على محياها، محابدره آثار الغضب الماضي، غزتها ألوان كونية، تأخذ من ألوان الطيف عفويتها وطهرها، وتتطاير من رأسها على هيئة شرائط حرير. أصبحت فائن أكثر ثباتاً وتوازناً بوجودها، وبالتالي أكثر حضوراً أمام ألبرت، وحين قدمتها له، شهدت مدى السعادة التي كان فيها، أخذت انتباهه كله، أعطاها من وقته حظاً

لا بأس به، لم تجده يعطيه لأعمال زملائها. لا بد أنه قرأ فاتن فيها خطأ خطأ ولونًا لونًا، وحين شرّح اللوحة لطبقاتها الأولية، حكّت له كل منها عذاباتها كما التحدي الذي تخلقه وتحوضه أمامه بلا توقف.

يخفت صوت ليلي المحتفي باللوحة فجأة متسائلة:

«كأنني أرى غلالة على إحدى عينيها، وأرى العين خلفها مطبقة، هل قصدت إغماضها، أم أن الغلالة تجعلها تبدو كذلك؟».

تطرق فاتن بتفكيرها قبل أن تقول:

«لا أدري كيف ظهرت هذه الغلالة، ولا أحس بأن عليّ إزالتها الآن، ربما تحمي ملكتي من رؤية الحقيقة كاملة، لأنها ليست متأهبة لها تمامًا، ربما تتخفى خلفها، فهي امرأة شرقية، وهبتها تبقى بخجلها ووقارها».

تلتفت ليلي إلى فاتن فجأة، تنظر بعينيها وتقول بلا تردد وبعزم لا أدري حقًا من أين تأتي به:

«أزيلي عنها الغلالة وافتحي عينيها، أقول لك، لا تترددي، دعيها ترى العالم كما يجدر به أن يكون، لا بعيون عقل طالما أنهكها».

3

حلما، علما أم وهما!

بعد أن تعلمت كيف أغيب بالغيوم، عقدت العهد نفسه مع الغابات،
موقع غيابي الجديد، أمشي فيها كل يوم فجرًا، فيموت الوقت والتعب،
ويخلق في داخلي حديثًا حقيقيًا وطويلاً مع نفسي ومع كل من يقطنها. ألتقي
كل مرة بزهور مختلفة، تعرض عليّ فسائنها وتترقب انبهاري بها، أبتسم
لها وأبدي فرحي بها وزهوي بجمالها.

بالأمس حامت فراشات بيضاء حولي، اقتربت من وجهي وعنقي
وبرشاقة ابتعدت، إيقاع حركتها هو الإيقاع الذي أحب أن يكون عليه
كل شيء، تلك السرعة التي لا تنسى بطأها، كما لا تنسى خفتها، تعرف
مسافاتها، تقترب إلى الحد الذي فجأة تبتعد فيه، فكّرت حينها بقرارها

المصري الذي اتخذته في زمن ما، حين انقسمت مجموعاتها على نفسها،
فمنها من اختار حرية الحياة بين الورود ومنها من اختار البقاء في قلوب
العاشقين، الاحتراق عدوًا خلف النور أم لوعة وشوقًا؟

وسط الأحراش والجروود ينتابني شعور أهاب معه من العودة، أودّ
لو أتوسد العشب وأتنفس ملء روعي، متناسية كل ما يقيدني إلى عالم
تنبض فيه مخاوفي بقوة. منذ همت بتتبع التناسق بين ساكني الغابة، فقدتُ
هوسي بأثاث البيوت، راقبت الكائنات التي تفتش أرضها، كيف تعلو
وتهبط وتتلوّن، لتكوّن خلفيتها بتواضع آسر، يخلق تأثيره في موقعه ولا
يأبه بما يفعله بالصورة ككل، تأملت النباتات الصغيرة وأشكالها الخلاقة
التي تختارها لنفسها، صعودًا للأشجار على اختلاف أعمارها وأحجامها،
كل يسبح بالسكون وبالفرغ، يتحرك ببطء كله حياة، يتنفس ويثأر
في الفضاء، يحاكي سكونه السكون الذي في داخلي ويفهم عليه. أخيرًا
سمعتني أحد، استقبلني من قلبه، بلا أي شروط، أخيرًا تلاشى الزمن
وتداعت معه أركان المكان.

أنهيت تجوالي في غابتي، ملأت رثتي بالهواء النقي واستعدت للقائنا
الذي عدنا به إلى مكاننا القديم، المعدّ لاستقبالنا على الدوام، بعد تأجله
بضع مرات، وتراكم أخبارنا وتمدد شوقنا لانسكابها ورؤيتها من أبعاد،
أصبح لا غنى لنا عن التقدير بمعاييرها.

«بمجرد دخولي إلى المرسوم، عدتُ لأتفقد شعر ملكتي ولأرى وقع اللون الجديد عليّ مرة أخرى. قرفصتُ مستندة على ركبتيّ، حيث كانت لوحتي مستلقية على ظهرها على الأرض، انحنيت مقتربة منها، تمعنّت فيها بارتياح مسبق إلى أن سقط قلبي فجأة، وارتفعت وتيرة دقاته، ثم قمت بما كان يبدو مستحيلاً!».

تصرخ ليل وهي تهز كتف فاتن:

- «عيني، ما الذي قمت به وكان يبدو مستحيلاً؟».

تثبّت فاتن عينيها بعينيّ ليل ثم تستدير نحوي قبل أن تقول:

«فتحت عينها اليسرى النصف مطبقة!».

تستمع فاتن إلى ثرثرتنا أنا وليل حول ما آلت إليه لوحتها، تهرب منها إلى حقيقة عليها مواجهتها بعد بضعة أيام، ولا شيء سواها يتصدر لائحة مخاوفها، قائلة:

«صديقتاي اسمعاني؛ سألتُ ألبرت بوضوح وببساطة وأنا مستلقية على فراشي ليلاً (أريد أن أعرف، ما الذي عليّ فعله قبل نهاية هذا الفصل، كي لا أبكي كما حدث لي في نهاية الفصل السابق؟)، ثم تجادلت مع نفسي، بأنه لا بد يعرف مدى تعلقي به، والذي رآه بيناً عندما يأتي أو ان الفراق، وهي حالة بالطبع لا أرضى عنها وتفاجئني تماماً بنفسي، لأنها تكشف ضعفاً لا أتوقعه منها، ومشاعر لا أريد أن أعترف بوجودها أو بعمقها. ترقبتُ أن

تأتيني إشارة ما بعد سؤالي، فلم أسمع شيئاً، إلى أن غلبني النعاس وغفوت على سريري. في مكان ما بوعبي، كنت أعرف أنني مستيقظة وحواسي تعمل كعادتها، فجأة، تتملكني قوة غريبة عليّ، ويبدأ جسدي بالاهتزاز، وأحس بجزء فيّ يُنتزع مني، جسم لا علم لي بقربه مني، لا وزن له، يرفرف كأن له أجنحة، يحاول الإفلات من مداري، من قوتي على جذبه، انفصاله عني يؤلم جسدي ويزيد بتواتر تنفسي، حالة تشبه لحظة الولادة ومتزامنة مع أحدهم يخنق أنفاسي. لم أعد أستطيع التراجع عندها، ولا استطعت تحمل الألم والخوف معاً، ارتفع صوت خفقان الأجنحة واشتدت سرعتها، كان ذلك الجسم على وشك الانفصال عني، لكنه لم يفعل، امثل لتراجعي المعجون بجبني وذعري، ثم رجع إلى مكانه في داخلي، إذا أمكنني القول. لم أفهم شيئاً مما حدث، هل كان حلمًا، علمًا، أم وهماً؟. تلتقط فائن أنفاسها لتصل إلى القول:

«إحساس عميق داخلي، كان يقول لي: إن هذا هو ردّه على تساؤلي، وبأن ما حدث لم يكن حلمًا».

«إن كان هذا هو ردّه على تساؤلك الذي يمكننا أن نقول، إن الخوف من انتهاء الفصل عنوانه، فما الذي أراد لك استيعابه بناءً على ما وصفتيه لنا الآن؟» تتساءل ليلى ثم تتابع وكأنها تكلم نفسها: «ترى هل ستعطيك هذه التجربة قوة ما تؤازرك حين يأتي اليوم المشئوم؟».

سؤالها أجبرني وفاتن أن نسهم بأفكارنا معها بعيداً، إلى أن عاد الصوت

لفاتن، التي كانت قد أنفقت وقتاً كبيراً قبلنا، بإسكات هواجسها المتصارعة على أمنها وسكيتها، التي ببوحها لنا، استرجعت بعضها:

«ما كان مني إلا أن أبعث له في اليوم التالي برسالة ففعلت، التي كان مضمونها، إن الذي حدث أخافني وكان شديد الوقع عليّ، ولا أعرف الهدف منه، ولا أعتقد أنه في إمكاني المرور به مرة أخرى».

«ماذا كان ردّه؟» أثب بالقول وكطفل صدّق الرواية التي لا يفتأ ينفیها عادة، مطالبة بتفاصيل تشبع فضولي وخيالي.

«لم يأتني ردّ منه كما انتظرت، وعندما غفوت ليلاً، حلمت بأنني في عربة مجهولة السائق، ونحن في طريقنا إلى بيت ألبرت، الذي حين أدركناه، لمحتة يقف على باب منزله مرتدياً سترة سميكة زيتية اللون، فدهمني حين جارف له، وددت أن أعانقه وأخفي رأسي في صدره، وما إن هممتُ بفتح باب العربة والعدو نحوه، حتى ألفت نفسي مستلقية على سريري. لم تكن إلا ارتعاشات بسيطة، حتى انفصل الجسم الآخر مني وأصبح معلقاً بسقف الغرفة، في إحدى زواياها، ينظر إلى جسدي المسجى على سريري، وكأنني كيانات، أحدها معلق بسقف الغرفة، شاهد على عالم، غير مشارك فيه، والآخر نائم على سريري. رأيت طفلة صغيرة بعدها، تجلس على سريري ذاته، تحيط بها أوراق جرائد كثيرة، يطيرها هواء عنيف بحركته وبعنفوانه، يطالني كما يطالها، ويهزني بقوة محاولاً اقتلاعي من مكاني بزاوية الغرفة. يتتابني خوف شديد، ويعلمو معه إحساسي بالتحدي الذي عليّ مواجهته، فأنكمش على جسمي الآخر، محاولة أن أتجاوز كل ما يعتريه. ما هي إلا

دقائق، حتى يهوي ويرجع إلى مكانه، ويستلقي في داخلي. كان وجهه هناك، يتابع كل شيء، يتسم ابتسامة الموقن بحدسه، العارف بهذا العالم وكل شعابه، ابتسامة تحبني حقًا، بلا شروط، تعدني بأنها ستستقبلني عند كل منعطف وتطلب مني فقط الاستسلام».

ثم تتابع أمام وجوم وجهينا أنا وليلي:

«وردًا على تساؤلك ليل، لا أعرف ما الذي يعنيه تمامًا برده، لكنني أحسست أنني مررت بهذه التجربة بمساعدته، كأنني كنت ألحق إرشاداته، وبأنه سمعني في المرة الثانية، وجعل تجربتي أقل خوفًا وألمًا كما طلبت منه، ومع خوفي الشديد خلاهما، تعرفت على بعد ما فيّ، لا كنه لي بوجوده، وبفضل ذلك أحس بأنني أقوى، إن كان ذلك يعني شيئًا!».

تلجم ليلي امتداد رقعة الوجوم على ملامحها وتقول بصوتها الواثق من إحساسه:

«هذا هو رأيي تمامًا. لا شك بأنه يريدك أن تكوني أقوى في مواجهة كل شيء في حياتك، موهبتك، قدراتك وعواطفك، وإن كانت هذه الحالات بدفع منه، فالغاية منها تقويتك وتكبير مساحة وعيك. عليك الثقة بحدسك، إن كنت تميلين إلى الاقتناع بأن هذا هو رده، فإنه كذلك».

تذهب فاتن بنظرها بعيدًا وتقول:

«هل تصدقان أنني ولأول مرة يوم أمس، أرى في أسنانه بقعًا صفراء، أين ذلك الوجه الملائكي الذي كنت أراه فيه؟ ما الذي تغيّر فيّ؟».

الفصل السابع

إكسير الموت والحياة

1

قمقم الحنين

حان وقت السفر، وهاجمتني مخاوفي من جديد. لقد اعتدت على الغربة في كل شيء، أصبح الغياب وطني، أتقنت دفن حنيني في قمقم خبأت فيه كل خيباتي، ورميت به في أعماق المحيطات، ويخيفني إحياء ذلك المارد مرة أخرى. أخاف من زيارة الشرق مع حنيني الجارف إلى كل بُعد فيه، أخشى أن تنفتح عليّ هواته من جهاته الأربع، وتغرقني داخلها، كما تعودت أن تفعل بي دومًا. تنصحني ليلي بأن أحتفي بعودتي إلى وطني وإلى أحبائي، ولتذهب كل التوقعات والتحليلات، إلى ذلك المحيط نفسه الذي دفنت في أعماقه كل شيء.

أما فاتن، فتذكرني بعدد المرات التي كان بها ألبرت يركز على أهمية

التوازن، ويكرر عليها كلمة التوالف، وفي الوقت الذي أخذته لفهم ذلك، فتتصحني بأن هذا هو تمامًا ما عليّ القيام به، وأنا هناك، المداومة على التأمل والتنفس العميق، البعد عن السلبية وعن أولئك الجالين لها، التركيز العالي على الحاضر.

هذه الحالة، التي تصفها لي فاتن، لحظتُ مرارًا بأني قبل أن أصلها، أو عندما أفقدها، يرافقني شعور بعدم الارتياح عند قيامي بكثير من الأشياء، شعور لا أعرف من أين جاء ولا كيف أتخلص منه، كأن هناك عدم اتساق بين أفعالي، أقوالي وإحساسي وبين ما يجب أن تكون عليه. يأتيني فأتساءل بعدها، لماذا وكيف، هذه ليست أنا! أنا أكبر بكثير من كل هذا. أحس بأني على الطريق، وما هي إلا خطوات قليلة، وأركب الموجة، ويسهل عليّ الإبحار.

هذه المشاعر ترافقني دومًا، شعور عام بالتيه، وبأني على شفا بضعة أنفاس من الخلاص، لكن العمر ضاع ولم أصل بعد! أحس بالخذلان، لأنني في طفولتي، وعدتُ نفسي بأني لن أخفق مرة أخرى، كنت متيقنة من أنني أخفقت للتو، أفهم الآن أنني فعلت، ربما في حياة سابقة، وأحدس بأنها كانت قرية. وكم ستكون خيبيتي عظيمة الآن!

2

أنتِ البهية

لم أنم ساعة واحدة ليلة سفري إلى دمشق، ففي الغد أنا بطريقي إليها، بعد غياب ثلاث سنوات. تحضرني كلمات كل الروايات التي وصفت رحلة عبور الفلسطيني إلى وطنه بعد عمر طويل، كان يمكنه ألا يكون طويلاً، وعلى هذا القدر من الوجد. يمثل الفلسطيني أمامي ويمسك بيدي، يشيح بوجهه بعيداً عني، لا أهون عليه، يداري دموعاً، كم ذرفناها معاً كل تلك السنوات التي مضت.

محطتنا الثانية في رحلتنا من تورونتو إلى دمشق، كانت على الخطوط السورية من مطار بيروت، فرحلات الطيران المباشر لدمشق توقفت منذ زمن ولم تعد إلى نشاطها إلا من بضعة مطارات عربية. كل شيء يبدو

طبيعياً، فالناس الذين يتقدمونني وزياد سوريون، كم أفتقد وجوههم البسيطة المرتبكة بعواطفها، أطفالهم يلبسون ثياباً تبدو جديدة، ويحملون حقائب براقه فرحين بابتداء صيفيتهم التي سيقضونها أخيراً في وطنهم. نقف في الصف ويجتازنا الجميع، كما تعودنا دوماً، دون التفاتة، فسرقة الدور لها شطارة غابت عنا عناصر احترامها. إذًا، كل شيء يبدو طبيعياً. أراقب وجوه الجميع، يبدو أنهم لم يتغيروا.

مساكين نحن، والله مساكين

بما نعتقد أننا نملكه مساكين

بحزننا... بغضبنا.. مساكين

بابتساماتنا الموزعة هنا وهناك، لسذاجتنا أو لطيفتنا، مساكين

بأحلامنا وبأفراحنا المؤجلة مساكين.

يعلن الكابتن هبوط الطائرة. ما هذا الذي ينتابني! هل هو الخوف من مواجهة ما أصبحت عليه مدينتي؟ أهدئ نفسي، أنا على بُعد خطوات من مدينتي الطيبة البسيطة، من مكاني العتيق، الذي لا يتغير ولا يمكن أن يصيبه العطب.

ها أنت تطلّين يا دمشق من الأفق، شاحبة، وكأن الحياة قد انتشلت منك، سماءك ساهمة لا لون فيها، لا تقوى أجرامها على تغيير قدرك، تقطعك على مدّ النظر، حواجز من سواتر رملية ومناصب أسلحة لا أفهم

بها، يغادر ك اللون الأخضر والماء. هرمت مائة عام وأكثر، أكاد لا أعرفك وأنت أُمي.

أتساءل: ألم يكن من الأجدي أن يكون هناك وفد دائم لاستقبال العائدين إلى الوطن؟

ألم يكن من الأجمل أن يمهلونا بعضًا من وقت، قبل التدافع في طابور جوازات لم يعد طويلًا، نركع فيه على الأرض ونقبل ترايبها، وربما بعدها نبكي مع بعضنا بعضًا، نتصافح أو نتعانق، نهني أنفسنا على عودتنا؟ ثمة غيرنا كثيرون من بلاد الله الواسعة، لم يحظوا بهكذا فرصة، بهكذا لحظة، لا يعرف قيمتها إلا من تمرّس مثلنا بالفقدان.

فليكن، أنادي، دمشق أنا قادمة، ولا يهمني ما سأراك عليه.

أنت البهيّة، عانقيني، عانقيني فقط، وقولي لي إن كل شيء على ما يرام.

3

الموت هنا عيناه خضراوان

طالما أتاني وجه خالتي الجميل المبتسم وعيناها الخضراوان الساحرتان
في وجه كل امرأة عجوز أنيقة، متوهجة العينين، تمر بي في كل مكان بالبلد
الآمن البارد الذي أقطنه الآن، فوددتُ لو أعانقها وأبكي على صدرها.
كان يمكن لخالتي عائدة أن تكون هناك - كل مكان خارج سوريا هو
هناك - أن تجد من يرعى شيخوختها، يتابع صحتها النفسية كما الجسدية،
يؤمن لها من يقللها أينما ترغب، يضمن لها ادخارًا كافيًا لعيش يليق بها، يجد
لها استثناء كيفما تلفتت فيهون عليها وحدثها وضعفها.

مذهلة تلك القدرات الدفاعية التي يقوم بها المرء لحماية عقله وقلبه.
أنا حية الآن، وفي أقصى درجات الحياة وفي جزء مني ميتة، رُوحي

تنتحب، جسدي ينتقل من مكان إلى آخر، وإن كنت أحسه ساكنًا بمستوى
سبات الدب القطبي..

كيف تركتك تموتين؟ كيف لم أقف في وجه كل شيء يحدث لك ولنا؟
ما الذي كان سيخرجني من نفسي ويرمي بي في غياهب نفسي الأخرى،
ويدفعني إلى الانتحاب اللانهائي! ما الذي كان سيجبرني على الصحو من
سُبات لا أذكر متى أصبت به!

هذه السيدة العجوز ليست أنت! هذا ليس وجهك ولا هذا شعرك المصفف
دائمًا بأنامل مسيو إيلي الحلاق - فالجميع عندك لهم ألقابهم وقدرهم - ليس
هذا هندامك ولا تلك اليدان الغريبتان يداك، أين أظافرك المشدبة والمطلية
باللون البيج المزهر، ليست هذه السيقان المتورمة البنفسجية سيقانك ولا
تلك الكلمات الحائرة بمحتواها كلماتك، وحده حجر عينيك الأخضر
المتقد هو ما بقي منك، وإن كانت نظراتك ساهمة ومضطربة...

لا تتعرفين إليّ، وهمك ينصبّ على أمني ينتقدها على تقصيرها بزيارتك،
وأمي تراجع مع إخوتها احتماليات ما أصابك..

خذلتك، لم أقف في وجه أحد، لم أمسح وجهك بالكحول والطور،
كما كنت تفعلين في طفولتي، لم أعانقك وأجلس معك لساعات على كنبه
بلكونه غرفة نومك، لأقص عليك الحكايات التي لا تنتهي وتبعثرها نسمات
الجنة تلك.

أنتم المسافرين، الهائمون في كل مكان في أراضي الله الواسعة، هل
ترطبت قلوبكم بنسائم كتلك التي تداعبكم في الشام؟

لم آخذ بيدك وأمشي معك في الشام القديمة لساعات، لا نعرف فيها إلا
الابتسام وإلقاء التحية على الباعة والأصحاب. لم آخذك إلى دامر بالصاحية
وأطعمك فريز بالكريم شونتيه أو شوكولامو، لم أشتري لك وردة جورية
من المحل الذي يليه بخطوات.. لم أنتظرك على باب الشركة الفرنسية
التي تعملين بها بعد دوامك، لأرافقك إلى مطعم الطابق الأرضي لفندق
أمية المثل على الشارع، لتتناول الهمبورغر والبطاطا بصوص البروفنسال
الشهية، لم أمش معك لساعات بسوق الصاحية لنقدم فروض الولاء لكل
الخواتم الذين تبتاعين منهم حاجياتك وهداياك، لم نوزع عليهم السكاكر
وحبات الشوكولا التي تطفر بها حقيبتك. لم نمض يوم الأحد مع صديقة
طفولتك الأثيرة في بيتها في القصاع، وتناول ما أعدته لنا من ضيافات
موسمية يلتزم بإعدادها سكان مدينتنا.

زرتك ولم أكن حقيقة هناك، رفضت كل شيء، أشحتُ بوجهي عن
وجهك البائس وصممتُ أذني عن استقبال دويّ القذائف وهدير الطائرات
المباغت وأصوات أخرى لا خبرة لي بها، وعدوت إلى غرفتك الكبيرة التي
لمتتنا كلنا في يوم بعيد، إلى الشباك الكبير المطل على حيناً، فوجدته مغلقاً هو
وأباجوره، فاستجرت بباب البلكونة، شرّعته وطللت على شارعنا المقفر
بغربته وحزنه، بحثت عينايا عن كنبتنا الكهلة مترهلة الأطراف، عن مئذنة

المسجد الصغير خلفها، باب شرقي بنهاية الطريق، سطوح بيت الجيران بمواجهنا، عن وجه أي أحد منهم يطل عليّ من أيامنا الغابرة.

لماذا يبدو كل شيء أصغر بكثير مما تحتزنه ذاكرتي وأشقى!

هرعت إلى خزانتي، أودّ أن أنظر إلى نفسي في مرآتها الغائمة الطويلة المثبتة على أحد أبوابها، فلربما أيضًا التقيتُ بك في عصور مضت تضعين طبقات من الماسكارا وتقوسين رموشك وتتجلجلين ضحكًا على كلامي قبل ذهابك إلى وظيفتك، حملت في مياهما ولم أر انعكاسًا إلا لخوف غائر يهيني التعرف على أعماقه، وملامح يرعبي هرمها المباغت. وددت لو ألوذ إلى فساتينك، آوي على حقائبك، على أحذيتك، لو تلفني لفحاتك الحريـر، فتحت خزانة ثيابك ولم أجد شيئًا! مكاني السحري، الذي قضيت الساعات في داخله وأنا طفلة، مفرصة على أرضيته، أقلب الفساتين وأتلمس الأقمشة وأتعلم أول دروب الأناقة والجمال، أين ذهب كل شيء؟

امتدت إليه يد من كان عليها مساعدتكم، من جيء بها من أجلكم، من ائتمناها على طبيبتكم ولطفكم وكرمكم، هي نفسها اليد التي تلعب بقدر هذا الوطن، وتبرر كل ما تقوم به، وتجد له غاية نبيلة!

لم أصفع وجه ذلك الطبيب الذي جاء يداويك ولم يفعل، وجاء في اليوم التالي ليوقع ورقة وفاتك بوجه بارد لا يحس بحجم الخسارة ولا بتأنيب الضمير.

لمَ فررتُ ولم أقف على سرير منيَّكِ أقرأ عليكِ آيات ترافقك في رحلتكِ
الأزلية، لم أنصت إليكِ تنادين على أمكِ وأبيكِ وأخيكِ، تناجيهم وتعيدهم
باللقاء القريب، لم أمسك بيديك الطاهرتين.

أتلافي وداعكِ وأترككِ كما تركتِ الشام وتحلى عنك الجميع..

من عاد يحسب للموت حسابًا في هذه الأرض المنسية؟

أين أصدقاؤكِ الكثير، أين غيبتهم الأيام والأقدار الظلمة، التهوا عن
حزنكِ ووحدتكِ بحزنهم، أين هم في مجلس عزائكِ إذا، أغيبهم الموت
أيضًا أم الرحيل القسري، أم جحودهم بأيامكم معًا؟

أين جوزيف صيدلي الحي أو حكيمة، ذلك الرجل الذي رافقنا أربعين
عامًا وأكثر، وكان للمرض بالمرصاد كلما طرق بابنا؟ أستنجد به، أذكرهم
به فيرد عليّ قدر من البؤس، يهابه البؤس نفسه، بتّ أستقبله بكل وجه في
بلدي، قتلوه هكذا بدم بارد، برصاصة اخترقت جنبه، وهو يقف خلف
طاولته ممسكًا وصفة دوائية، هامًا بإحضار محتوياتها لبائس آخر غافله
الموت ليوم آخر ووضعه على منصة المشاهد لهذه المرة أيضًا! هناك من أخبر
الآخرين عن جرم جوزيف، أولئك الذين جاءوا يخرجوننا من الظلمات
إلى النور!

قتلوا مغيثك الوحيد، فهم لا يكفون عن ملاحقة صور للمسيح على
مساحات وطن كانت في زمن بعيد لا تعرف غيره.

هكذا إذا يموت الكبار في بلدي، قامات تهوي من علو، تحدث دويًا
مزلزلاً، لكن داخل كيانات، غدت في هذه الحرب القذرة، من ورق!

الطريقة المثلى للتنبؤ بالمستقبل هي اختلاقه

أقف عند باب مكانه، بذاكرة فارغة تمامًا من ماضي جمعنا ومن حاضر يضم ثرى طرياً لم تجفّ دموعه بعد، بقلب لا يعرف سوى حبه هو وحده، وبوجه بريء، صافٍ، لم يكن في يوم أجمل من هذا اليوم، تنتظر كل تقاطيعه حضوره. لست بحاجة أن أنبئه بموعدي معه، أعلم أنه ينتظرنى، وبأنني مستعدة لأن أكون له. إنه يوم مشمس، تداعب نسائم دمشق أرجاءه، نسائم لا تحس بها بأي مكان على وجه الأرض، اصطفانا بها الله وحدنا، تعويضاً عما لا تفتأ الأيام من ادخاره لنا. يطلّ من نافذة مكتبه فيلقاني أقف على الشارع أسفلها، تعانقني ابتسامة ثغره التي كم تعرفني وتودني، يومئ إليّ بيده أن أرفع إليه، فأرد عليه بيدي أن ينزل إليّ. أخيراً يقف مقابلاً لي،

ينظر في عينيّ، يتجّول في دواخلي وبأكثر من ذلك فيّ، هي لحظة لا أدري أين ومتى عشتها معه، لحظة تبتدئ دائماً بوقوفنا مقابل بعضنا وعيوننا مسمرة على حضورنا. لا أفاجأ بأن اللون الأبيض كان يجمعنا، وبأني منذ التقيت عينيه، شيء بداخلي امتلأ وهذا. لم يتغير فيه شيء كأن الزمن غافل عنه، وهو ما أكده لي حين تفحصتني عيناه من رأسي إلى أخمص قدميّ. لم يسألني عن وجهتنا، أمسك يدي، كطفلته التي يخاف عليها أن تتوه دونه، وقبض معها على قدرتي، الذي يمكنه من الآن أن يكتبه كيفما يشاء. نستقل سيارته، ودون أن نقول شيئاً، نتجه صوب الشام القديمة، مكاننا الذي طالما على جمر انتظرنا، كأنه ما كان إلا لي وله، فكما خبرت المشاعر جنتها بالحب، فللأرض كذلك حظها من الجنة، تحبّه في حارات دمشق القديمة. كان يقود عربته بيد واحدة، وذراعه الأخرى ممدودة بطولها نحوي، تعانق ذراعي ولا تكتفي بيدي. لم أذكر له كم أحببت عناق أذرعنا، وكيف كان وقع حسها داخلي. يأخذني إلى سوق باب سريجة القديم، المستمد اسمه من أحد أبواب دمشق السبع، الذي كثيراً ما وعدني بزيارته، نمشي به لساعات، لا أعرف فيها كيف ألملم كل الفراشات، النجمات والشموس التي تتدحرج نحوي من كل مكان، من عينيه، لعيني المارة والباعة، أهلي الذين أتناغم معهم انتمائي، ملاحني ولكنتي، دواعي فرحي ويأسي. كم أود لو أعانقهم وأبكي لافتقادي لهم، لحزني على جرحنا، الذي كم أمسى غائراً، للمحلات ومقننياتها التي أعشق، والتي لكل منها حكاية تكتبني،

من أول إلى آخر عمري، للروائح العبقة التي تتسرب لأبعد من خلايا أنفي ومسام جلدي بكثير، لحجارة الطريق البازلتي السوداء، وصوت خطواتنا عليها، لسقوف بعض الحارات المهترئة، لنداءات الباعة وجلبة تفاوضاتهم، لصوت إمام الجامع الأموي ينادي على الصلاة، وأجراس الكنائس تنبئ بالقداس أو بالجنائز، لحضورنا الأسر معاً. كلما اخترقت السماء قذائف الحقد والموت، كتمتها غيوم الحب الكثيفة الممتدة فوق المدينة القديمة بأسرها. كنا والهائمون معنا في دروب مدينتنا العتيقة، ننازل الموت، ونخلق رغباً عنه الحياة في كل لحظة.

كم تذوقنا من أطعمة في مشوارنا وما شبعنا، وكم شربنا من عصائر ومن مياه نبع الفيحة الباردة، وما ارتوينا. يدعوني إلى مطعم شعبي هناك، يشتهر بفطائره وحلوياته الطازجة، لا أذكر أنني استمتعت بمذاق أي طعام مثله منذ زمن بعيد. يطلب لي صفيحة باللحمة والصنوبر بدبس الرمان على الطريقة الدمشقية، وكبة مشوية ومقلية مع طبق المحمرة الحديق بالجوز، ويتبعها بحلويات الوربات بالقشطة، ويصر بتلقيمي الطعام بيديه، وسؤالي عن انطباعي عن طعم كل ما أذوقه، ولا يزمع لإعلاني عن رغبتي بالتوقف عن الطعام في كل مرة أقسم له فيها بامتلائي.

لا نتكلم كثيراً على غير عادتنا، ونكتفي ببوح العيون، التي لا نعرف كيف نداري أشواقها وبلمسات مسروقة يعلم جيداً كيف يأخذها بغياب نظرات ناسنا الفضوليين. يستأذني تميم بالذهاب لإجراء مكالمات ضرورية

مع أحد زبائنه، وأمضي الوقت متفحّصة ما اشتريناه من أغراض صغيرة، ما استطعنا مقاومة نداءاتها على طول طريقنا. يعود بعد مدة وجيزة وابتسامة تضيء وجهه، وعندما أسأله، يطلب مني أن نغادر المكان، وبأن هناك مفاجأة بانتظاري. نمشي، يقود دربنا ظلام وسكون، ووله لا يطيق الانحباس داخلنا. أتلّهِف التعرف على مفاجأته، وبذات الألوان لا أود لليوم أن ينتهي أو للطريق أن يتوقف. بعد مرورنا ببضعة دروب عتيقة وممرات ضيقة وملتوية، ندرك حارة هادئة، تلوح بمنتصفها انعكاسات أضواء تنير لافتة صغيرة، «تليسمان - دار السلام»، ويخرج من نوافذ حولها، صوت غناء بعيد. أحُدس بأننا وصلنا وجهتنا، فتتسارع ضربات قلبي فرحًا ووجلًا مما قد يتظرني خلف الباب الصغير أسفلها. ينقر تميم باليد النحاسية المثبتة على الباب الخشبي القديم عدة نقرات، لحظات ويفتح لنا الباب رجل يلبس رداءً طويلًا من قمّاش الصايا الدمشقي، يشده قمّاش البروكار من وسطه، ويعتمر طربوشًا، يرحب بتميم كأنه يعرفه، ويفسح لنا الطريق إلى الداخل، ليظهر أمامنا بيت عربي قديم، مرّم بحرفية تراعي تاريخه مع بضع لمسات عصرية، تتوسطه بحرة مربعة كبيرة من الحجر، يُسمع خرير مياهها الخارجة من نافورة تتمركزها، عاليًا، يقطعه ويتحد معه، ذلك الصوت لغناء قديم لم أتعرف عليه. تحيط أبواب غرف كثيرة بساحة البيت، التي تتصّدرها صالة مسقوفة ومفتوحة، يفرشها طقم شرقي قديم فيما تغمر سقفها الرسوم النباتية الملونة وتؤطره كلمات مذهبة ونافرة لقصائد مأثورة، في غمرة دهشتي بجمال وحميمية المكان، لم أنتبه إلى تميم، يتجه

لأحد الأبواب، يخرج مفتاحًا من جيبه ويديره بقفله، يستدعيني، فأذهب نحوه، أجتاز العتبة فيقفله خلفي. أنظر حولي بذهول، ويتنابني شعور أنني ألف هذه الغرفة، وأنه سبق لي أن عشت فيها. تفاصيل كثيرة في المكان، أعرف أنني انتقيتها بنفسي في زمن مضى، وأنه في زاوية ما، هناك مذياع قديم، يتكئ على رف خشبي، ما إن تذكرته، حتى أرى تميم يتجه نحو زر كهربائي، يديره، فتطلق موسيقى عزف على العود، ألحق مصدرها، فأجد رفًا عاليًا، بزاوية مواربة، وأرى ذاك المذياع يباء لا يزال قابعًا عليه. يجذبني عندها من ذراعي بقوة حتى أصبح في مواجهة كتفيه العريضين، يمرر يده على شعري، وجهي ثم شفتي، ثم يثبت نظره في عيني. كيف نسيت جاملهما وضعفي أمام تلك الكسرة بنهايتهما؟

بدأت يومي باستسلام لذيذ حتى هذه اللحظة، التي عندها تجاوزت كل الكلمات، والتعريفات والحالات، أصبحت اللحظة وما وراءها وما أمامها، يغيب الزمن، ويضيع المكان، لم يعد هناك أي شيء، إلا أنا وهو وكل ذلك الضياء المنبعث منا للفراغ. لا أعرف كيف أسترجع كل الذي حدث بيننا، كيف كانت قبلاتنا، لمساتنا، رقص جسدينا، سهيل خيولنا، كيف كان تلاحمنا، أم إن جسدينا لم يحتاجا أن يتلامسا حقًا؟ وأن الذي اشتعل بيننا تحطى جسدينا وغيّر بكيמיاء وجودنا، ودام ودام...

وأنا أمسك بيده وييد مدينتي، يتلاشى خوف الرحيل والفقدان، وأتعلم كيف أتصادق معها أخيرًا.

5

بين الحلم والعلم

كم أتوق لأن أكون في فسحة من الزمان، أحيا منمنمات فيه أدرك بأنها أكثر حقيقة من أي واقع عشته في يوم آخر عادي. في مرات، تزايد عددها مؤخراً، حين أمشي في الشوارع عائدة إلى منزلي، أبتسم بوجه السماء، أسخر معها من كل أمر، أترك كل شيء حدث خلفي كأنه ما كان، وكلي يقين بأنني أستوعب اللعبة، وأنظر إلى الحياة من علو وهي تحدث الآن، كأن علي أن أحضرها، أشهدها ولا أتورط بها، آخذ منها ما أريد وأرحل عنها وأعود إلى نفسي، أعانقها أقبلها وأحتفي معها بكل الحب الغافي حولنا.

عدت من مدينة الياسمين أحمل شيئاً من عبقها في مسامي، تغطي وجهي

ابتسامة من كَمَدَ حنينه بعد طول انتظار، وبريق في عيني لا يشيب ولا تقوى عليه كل قوى الظلام. ارتديت فستانًا طويلًا من اللينين القطني، تزين قبته وأكمامه تطريزات شرقية ذات ألوان براقة. ربما وددتُ أن أبدو وكأني أميرة سورية أطلت من التاريخ على مكان اجتماعنا الأول، لأحكي لصديقتي حكايات عن أرضي الجريحة، لأمسك بأيديهما لبرهة من الزمن قبل أن أعود من حيث جئت. هكذا حال النازحين عن الوطن، يرحلون عنه ولا يرحلون، يتركون طيفاً منهم هناك أو ربما أكثر، ويأتون كأنهم تخلوا عن لون من ألوانهم أو عبق من عبيرهم أو حزم من نور أرواحهم.

تلتفت فاتن إليّ وتبادرني بالسؤال:

«تُرى هل كان هذا الإكسير من الموت والحياة معاً، الذي خبرته مع تميم بمشواركما، هو ما حاول ألبرت أن يفتح وعيي عليه، بإرساله إشارة الموت لي في أحلامي؟».

أما ليلى فتقول:

«أنا متأكدة من أن الطرقات التي مشيتما فيها، أعدتما لها شيئاً من بريق سُرَق منها، وأن المارة ناههم من نوركما حظاً أيضاً».

أرخي جفني، وبعد مُضي لحظات سكون لا يتخلى عن خبيته أقول: «كم أتمنى ذلك ليل»، ثم ألتفت نحو فاتن، أرحل بعيداً وأعود إليها: «ربما فاتن، سيتكشف لنا الموت بأثواب عدة على ما يبدو لكن فكري معي قليلاً،

ما الفرق قولي لي، بين أحلامك بالكبرت ووقوفه أمامك في اليوم الذي يليه؟ ما الذي يختلف بنبضات قلبك حين يحيا أي منهما؟ هل يهزأ قلبك من الحلم فلا يرتعش ويتنفّض كعاداته؟ هل يدرك قلبك الفرق بين الحلم وبين الصحو؟ هل يعنيه الزمن؟». أغمض عينيّ بأساً وأقول بصوت هادئ وبعيد: «نحن نحيا أحلامنا كواقع آخر لنا. صدّقنا تراها! أعلم أنكم أقرب من سيلتقي معي عندها، وأرجأ مناقشتي بها، وإن لليوم فقط!».

أمام وجومهما أسارع بالقول قبل أن تداهم رأسيهما الأسئلة وأتابع:

«ماذا سأنقل إليكما أيضًا؟ هناك الكثير من التفاصيل التي يمكنني ألا أشبع من التوغل فيها والتوقف عندها، لكن زبدة تجربتي كانت بأنني ولأول مرة بتاريخي السوري كله، أرى توحداً شعورياً شعبياً، تحدى الخلاف والغضب والخوف، أينما ذهبنا وأينما حللت، شعور حقيقي وملمس، كأنه جملة مرددة في مظاهرة، هو حالة من الحب اللانهائي للبلد، والجرح المفتوح على مصراعيه بمواجهة مأساتها، الكل متفق على أن الموت يمكن أن يدركك أو يدرك أحبابك بأي مكان، بفراشك، بفراشهم، بأي شارع تمشي أو يمشون فيه، فبتنا نخرج كل يوم من أوكارنا ولا نبالي به. معظمنا يستبدل خيار الحفاظ على حياته بالرحيل عن الشام، ليختار الموت على أرضها، وهو يمسك بيد معشوقته ولا يتركها تموت وحدها، ويرى في كل زاوية من زوايا مدينته، مكاناً أعد خصيصاً له، ليموت أو لتكتب له حياة جديدة فيه، وطنه جنته وناره، ولا يستبدله بمغريات الدنيا مجتمعة.

هي حفلة جماعية صاخبة، نبكي فيها كلنا، ننتحب ونفهم على بعضنا ضمينا. كل ظلم يحدث في وطني، يأخذ مني شيئا، يطير قسرا بعضا من الأوراق التي أجهد بتغطية خوفي وجبني بها، هو لا يحدث للآخر فقط، هو يحدث في جزء منه لنا كلنا أيضا، لذلك في زيارتي الأخيرة تلك، تخلصت من عقدة أنني تركت وطني يعاني وحده أخيرا، بأن دمي وحياتي أغلى عليّ من دم وحياة كل من يعيش فيه، هناك شفاء بالإحساس بأنك هناك، حتى وإن كنت حقيقة لا تفعل شيئا».

«إنها تحدث لنا نحن أيضا، وللناس أجمعين على المستوى العام، لقد أثر هذا بالملاءة الروحية التي تغطي الجميع، التي لم تعد تغطيهم فعلا، ملأتها الثقوب بعد حربكم، لا يمكن لكل هذا الجرم ألا يؤثر بالوعي الإنساني كله. كلنا مسؤولون، وضحايا في ذات الوقت، هي حرب يشترك فيها الجميع، وعلينا أن نكون شموعا، على أقل تقدير، في مواجهة كل هذا الظلام» تقول ليلى بانفعال.

ترد فاتن:

«هذه الكارثة مصيرية للجميع، ولدي قناعة بأن ردّ فعل كل منا نحوها سيحدد ما ستكون عليه حيواتنا المقبلة، صدّقيني مي».

ألفت نحو فاتن وأرمقها بنظرات تعرفها جيدا، لا أحتاج معها لأن أسألها عن لحظة الوداع، فتبتسم بعد أن تبلل شفثيها وتبلع ريقها قائلة:

«لقد نجوتُ مي، كنت أكثر قوة، لم يكن بكائي عظيمًا كالمرّة السابقة، مع أن الألم كاد يمزقني، كانت مشاعري متأججة، ولا أعرف أين أذهب بها، ولا كيف أخفيها، أحسست أن الحب يفيض مني، بأنه كثيف وكفي شارعًا، أو ربما مدينة بأكملها، يود أن يتبدّى بأي شكل اختاره له».

«كأن الذي بينك وبين آلبرت، خلُق ليفيض ويغرق كل الذين حولكما، لم يُخلَق ليكون محصورًا بينكما، هو يريد لك أن تكوني منارة للحب الذي يجبله فيك، وكلما كان عطاؤك أكبر، كلما أغرقك هو بالمزيد.» تقول ليلي بصوت عال، وتلمع عيناها من ثقتها بقولها. تشدُّ شعرها بقوة إلى الخلف وتعيد بعثرته يمينًا ويسارًا، ثم تمسك بكشف فاتن وبصوت هادئ هذه المرة تتابع «عيني فاتن، هذا هو درسه الكبير لك، وحين تسيئين الفهم، سيأتي يوم، ويموت الحب خنقًا داخلكما».

تضع فاتن يدها على يد ليلي المتوسدة كتفها، تلمع عيناها وتقول «تمامًا، هذا الذي وصلتُ إليه، وكأن هناك حزمة من ضياء تجمعنا، تبتدئ من مكان عنده، وتنتهي في مكان ما في داخلي، أحملها معي أينما ذهبت، تسكنني ويمكنني الركون إليها». ثم تنهّد قليلًا إلى أن تتغير ملامحها فجأة، وتبدو كأنها على شفا مفاجئنا مرة أخرى كما تعودنا منها: «هل تذكر ا صديقتي، أنني كنت قد ترددت، وأخبرتكما بذلك حينها، بطلب شرب القهوة معه في اليوم الأخير بعد انتهاء رحلتنا إلى المتحف المعدة لطلاب الفصل جميعهم مسبقًا، وسؤاله مباشرة عما يحدث بيننا من أعاجيب، لتعذر فرصة انفرادي

معه في الرسم؟» تتجه فاتن بنظرها نحو ليلي قائلة: «كيف أنك شجعتني على السؤال؟»، ثم تشير إليّ بيدها وتقول: «وكيف نهرتني أنت عنه؟».

يعلن وجهانا أنا وليلي إذعاننا لذاكرتنا التي لا تنسى تفصيلاً يتعلق بها وبأستاذها، ثم نبسم ابتسامات قصيرة نستعجلها بها لإكمال ما حدث، فتستطرد بتهكم: «على فكرة دخل علينا الفصل يومها بسترته الزيتية التي رأيته بها في الحلم الذي ذهبت فيه إلى بيته لأعانه، أذكران؟».

أصرخ بانفعال: «ارتداها ليذكرك بمسافتك الحقيقية منه؟ لا أصدق!».

«تمهلي مي، القادم أعظم. قال ألبرت في نهاية اليوم: «لقد اقتربنا من مرحلة أخذ القرارات الحاسمة!» فاستوعب بأنه يسألني أن أتخذ قرار الحاسم بالخروج معه، فأعزم على تنفيذ خطتي، تتسارع دقات قلبي، وتتدافق كلمات يفاضل بينها فكري، هائمة بتخيّل وقوفي أمامه بالمتحف ورمي سؤالي بوجهه، فأستفيق من تخيلاتي على صوته يعلن ببساطة شديدة إلغاءه زيارة المتحف فيقطع عليّ كل الطرق! لقد ألغى ألبرت زيارتنا إلى المتحف برمتها! هل تصدقان ذلك؟ حرم فصلاً كاملاً من الزيارة، كي لا أطلب منه شرب القهوة معه على انفراد وسؤاله مباشرة عما يحدث بيننا؟ أي مجون هذا الذي يمارسه عليّ؟».

أضحك بصوت عالٍ، وتتبعني ليلي، فيما تتأخر فاتن عن اللحاق بنا، والضحك على نفسها معنا.

6

عتبة مكانه

أذهب إلى مكانه، أقف على الشارع الآخر المواجه لمدخل بنايته وأرُقُب نافذة مكتبه، أنتظر أن يطل عليّ منها، مع أنه لا يعلم بأنني وصلت، وبأن قدمي وجدتتا خطواتهما أخيرًا.

هل كان هذا طيفه الذي لاح خلف الزجاج، أم قبس من نوره؟ سأصعد إليه، فلم أعد أطيع الانتظار. تذكرتُ كل الأيام التي كانت المسافات تمتد كلما اقتربت من مكانه، الزمن الذي كان يختلط بدقات قلبي ويتلثم هو الآخر، قدمي اللتين كانتا تلتهمان درجات السلم، ساخرتين من قلة حيلتي. عاد الزمن بي في لحظة كأنني ما تركت عتبة مكانه يومًا،

سأدفع الباب حالاً وأكتب قدرتي بيدي. تتسارع ضربات قلبي ويعلو ضجيجها، لا أستمع لنداءاتها وأدخل مكانه، يطلبون مني الانتظار، كأنهم لا يعرفون أنني بددت منه دهرًا، فأنتظر إلى أن تستقبلني هالته، تنتصب أمامي فتختفي خلفها تفاصيله ولهفتي، نتعانق عناقًا مخطوفًا ولا ينظر بعيني. لا أذكر كلماتنا ولا ترددنا بها، جسدانا كما كلماتنا، يتحركان في مكان يضيق ولا يلتقيان. أقترح عليه أن نذهب إلى الشام القديمة، مشوارنا الذي طال انتظاره لنا، فتكون حرارة الصيف حجته بالتهرب منه. يستبقيني إلى أن نغدو وحيدين. يجلس خلف مكتبه وأقبع مقابلة له على مقعد الزائرين. يغادر مجلسه ويقف مقابلًا لي ثم يركع على قدميه قريبًا مني، وشعور غريب يقف بيننا، كائن أعرفه وكم أبغضه، لا يقبلني ويلقي بيده على ساقي ويتركها تتلمس طريقها، أنهره وأمسك بيده وأقطع عليها رحلتها، يغضب ويتمتم بكلمات لا أسمعها. رجعنا إلى تلك الكلمات التي فشلت في يوم أن تجمعنا، يبعرها بيننا ولا يحملها إلا غضبه وتململه، يتكئ على المكتب بجواره بعد أن يجلس على المقعد مقابلي، ويجبر كلامًا متكاسلًا بإكمال تجواله بيننا إلى أن يهدأ استعدادًا لجولته المقبلة، فيعود ويقترّب مني، يجبرني على الوقوف ثم يشدني إليه، متلهّفة أترقب عودة اتصالنا وتوالف موجاتنا، فينهى يديه أن تتلمسا بشرتي على مهلهما، يحرم حضوره أن يشتمني، يمنع شفثيه أن تعيدا اكتشافي، ثم يرفعني بقوة زنده، ويجبرني على الجلوس فوق طاولة مكتبه. يرفع ثوبي، ينزل عنوة لباسي، يباعد بين ساقي، ويقف بقامته المديدة بينها فتحتبس الكلمات داخلي، فيما يعلن جسدي ببضع انتفاضات عصيانه. لديّ

وهلة كي أتخذ قرارى، فإما أن أنصاع إلى حزنه أو أهرب منه بلا رجعة بعد الآن، فأوثر أن أستسلم لشوقي. أنتظر شفتيه مرة أخيرة، لمساته البطيئة التي أوقن في مكان ما من نفسي بأنها تعرف كيف تُخرج الثعابين من وكرها، غياب جسده وجسدي، وحضورنا الحقيقي معًا، فلا تحضر إلا الرغبة ونداءات الجسد الخائبة التي تعود به إلى أكثر أركانها عزلة.

ياه! ما أكبر حزنه، وما أشد كرهه لنفسه، لم يكن يريدني أن أقرب، يخاف من حبي الكبير له، كما يهاب أن يسمع ما يقوله صمتي، كان ينوي أن يحمد أنفاس اللحظة ولا يعيشها، كي لا أكتشف حقيقة كل ذلك الذي مرّ عليه، كي لا أرى ما آل إليه كيانه، وما بقي منه حيًا.

كنت أتوق أن أحييه، ولم يكن يريد إلا أن يميتنا، ورضيت في النهاية أن يكون ذلك على الأقل، معًا.....

الفصل الثامن

كل شيء ينبض بالحياة

1

دهشة بجوار خيبة

ما أجمل صيف مدينة تورونتو وما أقصره، تفكر ليلي بينها وبين نفسها وهي تنتظر قدومنا، ونسمات المدينة الباردة تداعب شعرها وبشرتها، مجبرة عينيها على الارتخاء وعقلها على الهدوء. تتدافع صور كثيرة في رأسها، وهي على وشك أن نخبرنا عن رحلتها هذا الصيف، لم يتسنَّ لها الوقت باسترجاعها في فوضى مدينة كبداد، فسكون هذه المدينة يرحب بالتأمل أينما ووقتما أتى، كما لمرآتها فيه أيضًا انعكاساتها التي لا تكذب كما تفعل مرايا وطن مشغول بلملمة جراحات وانكسارات له على مدى زمن يطاول الأزل ولم يعد يحفل بأي حقيقة.

تعيد على مخيلتها تلك الليلة التي دخلت فيها إلى شقة بسيطة في منطقة آمنة بالمدينة، تقف في وسطها ولا ترى حقاً شيئاً فيها، كما لا تسأل هاشم شيئاً عنها، كل ما كانت تتوق إليه هو عناقه، وليحدث بعدها بالكون ما يحدث. ما إن يُقفل الباب خلفها، وتحتل دقات قلبها سمعها، حتى يجذبها نحوه ويعانقها، يشد عليها حتى تخاله يعتصرها، يهبها وجوده معها راحة افتقدتها كل هذه السنين، تجبرها على الاستسلام، تجعلها تتقبل نفسها ربما لأول مرة بوجود ما عرفته منها من قبل. هل لما تراه بنفسها اليوم علاقة به، أم إنه سلام ينبع من داخلها وحدها ولا دخل له به؟ تحلم بأن يجبها وحدها وينسى أمر الجميع، بأن يراها أجمل النساء، ويتغزل بجمالها وأنوئتها ليل نهار. فعلى القدر الذي تحبه به، تتوق لإبهاره، لجعله يتعلق بها. تودّ لو تنسيه ماضيه ومستقبله، لو تُمسك بأيامه بيديها وتديرها كيفما تشاء. ترغب أن تراه يصحو على صوتها وينام عليه، يُمطرها باهتمامه على الدوام، ولا يكف عنها مهما اعترض يومه من مفاجآت أو مهام.

تباغته ليلتها بعفويتها وبحبها للحياة والمرح، وتستأنس باستسلامه وتبادلها معها الضحك واللعب. كل ما يصدر عنه مفعماً بالرجولة والجاذبية، وتتعرف ليلي على جانبه المهورس بالنظافة والترتيب. يبعد وجهه قليلاً عن وجهها، وتبحث عيناه عن شفيتها، يشرع بتقيلها على مهله، فتستعجله وتلتهم شفيتها، مذهولاً يتبع انفعالاتها ومتطلباتها المقبلة كأنها من وقتها قيّدت معصمه بقيد حديدي وجذبه منه، إنها حاضرة بكل كيائها من أجله،

تجلبه إلى منطقتها ولا تدعه يغيب، تتركه يسجل كل دقيقة لها معه.

تقول ليل: «ماذا أقول بعيني المبطنتين، بشفتيه الرقيقتين اللتين لا تتنازلان عن السيجارة تحت أي ظرف، بقبضته التي تعرف كيف تُجبر القدر أن يدير له، أم بقامته التي تضفي على هندامه أناقة وتفردا لم أرهما على أحد! أما قبلاتنا فيمكنني أن أحكي عنها للصباح، وأسترجعها كمراهقة اكتشفت للتو طعمها، كل ما رافقها كان بانسيابية راقصين لا يهملها إتقانها للرقص، قدر استمتاعها باللحن وبحرية أجسادها باللاحاق به».

تدرك في طريق عودتها، وهو يقلُّها بسيارته، بأنها سيذكران تلك الليلة لزم من طويل. تنام ليلتها ملء عينيها، ولا تفكر في شيء. فلقد كان لها ما اشتته منه. إنه يحبها، وسيتعلق بها بعد هذه الليلة التي سيكون لها مثلها الكثير من الليالي.

في الصباح، تتخوّف ليلي من احتمالية مفاجأته من اندفاعها، وعدم توقعه لكل ما خرج عنها. هو زير النساء الشهير يقف أمامها كالمأخوذ الذي لا يملك من أمره شيئاً. تراها بهرته أم خذلته! تتساءل ليل أمامنا؛ إن كانت قد رأت في عيني خيبة تركز بجوار دهشته.

يمر يوم ثم يومان ولا يتصل، ثم أسبوع ولا تبقى لها إلا أيام ببغداد وترحل عنها، فيتصل متعذراً بالعمل وبمرض أمه ثم أبيه، إلى أن يتفقا في النهاية على الالتقاء في مقهى، ينتصف الطريق بينهما، فيلتقيان كصديقين

قديمين ما غيّرهما مجون تلك الليلة، ثم يتعانقان في السيارة قبل أن تصل
إلى المكان الذي ينتظرها فيه السائق، يقبلها بوداعةٍ على خدها، ينظر بحنان
إلى عينيها ولا يضمنهما أو يتكلف بتحميلهما أي رسائل أو وعود ويدعها
ترحل بسلام، ما انتظرت منه أبدًا.

2

نزاع بين الجسد والروح

«لقد افتقدتكما صديقتي كثيراً، وتمنيت لو تمكنت أن أبشكما انطباعاتي عن كل ما يجري حولي كل الوقت، لكن يمكنكما توقع استحالة ذلك، فما من شيء في بغداد لا يطالب باحتلالك. والاستحواذ عليك. مدينتي كما عهدتها، أدمنت قدرًا خاصًا من الحزن، مسجلاً دوليًا كمنتج حصري لها، فلا هي قادرة على أقل منه، ولا على التخلص من حمل زائد فيه على تحمّلها».

أقول بانفعال: «لا أكاد أصدق ما أسمعه منك ليلي، توقعت منك أن تترددي بالاعتراف له بحبك، أو أن تخرجي معه كالمرّة السابقة، وتكتفي

بتقبيله ومعانقته، لكن أن تكوني له بهذه الحرية والفرح، وتجبرينا بالتفاصيل بلا أي ندم أو خجل، فهو ما لم أتوقعه أبدًا».

تبتسم فاتن بعد انتهائي من الكلام بفتور، كأن لديها رأيًا، يبدو أنه لا يتفق في مضمونه مع ما قلته، ولا تؤدّ الإفصاح عنه الآن، لتختار أن تقول: «أفرح لفرحك ليلى. لقد افتقدنا لقاءاتنا وبؤحنا المثير فيها».

بعد برهة صمت، يعود إلى وجه فاتن ضياؤه فتتابع: «هل تذكران حلمي الذي كان ألبرت فيه يغسل وجهي بالماء؟ يبدو أن ما مررت به يومها له أهمية أخرى تضاف للذي حللناه حينها».

تبدو على ليلى آثار خيبة مبطنة، كأنها كانت تنتظر ردًا أكثر سخاء مما قالته فاتن، حول تطور علاقتها بهاشم، ثم تردف قائلة: «ما الذي تقصدينه فاتن، ما الذي ذكرك به الآن؟».

أنظر نحو فاتن بشغف، أنتظر ردّها إلى أن تقول بحماسها المعهود: «لقد حلمت حلمًا جديدًا منذ بضعة أيام، واحترت من وقتها بتدوير مدلولاته في ذهني، وأردت أن أفكر في ذلك معكما. لقد كنت في حلمي أجلس بجواره في سيارته التي كان يقودها، سعيدة وراضية لمجرد أن أكون معه، بتلقائية ورشاقة لم ألفهما بنفسي، تحركت من مقعدي إلى أن غدوت فوق حجره، أنظر معه إلى الطريق الممتد أمامنا ولا أنتظر شيئًا، تفصلني عنه مسافة صغيرة، كأنني معلقة في الأثير، ثم رويدًا يبدأ الحبور بالانسلال

تحت خلاياي، ثم يسكنها ويعلو صهيله، إلى أن يبلغ بي انتشاءً لا أعرفه على الأرض، ويستمر ويستمر، فأصبح أسيرة له، أصرخ بأعلى صوتي، من كل تلك الأحاسيس الجنونية التي تعبت بي، مشاعر متناقضة، بعضها يود الاستسلام لبهجته وبعضها يود التحرر منه. ما الذي يريده مني، وما هذا الذي ينتابني؟ كانت مشاعر النشوة تنتقل من المركز وتنتشر نحو الأعلى، وكما قلت لكم، لا تشبه أي شيء مررت به من قبل، هناك ما يؤكد لي بأنها ليست بمستوى الإدراك الأرضي الجسدي، مع أنها تحفز بواعث اللذة الجسدية وتشبعها».

تقول ليلى بعد أن تأخذ وقتها على غير عاداتها، محاولة أن تستوعب ما تود فائن حقيقة أن تقوله وتصل إليه من كل ذلك، ثم هاربة من إبطارها لمحاولات فائن الهروب من مواجهتها برأيها المجرد والقاسي على الأغلب، تقول: «أحلام العربة كثيرة التكرار لدى غالبية البشر، والذي يقودها يكون عادة المسيطر على حياة الإنسان، وبما أن آلبرت هو قائد العربة، فهو المتحكم بك، من مفهوم خاص هنا، على الأرجح المتحكم بتطورك الروحي، ركزي على أنكما لم تتلامسا، لم يحتك جسدا كما حقاً، مما يؤكد على القيمة الروحية في التجربة».

لا تدع فائن الموضوع وشأنه، فتعيد علينا بإصرار وجهة نظرها: «أنا متأكدة من أن الطاقة الجنسية ليست لها علاقة بمشاعر الشهوة الجسدية فقط، إنها طاقة خلق من البداية إلى النهاية، والروحانيون ينظرون إليها من

هذه الزاوية دوّمًا، ويركزون على تعزيزها وعدم إهدارها، بهدف الارتقاء الروحي، ولا يأتي تبديدها إلا عن طريق إشباع الرغبات إلى نهاياتها. الناس الذين على درجة عالية من الروحانية، يعيشون على الدوام في منطقة من الحبور، تشبه تمامًا حالة ما قبل الوصول إلى الذروة، يمكنهم الوصول إليها والمكوث فيها ما يشاءون، كما يمكنهم الدخول في حالة التأمل وهم يمشون بيننا، ويقومون بواجباتهم العادية في الحياة، دون الحاجة إلى الجلوس والسكون وأخذ وضعية التأمل المألوفة لدى الجميع».

يحتل الوجوم ملامح ليل، ولا تجد ما تقوله في وجه اندفاع فاتن بشرح وجهة نظريهْبها الوقوف في مواجهتها، فيما أقف بدوري على ناصيتها ساكنة، أنظر مترقبة كل ما يحدث حولي ولا يعترني نيتي اتخاذ أي قرار.

«لا يمكننا توقع أن نصبح روحانيين بين ليلة وضحاها، كل ما تقولينه فاتن، هو نظريات وأفكار يخرج علينا بها الكثيرون، ولسنا على هذا القدر من الثقة للتمسك بأي منها، وكأنها الحقيقة المجردة التي لا بديل عنها». أقول محاولة أن أمسك العصا من الوسط دون نية مني بذلك، فأنا من شجع فاتن ويلي على القفز بلا أجنحة، والتمرغ بالمشاعر إلى آخر نبض فيها، ولا يُستثنى منها التواصل الجسدي بين الحببيين، فكيف أوافق فاتن الآن على رسم الحدود بين التعبير عن المشاعر، وبين ما سينفق من الطاقة الروحية في الطريق إلى ذلك!

تحافظ ليلى على عينيها مفتوحتين ومثبَّتتين على نقطة مجهولة، تنتظر بهما

أن تصل إلى بر أمان من هذا الحوار، ولا تقع على استنتاج يرجع بها من حيث بدأت منذ سنّي الخوف الأولى، فيما تندفع فاتن بالرد بهدوء: «أعرف أن ما أقوله، لم يقنعكما لا في السابق ولا الآن. سنحاول مرة أخرى، على ضوء فهمنا الجديد. هل تذكرون رواية باولو كويلو (الخيميائي)، كيف يتحول معدن الرصاص إلى ذهب عن طريق عملية خاصة تخضع لعلم الكيمياء القديمة، التي كانت تمارس في العصور الوسطى التي تسمى (الكمي). هذا هو المفهوم ذاته الذي يعني الروحانيين، الذين من خلال ذات العملية الكيميائية، يطمحون بتحويل رصاص شخصية أو نفسية الإنسان إلى ذهب روحه. تجربة الالكمي هذه حين تكون بين شخصين، لا بين مادتين، ترتقي بالروح عن طريق التقاء جسد الحبيين، الذكر والأنثى، والتواصل بطريقة لا تعتمد على الاستثارة الشهوانية التقليدية، ولا تصل في نهايتها إلى الإشباع. في الحالين، سواء كان طرف المعادلة مادياً أم إنسانياً، على الطرف الآخر سنحصل على الخلاصة التي صُنِع منها الكون، وهي واحدة أينما ذهبنا وكيفما تلفتنا. انحباس هذه الطاقة الجبارة، يوجهها نحو الوعي، فيغدو أكثر وضوحاً وحضوراً، يأخذها إلى وجود أعمق، عكس إهدارها الذي يذهب لصالح الأنأ، المعمل الذي يصنع الرغبات التي لا تنتهي، والمخاوف وحيازة الممتلكات والغيرة والمنافسة والحقْد والغضب».

«كأنك تدّعين هنا فاتن، إن كل ارتقاء روحي تكون فيه خسارة لمساحة في أراضِي الأنأ». أقول والخوف على ليل يتملكني ويسرّع أنفاسي.

تقول ليلي أخيراً، وعيناها مفتوحتان على آخرهما وموجهتان إلى الأرض: «يمكنني أن أفهمكِ، لكن ليس بالضرورة أن أزمع بالذهاب بقناعتك إلى نهايتها»، ترفع عينيها عن الأرض وتنظر بعيداً عنا، متابعة: «هذه الغريزة الحيوانية وُهبّت لنا، وتحافظ على نوعنا وتمنحنا بهجة من نوع خاص، لا يشبهها شيء».

تقول فاتن بأسها المؤلف غير مبالية بذعر ليلي: «قرأت للاو تزو، الكاتب والفيلسوف الصيني، أن الطريقة التي ينظر بها الإنسان للجنس تحدد مستوى ارتقائه الروحي، وبالتالي الإنسان غير المرتقي روحياً، يمارس الجنس بالطريقة الكلاسيكية، ويضع تركيزه كاملاً على إشباع رغبته بالكامل، التي بها يكون قد وثب وثبة كبيرة إلى الوراء».

لم تزل ليلي تربد إلى نفسها وتنتقل عيناها من مكان إلى آخر، ولا تنظران إلى شيء فعلاً، ثم تتابع بوجل باد على قسماها: «اعتقدت لبرهة أنني قضيت على مخاوفي بوجودي مع هاشم، وفرحت لتحرري بالتعبير عن حبي له كما أشعر وأشتهي تماماً، والآن بعد حوارنا عن حلم فاتن والمعاني الكامنة خلفه، صحت على نفسي تائهة في مكان لا تود الوجود فيه، قولي لي فاتن بالله عليك، ما الذي تريدين قوله لي؟ لم أعد أفهم شيئاً!».

«أنتم تعرفون رأيي منذ البداية، والآن بعد فهمي الحديث للأمر، لا أرى فائدة من الاتصال الجسدي والذهاب به إلى نهاياته، أنت في بداية رحلتك الروحية، ومشاعره نحوك ليست واضحة أصلاً، وبذهابك إلى

هناك، أخشى أن تكوني انحرفت بعلاقتك معه إلى الوادي الحسي، وخضعت لنداءاته، فإن لم تحصيلي منه على مستوى أعلى من التواصل، تراجعت أيضًا بنموك الروحي خطوات إلى الوراء»، تقول فاتن بشباتها المعهود.

أشعر بدوري بفداحة الذي يدور برأس ليلى، ومن دون أن أمنح نفسي فرصة أخرى للتفكير أقول: «ليلى، ما زلنا نحبو بهذا العالم، وأسراره على يُسرّها وقرّبها منا، حتى رغبته بالتكشف لنا، نلقى في وقت ما بأننا غير مستعدين لنداءاتها، فنجد طريقة بإساحة نظرنا بعيدًا عنها إلى وقت آخر، نكون متأهبين فيه للتغيير. دعينا نحتفّ معك بفرحك، بحبك لذاتك أولاً ولهاشم، بأنك حظيت بلحظات حب وحياة، في مدينة تحترف الحزن والموت. أنا أثق بك، وأعرف بأنك إن وجدت مع الوقت، أن المكان الذي تقفين فيه بعلاقتك معه، يستنزفك أو يؤذيك بأي شكل، لن تنتظري نصيحة أحد، وستبارحيه بكل يسر».

أتنهّد تنهيدة عميقة، مستقبلة نظرة ليلى الباسمة على أنها وعد منها بأنها ستوقف عن التفكير لأبعد مما قيل للتو، فيما تلتزم فاتن الصمت، فما رغبته بقوله قد انتهت منه، والمجاملة ونثر السكر على العلقم ليسا من فضائلها على الإطلاق.

3

لا يكتب النص إلا نحن

لا يزال يأتييني تميم في أحلامي حزينًا، خائفًا، يقف مقابلًا لي، ولا ينظر إلى عينيّ مطوّلًا، فلا أجد طريقًا إليه إلا بلثمه من المكان الذي تصله قامتي منه، فأقبله من صدره وقلما أبلغ كتفيه. أحسه مستسلمًا لما تأتي به الأيام، يُبدي تفاؤلاً بها، يتمنى أن أصدقّه فيه، ويعرف تمامًا أنه لن يفلح بأن يخفي عني شيئًا، كنت قريبة منه أم بعيدة. كلانا درس الاحتمالات جميعها برأسه، ولم تأتِ بأجوبة تُجبر الواقع على إنصافنا. كلنا ينتظر أن يتغير كل شيء، حين تنتهي هذه الحرب المجنونة.

لا أدري حقًا، كيف أفهم مشاعري، الفوضى تدير دواخلي وكل ما يخرج

عني، حكايتنا تحتل الفضاء، وكيفما تلفتُ، وجدت وجهنا الباكي ينظر إليّ، فأشيع نظري عنه وعن نفسي. لا أصدق أن السوريين يهربون من الوقت بكل ما أوتوا من حزن ويأس، يضعون العالم أمام المرأة ويضحكون، فلم يعد هناك ما لم يخسره بعد. كل شيء يتوقف عن العمل حين يكشف أنك سوريّ، الدواء لن يعطي مفعوله، الأمل سيفقد تفاؤله، الدعاء سيضل طريقه، الوعود ستعذر عن تأخرها، الكلمات ستفرغ من معانيها، حتى علم الفلك، لن تصدق نبوءاته ولا حساباته، وسيوحد توقعاته نحو مواليد كل أشهر السنة، فالحظ بات يخاف منا، وقرر هو الآخر ألا يكون حليفنا.

أغوص في أفكارني جالسة على كرسيّ في المقهى، أنتظر قدوم ليل وفاتن، أغغم بكل ما بودّي أن أناقشه معها وأبوح لها عنه، وقلبي يدق مسرعاً، يحرق الثواني والدقائق بانتظارهما. استقبل مقهاي الربيع أيها استقبال، فالأخضر جاءه زاحفاً من الوادي الممتد أمامي حتى مدخله. نظرت حولي إلى أن التقيت بغيومي، ارتحلت مع حركتها البطيئة، واحتلالها المتواضع للسماء، مع تشكّلها الجريء، الطفولي، المتغير الألوان، المتمدّد والمنكمش على نفسه إلى ما لا نهاية، غبت باحتفاء كل ما حولي المهيب بالحياة، احتجبت بالشمس وبالطيور الهائمة فوقها، فتوارت مخاوفي، وسعبي المتعب وراء الصواب والخطأ، ولو مؤقتاً، فأدركت بأن عالماً يدعوني إلى هناك، لا يمكنه أن يضيرني أبداً.

«مي، لم نخبرينا عن تميم منذ مدة بعيدة، هل من جديد؟»، تقول ليلى.

«نحن دائمان الاطمئنان على بعضنا، غدا الحديث بيننا مكرراً، ندفع بأسئلتنا المعتادة عن أحوالنا وأحوال أسر تينا والبلد، ونهني حديثنا بترديد عبارة (لا من جديد)، وكلما هممت بالتعبير له عن شوقي، اخترع بحذاقة مئات الطرق التي تشيني عن الاستمرار، إلى أن توقفت عن المحاولة.

لقد وعيت أول أمس على خبر احتراق سوق من أسواق دمشق القديمة، وهو خبر كثيرًا ما تطيّرت من حدوثه، وهربت من تخيله، حتى فرحت بأن هو اجسي لم تكن في محلها، وأن الحرب على مشارف نهايتها، ومكاني على حاله منذ عقود طويلة. كيف طاوعهم قلبهم على حرق قطعة من السماء، ما كان عليهم تكبد عناء بلوغها بجهدهم، وهي على مرمى من نظرهم! أدركت أنه لا يتحتم عليّ أن أعيد أي شيء من هذا الخبر على أسماع تميم، لكنني لم أستطع أن أقاوم، فنطقتها، وذهبت كلما قي سدى غيرها من النداءات. ما الذي أردته منه، أن يبكي معي، أن يواسيني، يطمئني ويكرر دعوات لا تُستجاب، هو الذي بات يعرف تمامًا أن الكلام قد فقد بأسه منذ زمن بعيد»، أقول ولا أفلح في إخفاء حزني العميق، الذي تعلمت في بعض الأحيان، كيف أحييه خارجاً مني.

تقول ليلى: «أي قدر هذا الذي كان ينتظر بلادنا التي لا يهدأ فيها الصراع؟ تنها في عناوينه وفي مسبباته حتى أصبح عيشنا في كنف ظلمه، حدثاً طبيعياً، بل بشكل ما، أقنعونا أننا نستحقه!»، تعانق ذراع ليلى كتفي وتشدني إليها قائلة «عيني مي، سيعيدون ترميم كل ما يحاول القتل تدميره فيها، صدقيني،

أنتِ تتخوفين من احتمالية دمارها من ولهُكِ بها، وأنا أرى أنها ستُحفظ وتعود، وأرانا نشئي في أزقتها ثلاثتنا معًا، نحتفي مع كل محبيها رجوعها إلينا، وأرى غيوم الحب الكثيفة التي وصفتها لنا، تجللها وتغطيها.

وتتبعها فاتن: «تيم يحاول أن يبدو أمامكِ قويًا، فدعيه يعتقد أنه يفلح في ذلك، ولا تقوضيه بأي توقع لا جدوى فيه، عليكِ بالصبر حبيبتي، وما من شيء يمكننا فعله الآن، فهو لا يستطيع أن يتخلى عن والدته المريضة، وأنتِ لا يمكنكِ أن ترجعي بزياد إلى أرض المعركة».

لكن تيم لم يدعني لتقاسم العيش معه، دعوته دومًا مواربة، رد فعل لحظي لمداهمة شعورية عمرها قصير، لا تلبث أن تقبض على نفسها وتمضي كما تجيء، كأن أتصل به يومًا فتكون كلماته الأولى لي قبل السلام: «قولي لي بأنكِ هنا»، أو أنقل إليه حاجتي لإنجاز بعض الأوراق الرسمية الضرورية بزيارتي المقبلة، فتباغتني دعوته «تنزلين عندي حين تأتين»، ثم آتٍ ولا أرى صديقًا لما أملت نفسي به كل أيام الانتظار التي مضت، هكذا تعابير لا ارتباط بها، متحررة من الالتزام والتعلق، لطيفة وغير متكلفة، تحب نفسها قبل أي أحد آخر.

تعود مكتبة «أباف جراوند» في مركز المدينة لتكون موقعًا جديدًا للدهشة المقبلة من ألبرت، المكتبة إياها التي اجتمع فيها مع زوج فاتن لشراء حاجياتها للرسم في بداية أحد الفصول. تحكي فاتن لنا ما تبدى لها أثناء زيارتها الأخيرة، كأن ألبرت يزيد عيارات ما يعرضها له يومًا بعد يوم،

فما من طريقة توقظ النائم إلا مباغتته بما لم يخبره من قبل. تدلف فاتن المكتبة بقلب واهن لا تعرف له سبباً، وما إن تقف بمحاذاة المروحة العملاقة التي تحوي نماذج الكائنات المختلفة المتاحة، حتى تغزو المكان رائحته، تأتي بكل زخمها لتنبئها بأنه تفصلها عنه بضع خطوات، تتلفت خلفها بهلع، ثم بكل الاتجاهات حولها، تتسارع دقات قلبها، ترتجف ركبناها، فتحمل ما انتقته من حاجيات، وتتجه إلى الصندوق، تدفع الحساب وتركض هاربة من المكان. لم يسبق لها في حياتها أن استحضرت رائحة أحد بهذه القوة، رائحته لا تشبه رائحة أحد، ليست عبير عطر معين، هي مزيج من شذى صابون وفوح آخر نقي، كعبق جدول ماء صاف. سبق لها أن خبرت حضوره بأشكال عدة، بأحلامها العميقة وشبه الواعية، بتوارد الأفكار، وبسماعها صوته يرد على تساؤلاتها، وبلحظات لا حصر لها تحس بأنه خلفها يراقبها، أما أن تستنشق عبقه، كأنه يقف بالقرب منها، فهو ما أوقف شعر رأسها تماماً. وحين حاصرتها أسئلتنا، أكدت لنا بأن رائحته كانت حاضرة كأنه يقف أمامها، نفاذة، حية ومحيطة بمساحة لا بأس بها، واحتمال أنها توهمتها غير موجود بالمرّة، ما خبرته كان حقيقة لا لبس فيها.

«عليكما أن تصدقا بأنني أعيش دوماً خوفاً جلياً من احتمالية رؤية ما لا يمكن لحواسي استقباله أو تحمله، أرجو ألا تغيب عنكما هذه الحقيقة، فجلبة استمتاعكما بإبهاري، غير المقصود تماماً لكما، تنسيكما بأنني لا أسرّ باستقبال الكثير من هذه المفاجآت مثلكما». تقول فاتن.

في يوم مشهود تصحو فاتن في منتصف الليل، تذهب لشرب كوبًا من الماء ثم تعود إلى سريرها وتضع رأسها على وسادتها، تغالب نداءات نعاسها بالعودة إلى نوم ثقيل، تدرك أن الوقت قد آن، وأنها في هذه الحالة بين الصحو والنوم التي يمكنها أن تنفذ بها قرارها، ولا داعي لانتظار أن يعلن لها المنبه ساعة صحوها لتصل إلى ذات المكان بوعيها، فتعزم عندها على سفرها إلى النجوم، الذي استعدت له بطقوس الحماية كاملة قبل النوم. كانت قد طلبت من ألبرت منذ بضع ساعات أن يرافقها في رحلتها، فلم يجيبها، وإلى الساعة لم يأت. لقد عقدت النية منذ أيام، والآن جاءتها الفرصة التي تعلم تمامًا أنه عليها أن تثبت انتباهها على ما تُرمع القيام به، وعلى قوتها بمواجهة مخاوفها. تغمض عينيها وتنوي الانفصال المؤقت عن جسدها، فتفعل بيسر وبخفة لا تستغربها كأنها تتوقعها، ولا تتنبأها تلك الارتعاشات المؤلمة التي أنهكتها في المحاولتين السابقتين. تنظر إلى جسدها المسجى على طرفه من علو، يغط بنوم يبدو عاديًا، تنتقل بين أرجاء غرفتها، إلى أن تقف أمام مرآتها وتواجهها، فلا ترى نفسها فيها، وترى انعكاس وجه مفزع ذي عيينين براقتين، يبخلق فيها، لا تريحها نظراته فتشيع بوجهها عنه وتحلق خارج الغرفة لأول مرة، تخترق الجدران والزجاج، وتترك الحدود التي طالما استوطنتها.

تهيم على وجهها في الفراغ ولا تعرف وجهتها، لا يهيمها ضياعها ولا عدم تحكمها بحركتها، اهتمامها منصب على الاحتفاء بقوتها وبثقتها بنفسها

ولا شيء غيرهما. تخلق بعيداً في الظلام، بسرعة كبيرة تعدها جيداً في الأحلام. تفتح ذراعيها وتطير، كما تطير الشخصيات الأسطورية في حكايات الطفولة، أو كالأبطال في أفلام الخيال العلمي، تميل بجسدها لتغيّر وجهته، كأنها متمرسّة باستخدام هذه الخدع منذ زمن بعيد. تمر بنمر كبير الحجم، على قدر عالٍ من الجمال والقوة، عيناه الشهلاوان اللامعتان تتحديانها، تنظران نحوها منتظرتين فرصة الوثوب عليها بمجرد أن تشتتا خوفها، تلتفت بعيداً عنهما على عجل، وتتابع تحليقها عالياً، تمر بمجموعة من الرجال يتهايمون وينظرون ناحيتها، يتبادلون النظر مع بعضهم، تصلها كلمات غير مفهومة هاربة من جملهم، تشعر بأنهم ربما يستهزئون بها أو يتكلمون بالسوء عنها، يناديها أحدهم راغباً بأن تلتفت صوبه، فلا تعرّ أيّاً منهم اهتماماً، وتتابع تحليقها بسعادة كبيرة. تبسم وتستمر بالتحليق الذي لا تعرف وجهته، كطفلة تعرفت للتو كيف تركب الدراجة، ولا تريد أن تنزل عنها.

تلمح في طريقها تكاوين لا تذكر تفاصيلها، منها المألوف، الذي سبق لها رؤيته بحلم سابق، ومنها غير المألوف، الذي لم تره من قبل. تشاهد أشجاراً باسقة، يمتد ارتفاعها ليلايمس السماء، وطيوراً عملاقة تسبح بالفضاء كأنها طائرات، صنعت بأيدي مهندسين خارقى الذكاء. بسرعة لا يُدرّك قياسها، تصل مسقط رأسها، تهيم فوق بيتهم القديم، تدخله، تنتقل في غرفه التي تعرف تفاصيلها وتستفقددها، تتفقد صالونه ثم تتجه

إلى بلكونة غرفة نومها، وتطل على شارعهم، فيبدو كما تركته منذ سنين، تنذوق بساطة حضوره، فيغمرها سلام سخي، إلى أن يصيبها التعب، فتحسم أمرها سريعاً وتبدأ رحلة العودة. درب عودتها يبدو حثيثاً، لا تترقب فيه شيئاً، فالرغبة بالاستكشاف قد انتهت، وآن لها أن ترتاح، تصل غرفتها، وتلاحظ جسدها نائماً كما تركته، تهبط بخفة نحوه وتلتحم معه، وتكمل نومها إلى الصباح إلى أن تصحو على نداء المنبه.

تستعيد فاتن توازنها الذي فقدته في الأسبوع الأول لها بالفصل الجديد، فتعود إلينا بوجهها الصبوح المشرق: «لقد رجعت كل شيء إلى مكانه الاستثنائي، واسترجعت ألقى الفصل الماضي مع ألبرت، استعدت قوتي وتركيزي، وكل ما رسمته نال إعجابه، لكن المفاجأة، كانت حين كان يعلق على لوحتي، وملامح وجه الرجل فيها، لمس وجهه إلى أن وصل إلى حدود رأسه، وقال «لا تخرجي عن هذا الحد، الصعود إلى أعلى من ذلك خطر عليك»، ثم تركني ومشى نحو زميلي بجواري، لم أفهم ما قاله في البداية، ثم أطرقت وفكرت بأنه يوصل إليّ رسالة، فخطر على ذهني، أنه يعلق على رحلتي أثناء نمومي، فما الذي سيكون خطراً عليّ! أدركت بعدها أنه ينصحني ألا أحلق أعلى مما فعلت. صدقاً، لم أكن أتحكم بوجهتي، ولا بالارتفاع الذي كنت عليه».

تقول ليلى: «إنه فخور بك ويثق بقدراتك بالتأكيد، ولمس حماسك وسعادتك بإنجازك، ويطلب منك الحذر، وستفهمين في المرات المقبلة

ما يعني ذلك تمامًا. ستتذكرين قوله، وتنفيذين الأسلم لك». تنهي ليلي تصرّيحها بابتسامة مرتاحة.

بحماس لا يغيّب ولا يتغير، تكمل فاتن قصتها: «انتظرا، لم أنتهِ بعد! في نهاية اليوم، وبصوت عالٍ، حين كنا نرتب المرسوم ونعيد كل شيء إلى مكانه، طلب منا ألا ننسى أن نضع الكراسي فوق بعضها، ثم قال: «لا تضعوا الكراسي جميعها فوق بعضها، فتصبح عالية، فتقع فوق بعضها»، ثم أطرق قبل أن يقول: «مع أننا لم نسمع عن وقوع أحد من قبل». إنها رسالة ثانية لي، تؤكد الرسالة الأولى، تحسبًا لأي تأخر بفهمي. كم أتمنى أن يكون الحوار بيننا كأبي حوار عادي بين الناس، أود أن أؤثر معه، أن أخنقه بالأسئلة، أن أضحك بوجهه دون ارتباك أو خوف من أنه يقرؤني، ككتاب ممل ومغلق على مخاوفه وجبنه».

أقول بنفاد صبر: «سأكرر على مسامعك ما مللت من سماعه مني، من وصل إلى هذا النوع والمستوى من التواصل مع أحد، كيف يمكنه تمني أن يرجع به إلى ما يارسه مع كل العالم، ويفشل به على الأرجح. هل ترين الناس يفهمون على بعضهم بالكلام والثروة؟ أمرك عجيب فعلاً!».

تضحك فاتن من عصبيتي، تربت على كتفي وتستمهلني السماح لها بإكمال حديثها: «الآن أريد أن أريكما وجه الرجل العجوز الذي رسمته، أريدكما أن تريا العمق الذي أصله حين أرسم، وأنا في تلك الحالة من التواصل معه ومع نفسي، حين أتصل بالمنع الذي لا ينضب أبدًا».

تُخرج فاتن جَوَّالها، تبحث عن اللوحة وتضعها بين أيدينا. ننهر بها نرى، وترد فلي معلنة عن ذهولها: «يا إلهي، إنه خيف بحزنه وبعزلته، كيف رسمت ذلك التعبير بهذا الوضوح؟! كيف جلس أمامكما لبضع ساعات وكان فعلاً على هذه الحال؟».

اللوحة مرسومة بالقلم الرصاص، لرجل كبير في العمر، يجلس على مقعد لا مرئي، ويميل وجهه نحو من يرسمه، خفيف الشعر، هزيل الجسد، لا ترى منه إلا حزنه العميق، وعزلته التي لا يشفيها أي حضور، يخرج من عينيه تعبير يوجل الناظر إليه.

تقول فاتن: «لن تصدقني إن قلت لكما؛ إنه لم يبدُ كذلك تمامًا أمامي، ربما رسمت ما رأيته فعلاً داخله، لقد رأيت روحاً ورسمتها، تساءلت بعد أن أنهيتها، روح من كانت هذه؟ لقد كانت عينا ألبرت حراوين حين نظر إلى عملي، تتقدان حماساً وفخرًا بخطوطي، غمرته سعادة ما كان يمكنه أن يخفيها فانتقلت برشاقة إليّ، تبادلناها معاً لزمان يهرب مني قياسه كعادي معه. لقد فهمت درسه جيداً، لا يمكن لأي شيء أن يبدو أكثر حقيقة، وأبعد جمالاً وإبداعاً، مما تصله حين تنصت إلى داخلك، وإلى ذلك الصوت الأسر المقبل من مكان ما في هذا الكون».

أقول: «فاتن، ترى لو جلس أمامك تميم، كيف ستصورينه؟ كيف سيكون شكل عينيه؟ لا أدري كيف ربطتُ بينه وبين هذا الرجل العجوز، أعرف أنني أبالغ، لأن حزنه وانكساره لا يهونان عليّ، كأنني تمنيتك برسمه

أن تأكدي لي هواجسي فيه، أن تمدي له يد العون، لأنني أنهكت بتقليب الاحتمالات في رأسي، ثم بتكذيبها، أريد لأحد أن ينتشلنا معاً، لم أعد أقوى على إدارة قصتنا وحدي».

تقول فاتن بكل حنان: «أفهمك صديقتي، ولا ألوئك أبداً، أعرف تماماً أن كل الطرق تؤدي إليه، وإنك تستحضرينه بكل ما يمر عليك بيومك. بالطبع لدي فضول كبير أن أرسمه، وسأجيد رسمه أكثر من ذاك الرجل العجوز، أنا متأكدة، كم سيكون ذلك مثيراً!، اصبري حبيتي، نحن معك، يوماً بيوم، وكما اتفقنا، لا نملك إلا أن نعيش الآن، وقدر كل شيء أن ينتهي، وحده أملنا بذلك سيكتب مشيئة الأيام المقبلة، أليس كذلك؟».

أقول: «أنا متأكدة من ذلك فاتن، فكرة أننا مسئولون عن قدرنا، تخيفني، تحملني مسئولية ثانية، أكبر مني، أضعفها، أنها تجبرني أن أوقف تدفق تخيلاتي المتشائمة عما يمكن أن تكون عليها الحال بعد كل حادثة، هذا جيد في نهاية الأمر».

ترى، هل بحثنا عن الحرب، لأننا كنا نبحث عنه؟ لأننا أردنا أن نوظف نفوسنا بأي ثمن، أن ننظر في عينيه، نتحداه أم نستجديه، لا أدري حقاً! متى سيمل الموت منا، متى سيكف عن ملاحقتنا؟

هل كنا نستعجل الوصول في الطريق إلى نهايته، فالألم لم يعد يُحتمل. ترعبني احتمالية أننا مسئولون عما تكون عليه أيامنا، أننا ربما بنينا بأيدينا

المسرح الذي يسّر لهذه الحرب نشوءها، أعطينا لأبطالها، الذين في أغلبهم نحن، النص الذي سيبقيها حية فينا، أضأنا زواياها ليرى خبيثتها العالم أجمع، وضعنا موسيقاها نوتة نوتة، ووزعنا طبولها في الممرات، داخل الكواليس وبين الحضور، وما زلنا نطبع النص وراء النص، فلا نزيد النار إلا اشتعالاً، ونحن لا ندرى ما فعلناه بنا. أحرقنا مدينتنا بأيدينا، بأفكارنا عنا وعنهما، بأملنا الميت فيها، قتلناها.

يا خوفي من حقيقة أنه لا يكتب النص إلا نحن، لا يكتب النص إلا نحن!

نقرر في نهاية اليوم أن نخطط للذهاب برحلة تجمعنا لأول مرة، إلى مدينة قريبة من مدينتنا، لبضعة أيام، فالشتاء قد أنهكنا، والربيع يستحق منا احتفاء خاصاً. لم يحتج الأمر لكلام كثير، الحماس سكتنا بلا أي إضافات. وبتلقائية قررنا أن الوجهة ستكون إلى مدينة مونتريال، حجزت ليلى الفندق، وفاتن القطار، فيما بحثت بدوري عن المطاعم التي علينا ارتيادها.

تدافقت الأماكن التي يمكننا زيارتها في مخيلتنا، فذكرتنا ليلى، بمعارض الرسم التي سنترافق برؤيتها، وتساءلت فاتن عن أيها سيكون ذا أهمية خاصة. اتفقنا مبدئياً على زيارة شارع بول في الميناء القديمة الذي تتوزع جالوريات الرسم على جانبيه، والمتخم بالمقاهي والمحلات الصغيرة.

4

كلمات

«لا يوجد فاصل بين الإلهي والأشياء التي نعتقد أنها ليست كذلك،
الكل إلهي». (*)

أقرأ هذا في الكتاب الذي بين يديّ في أحد الصباحات باهرة الجمال،
فتملّكني الفكرة وأرحل في فضاءاتها بعيداً إلى أن أطوي الكتاب وأضعه
جانباً. التفتُ إلى زياد الذي يتقاسم معي الجلوس على كنبتنا الكبيرة
والوحيدة، فأسأله إن كان يعتقد بوجود الشر، فيجيب دون أن يعطي
نفسه فرصة للتفكير، بأنه لا يعتقد بوجوده وبأنه وهم، ربما اختلقناه لنرمي
عليه مسؤولية خيبات لا تنتهي، ويتابع بثقة بأنه لم يصدق بوجود الشياطين

(*) «There is no separation between the divine and the things we think are not,
they are all divine».

والعفاريات وإن هاب القصص الدائرة حولها في طفولته، فتعقد الدهشة لسانه، وأجد نفسي أثب عليه وأعانقه.

من أين سيأتي الشر؟ فكرة الشر تناقض فكرة الوجدانية والأصل الواحد لكل ما يجوب الكون.

أنظر إلى زياد، إلى براءته، إنه كالملاك، إنه على حق، الشر هو نتيجة وليس الأصل، الأصل هو الخير، المنبع هو النور، وما الشر إلا ضلال مؤقت، وإن بدد أعماراً عدة، لا بد للروح في النهاية أن تتعلم، لا يمكنها أن تكون جاهلة إلى الأبد. زياد أجبني بما يعرفه حقاً، من دون أن يفكر. نفوس الصغار هي المكان الذي تفضل الحقيقة أن تنأى به قليلاً عن مناكفات لنا معها لا تنتهي. إننا لا ندرك ما نعرفه حقاً، إن الكلمات تخذل الأفكار، كما تفعل مع المشاعر، في كثير من الأحيان، وعلى الأرجح كل الوقت. ربما كان ذلك السبب الذي يجعلنا نحب الشعراء، فهم يصفون مشاعرنا التي فشلنا في إخراجها منا، وفي أحيان كثيرة، لم نعرف حتى بوجودها، هم يقربون المسافة بين المشاعر والكلمات.

أليس التواصل بين فتن وآلبرت أقرب إلى واقعهما من تواصل الآخرين بالكلمات! فهو حين يستوعبها، لا ينصت إلى كلماتها، وإنما لإحساسها المباشر، من دون الحاجة إلى واسطة الكلمات، فيجانب بذلك الحقيقة التي لا مداراة فيها أبداً، هي أسلوب التوارد بين الأرواح.

كم تخلت عني الكلمات أمام تميم وأمام مدينتي، أستنجد بها فتخذلني،
لم تكن يوماً على قدر مشاعري أو هشاشتي، أراها تختال أمامي، تغريني
بوعودها، فأصدّقها، وأرتمي بين أحضانها، أهدئ من روعي ومن شوقي
في حضرتها، إلى أن يعود إليّ صداها، فأعرف أنها كعادتها، لا تفني بعهودها.
تميم يقف عند حدودها معي، يحاسبني عليها كأنها أنا، مع أنه يقرؤني ولا
يحتاجها، هي زورقه الذي ينقذه من الحب، الذي يخاف الغرق فيه دومًا.
أما مدينتي فظلمها كل من فيها، هي التي لا تنتظر شيئاً من أحد، على بابها
أقف عارية، إلا من نبض لا يزال يعاند كل النصوص المكتوبة لقدرها،
فأواجهها أحياناً بالكلمات التي لا تطاوعني، التي تحاول أن تمتشق قامتها،
ولا تصل أبداً.

5

الفراغ هو الصمت الذي
تخرج منه الموسيقى وإليه تعود

أفكر في كثير من الأحيان، إن كنت سأهتدي وحدي إلى هذا الدرب،
فأصل إلى حقيقة قدرية لقائي بفاتن ويلي، لولاهما لما أجبرت على الاستدارة
والنظر إلى هذه الوجهة، لضللت، كما سبق لي التيه في أزمان أخرى. كان لا
بد لي من سحرة فرعون، يرمون عصيهم فتقلب إلى ثعابين أمام ناظري،
فأصدق أخيرا وأدفع بالباب الثقيل وأسير بشعاب طويلة، ستوصلني إلى
دربي في النهاية.

حالنا من حالها، ندور كل ما تقوله فاتن لنا في رؤوسنا مئات المرات،

ونبحث ونقرأ حوله، ونصل إلى استنتاجات، لا نلبث أن نغيرها، ثم نجتمع مرة أخرى، فتأتينا بقصص جديدة، تضيفي على كل ما حدث سابقاً، معنى حديثاً، أو إثباتاً أو تشكيكاً، فنطلب منها ألا تقلق، أن تسترخي وتأتينا بالحكاية، ولتكتمل مراسم الدهشة التي ابتدأتها معنا منذ بضعة أشهر.

تكرر فائن على مسامعنا وصفها للقائنا الأخير بآلبرت: «كل شيء كان على أهبة الاستعداد لاستقباله، الحبور يجللني وضربات قلبي ابتدأ يعلو صهيلها إلى أن يدخل آلبرت أخيراً، ويقف بمرکز الرسم، وينظر نحوي، فيما نجلس نحن طلبته، على كرسي رسم كل منا، بدائرة حوله. تدخل العارضة بعد وصول آلبرت له ببضع دقائق، تقف وسط الرسم، تمثل لما يقوله لها، تخلع عنها إزارها، ثم تستلقي على مصطبة إسفنجية مستطيلة الأبعاد، مغطاة بطبقة من القماش الجلدي.

أعدو لكرسيّ ولحامل اللوحة، أحملها إلى المكان الذي ارتأيته الأنسب لرسم العارضة، أعدّل من موقعهما بعض الشيء، إلى أن أصل للزاوية المرتجاة، أجلس على كرسيّ وأنظر نحوه.

منذ اللحظة التي أنظر إليه بها، تتغير كيميائية المكان وكل ما يحيط به، أستيقظ من سبات عميق، وتدب فيّ حياة أنسى أنه سبق لي أن تذوقتها. هل زاد بهاء عن آخر مرة رأيته فيها؟ أم إنني أتوهم تغيراً بهيئته لا يراه غيري؟

أخذ حاجتي من الدفع يومها، أمسك بأدواتي، أدلف عالمي، ولا أغلق

الباب خلفي، أتركه مواربا، أنتظر دخوله منه، وأبدأ بالرسم. تشرع ملامح الموديل بالتشكل على المساحة البيضاء أمامي، على مهلها بمواقع منها وبسرعة بأخرى منها. حين أعرج على بطنها، أحس بدفع من شحنات تسري بجسدي، تنال من سرعة أنامي، إلى أن تصل أقصاها وأنا أرسم أفخاذها، تكاد فرشاتي تلمس اللوحة ولا تلمسها، وضرباتي عليها سريعة وقريبة من بعضها بعضًا. لا أعني حقًا ما أقوم به، وكيان آخري على غير حالي، يعني تمامًا ما يفعله، ولا يود أن يقاطعه أحد.

أصحو على صوت ألبرت يلفت انتباهنا إلى تقنية رسم اليد، فيمد يده أمامه ويصف تفاصيل تعطي برسمها الحياة للكف وللأصابع النابتة منه. تشدني أصابعه وتتعلق عيناها بها وتتبعانها بتفاصيل حركتها. يقبض يده ببطء وينظر نحوي، فأشعر بانقباض قلبي لا لبس فيه، كأنه يقبض فيه على جوهر يوعته، ثم يبسط يده، فأحس براحة تتاب قلبي كأنه يتوسع داخل صدري. أنظر له مذهولة، ثم متسائلة، فلا يفعل أو يبدو عليه أنه يعير اندهاشي أدنى اعتبار، ويستمر بحركات يديه، يبسطها ويقبضها ثم يحرك إبهامه ليلتقي بباقي أصابعه، كل واحد منهم على حدة، فأحس بدغدغات ناعمة بجوفي، كأن أحدهم يدغدغ بطني راغبًا بإضحائي. أنظر إليه ثم أنقل نظري لبطني وأبتسم، أذعن للعبته، معتزمة أن أستمتع بها، أنظر حولي فأرى أنني لا ألفت انتباه أحد، فتوسع ابتسامتي من كل القرقعات بجوفي التي لا يعلم بها أحد، ونتقاسم سرها معا». تصمت

فاتن أمام وجومنا، ثم تنظر إلينا باستسلام: «كيف ستصدقاني وأنا لا أصدق نفسي!!».

تعود فاتن إلى منزلها مبكرة بعد انتهاء يومها في مدرسة الرسم، وهي على حالها التي تصبو الوصول إليها كل مرة مع معلمها، فتهرع إلى مكانها المقدس الجديد في الحديقة بجوار منزلها، وتجلس تحت ظلال شجرتها الخنون. بعد أن تنظّم تنفسها، وتديم النظر في تفاصيل ما يحيط بها من جمال. تغمض عينيها، وتذهب إلى هناك، تغيب زمنًا، وحين تفتحها، ليس على وسعها، ترى العشب بلون فستقي بهيٍّ لم تره عليه في أي وقت مضى، يتحرك حركة بطيئة جدًا، لكنه يضج بالحياة، ثم تتأمل الأوراق الخضراء على اختلافها، تتألأ بظلال براق ما كانت لها من قبل، تتحرك مع الأغصان الممتدة بينها، بتأنٍ شديد، تتمايل، تهتز بفرح، تحتفل بالحياة بصوت صاحب وواثق. تعترف لنا بوجودها المعلوم تبدّيه أماننا مرارًا، بأنها أبصرت الحقيقة لأول مرة، وأن ما شاهده طوال حياتها، كانت تنقصه دومًا هذه الحيوية، هذه الاحتفالية بنعمة الحياة.

تقول فاتن بامتنان كبير: «ندرة إجلالنا للحياة، جعلنا نستقبل الصورة باهتة، في حين أنها تصدح فرحة بالحياة، ربما كانت كل الكائنات تبصرنا بهذا الجمال الذي رأيته فيها اليوم، تضحك من قلبها حين نكون بجوارها، تستمد منا ما نهبه لها دون علم لنا بما نقدمه لها».

أندفع بالقول: «أحس بأنني رأيت ما وصفته من قبل، حركة بطيئة للزمن،

لا يكون عليها عادة، أو لا أراه بها، ربما رأيت ذلك في أحلامي».

تقول فاتن: «سأحاول أن أنقل إليكما ما رأيته، وما أحسست به، لأننا اتفقنا على صعوبة أن نعتمد على الكلمات بذلك، إلى جانب أنني حين أعيد عليكما ما حدث، أعيده على نفسي أيضًا، فأستوعبه بصورة أفضل. هل تذكرون كل المرات التي كنت فيها أصف لكما اللحظات التي يحدث فيها التواصل بيني وبين آلبرت».

أقاطعها لأقول عنها: «كنت تكررين كلمة جمال، حب وسلام، سعادة لا تشبه أي سعادة أحسستها من قبل».

تبتسم مستقبلة كلماتها بصوتي وتكمل: «كان يحل مكان زماننا من آخر، يتحرك ببطء شديد لكنه ثابت، حقيقي وقريب، تبدل في أقل التفاصيل أهمية مع أكبرها، بصورة قوية وبهية، كأن كل ما اعتدنا عليه كان وهمًا أو فهمًا ساذجًا لحقيقة أعظم. الآن، أقول لكما ولنفسى، إن هناك تماثلًا بين هذه الحالة وبين الحالة التي وصلتها في موقعي تحت شجرتي تلك، مع كل الكائنات التي كانت تحيط بي».

تقفز ليلي للقول: «فاتن، إنه وعيك الذي يتغير في هذه الحالات، وعيك المستقبل للحياة، هو الذي خرج عن طوعك الذي عهده كل هذا العمر».

أفكر بأن هذا البطء الذي نتحدث عنه، هو التركيبة الإضافية التي تعطي الأشياء ذلك الجمال الاستثنائي، الذي نخاله مبالغًا لها وهو الساكن فيها،

قبل أن أندفع للقول: «تمامًا ليلي لقد وجدتها، وأخرجت طرف الخيط من السلة المزدهمة بلقائف الصوف، وعينا هذا الذي لا نعرف متى نصل إليه، هو ما يجعلنا نرى الأشياء على هذه الحال. ربما هذا ما يتمناه لك ألبرت فاتن، إنه يريدك أن تكوني على هذه الحالة خارج فصله، أن تبصري الحياة تخرج من كل شيء حولك ومتى تريدن».

تداعب ليلي شعرها الطويل، ساهمة بنظراتها، إلى أن تقول: «حتى التأمل إذا فكرت فيه، يدخل أجمل مراحلها، حين ينتظم التنفس ويصبح عميقًا، ممتدًا وبطيئًا، حين نصل به إلى إيقاع، مع الوقت نألفه، ويمكننا أن نسترجعه، لأننا أخيرًا سبرنا سره. ربما كان هذا، هو إيقاع الكون».

تردد فاتن بما ستقوله، تدير وجهها نحونا وهم بقول كلمة، لا تلبث أن تديره بعيدا عنا وتبتلعها، إلى أن تقول أخيرا: «لن تصدقاني إن قلت لكما إنني شعرت بالفراغ، بالهواء المحيط بالأشجار، كأنه حيًا أيضا. أعرف أنني أهذي».

أنفص مما قالته فاتن كأنني كنت أنتظر وصول حديثنا إليه: «إنك لا تهدين، كل شيء ينبض بالحياة صديقتي، كل شيء! كم فكرت بأمر الفراغ أو الخلاء هذا، وتوصلت بعد قراءات كثيرة بأنه ليس اللا شيء كما تتوهم، بل هو نقطة البداية والانطلاق، إنه المنبع أو المصدر الذي تخرج منه كل الأشياء والأحداث»(*).

(*) قول للدلاي لاما، ملك التيببت وخليفة بوذا.

تبتسم فاتن بسخرية وباستسلام كبيرين تقول: «سأعود بكما من الكون الذي ينبض بالحياة إلى واقعي المليء بالأوهام وأقول لكما، إن ألبرت أخبرنا عن فنان آيسلندي يعرض أعماله لأول مرة في كندا، اسمه راجنر كجارتانسون Ragner Kjartansson، وبأن أعماله تستحق المتابعة، وبأنه سيكون حاضراً في مدينة مونتريال الأسبوع المقبل، ليعرض أعماله في متحف الفن المعاصر هناك». تتنفس فاتن بعمق بعد أن تنقل ناظرها بيننا وبصوت راسخ ومستسلم لقضائه تقول مبتسمة: «لقد أتانا الجواب صديقتي، ولا داعي للبحث أو للتردد، هذا هو المعرض الذي علينا زيارته، وإليه نحن ماضون».

تقول ليلى: «لا أصدق أننا بتنا معتادين على طريقة التواصل هذه، ولم تعد تدهشنا، بل الأدهى، أننا كنا ننتظر اقتراحه، حين تساءلنا عن المعرض الذي يجب ألا تفوتنا زيارته في مونتريال. ما الذي تحبّه لنا الأيام المقبلة معه؟».

تضحك فاتن بصوت عالٍ: «أضحكتيني ليلى، تتكلمين كأننا نحن الثلاث، تلامذته حقاً!».

«وهل لديك شك بذلك؟ انتهينا من هذا الأمر الآن، استعدوا لرحلتنا، ولنقتفي كل الإشارات التي سيرميها لنا أستاذك في طريقنا»، ترد ليلى.
«ستكون فرصة نادرة لنا، فلأول مرة سنكون معاً لساعات متواصلة، لا تقطعها التزاماتنا العائلية واليومية»، أقول بفرح.

تحمل كل منا حقيبتها وتتأهب للذهاب فيما أوصل قولي؛
«أدرك الآن أنني لا أطيق الانتظار!».

الفصل التاسع

«تتلون الحقيقة بوعي العارف

كما يتلون الماء بلون الزجاج»^(*)

(*) ابن عربي.

1

رحلة مونتريال ووحى المعرض

في تلك الليلة لا أنام، أستخدم كل فنون التنفس العميق والطويل ولا أفلح، يظل قلبي ينبض بضراوة، مترقبًا ذلك الفرح الذي يعرف كيف يهدئه، وعقلي تائه بتنبؤاته، ينتظر المفاجآت التي تعرف كيف تجادله وتغنيه.

تبدأ رحلتنا في الصباح الباكر، نلتقي في المحطة، نتعانق وتبادل الضحك على حالنا، فأمتعتنا تُنبئ أنها معدة لرحلة طويلة، وعيوننا يبدو عليها أنها لم تنل حصتها من النوم. كأطفال صغار مبتهجين للسفر، نأخذ مواقعنا في القطار، وننتهي لرحلة نجول بها العالم في بضع ساعات. نجلس مقابل بعضنا، تتوسطنا طاولة مستطيلة، تأخذ مكان طاولتنا الصغيرة، التي تعودت علينا

في مقهانا، تتوزع عليها أكواب القهوة الورقية، فنعيد ملئها بضع مرات، نأخذ بلا اتفاق، نفساً عميقاً معاً، نهدي من روعنا، نعيد إلى ضربات قلوبنا انتظامها، نتلو على بعضنا برنامجنا، نغير به قليلاً، ثم نبدأ حوارنا الذي لن ينتهي اليوم ظهراً، كعادته.

لا ينهكنا الكلام، وكما نعهد الوقت معه، يمرّ دون أن نشعر بوجوده، ما إن نصل، حتى نذهب إلى الفندق، نرتب أمتعتنا على عجل، نتخفف من ملابسنا، فالشمس بأوجها بعد غياب طويل، ونتجه إلى مطعم قريب من موقعنا في شارع سانت كاترين بوسط المدينة، يضح بحضور شاب، بالموسيقى اللاتينية كما بالألوان، نشرب مشروباً مثلياً مميزاً، يدخل الليمون والنعناع الطازج والفودكا في تكوينه، ثم نتناول سلطات غريبة ومذهلة بمذاقها، على قدر ما توقعناه من مدينة مونتريال، احتفاءً بقدمونا. نمضي ساعات بعدها نمشي في شوارع المدينة التي تنبض بالحياة والمرح، نتبادل ابتسامات طويلة مع المارة وأحاديث عابرة مع الكثيرين، ممن اعترضوا طريقنا. كان في مشوارنا الكثير من الوقفات التي احسبنا فيها مشروباً ساخناً، أو أكلنا فيها حلوى تتميز بها المدينة. في نهاية يومنا الأول، نتناول العشاء بمطعم إيطالي، اقترحه علينا أحد سكان المدينة، الذي تقاطعت دروبنا معه، فألغينا حجزنا المسبق في مطعم آخر. تملك المطعم عجوز من جزيرة صقلية منذ ما يزيد على الثلاثين عاماً، نتبادل العناق معها بعد التهامنا لطعامها، في مطبخ لا تزال تقف فوق قدوره الضخمة كل ليلة وتطهو

بيديها، طعامًا سخياً بدفته وأموته. لا تفتقدنا عوالمنا، فلها من حديثنا الحظ الكبير، فالإبحار فيها له صفة الإدمان، رؤيتها مغامرة لكل ما رأيناه في حياتنا من قبل، كل شيء يخضع الآن لإعادة تقييم، ومعاً تقصر المسافات، وترتق الفجوات، وجودنا معاً يثبت الأرض تحت أرجلنا، ويعطي لكل جديد احتفالية خاصة، تخفف من وطأة دخوله المبهم علينا.

تضمننا غرفة مشتركة في فندق إقامتنا، نملؤها بصخب فتيات مراهقات، يبدلن ثيابهن ويأخذن رأي بعضهن بها، يصففن شعورهن ويزينّ وجوههن، ثم يتبادلن كلمات الإطراء، يتكلمن بلا توقف، حتى ساعات الصباح. تلعب الموسيقى العربية على وقع دقائقنا معاً، وتشكل خلفية لوقتنا، تخنار كل منا أغنية تحبها وتحسد بأن لنا نفس الوله بها، نردها معاً وقد نرقص عليها ونحن في خضم تحضرنا للخروج مرة أخرى. أغاني تعيدنا إلى أوطاننا ولزمن كم أمسى بعيداً بها، فكل واحدة منا تاهت منها خياراتها بعد أن أنفقتها جميعها، وليس أجمل من أن نعيد إحياء الوطن على أرض بسلام هذه الأرض وبكرمها.

نصحو في اليوم التالي مبكراً، فبضع ساعات للنوم كانت كافية لنا، ونيتنا المبيتة بزيارة ميناء المدينة القديمة، لا يمكننا تأجيلها أكثر من ذلك. نتناول إفطارنا في مقهى فرنسي يعدّ معجناته بنفسه طازجة كل يوم، يعزف به شاب وسيم على البيانو، فيما يداعب الهواء العليل القادم من نوافذه الكبيرة المطلة على الميناء وجوهنا وأرواحنا. هناك نوع من هدوء وسلام

يغطيان أجواء المدن الكندية، مهما اكتظت شوارعها بالبشر، يضيفان على الزمن خصوصية تركز إليها الروح وتهداً، يسمح لها بإطلالة سخية على عالمنا، فتعطي لكل ما يحدث فيه معنى أكبر وأعمق.

بترقب كبير نتجه إلى شارع بول الضيق الملتوي، الممتد على طول المدينة القديمة، الذي تتوزع على جانبيه معارض الرسم لبضع مئات من الأمتار، ندخلها معرضاً معرضاً. أمشي خلف فاتن على بُعد خطوات منها، أترصد ردات فعلها، أنتظر إعلانها إن كان هناك ارتفاع في طاقتها بمكان أو أمام عمل ما. بعد جولة طويلة نسبياً، ندخل معرضاً صغيراً، فيه بعض اللوحات التي لا يميزها حقاً شيء، تتصدره صورة فوتوغرافية لفتاة أفغانية فريدة الجمال، من مخيم للاجئين الأفغان في باكستان، يغطي وشاح أحمر جزءاً من رأسها، ويلتف حول عنقها، لا يتجاوز عمرها الاثني عشر عاماً، عيناها خضراوان، اخضراراً لا تراه على أحد، تنظر إلينا كأنها تسألنا بأن نمعن النظر في عينيها ونعطيها بعضاً من وقتنا، فهي على الطرف الآخر من العالم، ربما نجت لهذه اللحظة فقط من ظلم كبير، لا تستسلم له وستتحده دائماً، وتود لنا أن نرى صمودها أمام ما لا يمكننا تخيله.

ذاعت شهرة هذه اللقطة حول العالم منذ بضعة عقود، ونال مصورها جائزة عالمية خاصة بالتصوير. أرى الذهول يتملك فاتن، وتقف مشدوهة مما ترى، تصاب بالوجوم فتتيسر أعضاؤها عن الإتيان بأي حركة، يتجه نحونا موظف الصالة، يسألنا إن كنا نرغب بأي مساعدة، ثم يرجع إلى مكانه.

تقول فاتن: «لن تصدقوا إن قلت لكما؛ إن صورة هذه الفتاة تلاحقني، أجدها في كل مكان، حتى إنني حلمت بها. ما الذي يجب أن أفهمه من ذلك؟ لقد نشأت بيني وبين هذه الصورة طاقة كبيرة، كنتك التي نشأت مع لوحات عالمية، ودوار بدأ يسكنني، يتصاعد ويلفني».

تنقل فاتن ناظرها إلى الأرض، وبعد لحظة صمت طويلة تتمم كأنها تحاكي نفسها: «أتذكر الآن أنني في بعض لحظات الصفاء التي دخلتها أخيراً بالتأمل، جاءني إحياء لكلمتين «أبيض وأسود»، هكذا مجرداً، ولم أفهم ما يعني ذلك».

يرجع موظف الصالة إلينا، ومعه لائحة بأسماء اللوحات المعروضة وأسعارها، ثم يسألنا إن كانت لدينا أي أسئلة، وهو ما لم يفعله الكثيرون ممن زرنا صالاتهم طوال اليوم. تتلعثم خطواتنا في المكان، ويقصدنا الموظف للمرة الثالثة، إلى أن نقرر مغادرة المكان وقد تزامت الأسئلة في رؤوسنا. نلتجئ إلى أقرب مقهى على الرصيف، ونباشر بتحليل ما حدث.

تقول فاتن: «لا أصدق ما يحدث، الدنيا تلفّ بي، وأحس بثقل في منتصف رأسي».

تغبّ فاتن من قهوتها الساخنة بضع رشقات تتبعها بأنفاس متقطعة قبل أن تتابع: «كنت قد أخبرتكما منذ فترة طويلة، أنني التقيت في سوق قديم من أسواق مصر، حين زرنا خالتي السنة الماضية، فتاة فلسطينية صغيرة،

نزحت مع أهلها في إحدى غارات الهجوم على غزة، وبقوا هناك يعيشون على ناصية الحياة. لعلها كانت متسولة، وكم أتمنى ألا تكون، عمرها بحدود الثماني سنوات، ترافق شقيقتها الأكبر منها، تتقدمها عربة خشبية تجرها الكبرى بصعوبة، محملة بقطع قديمة ومهترئة، غير صالحة للاستخدام ولا قيمة لها. للفتاة الصغيرة عيناان حين تتكلمان يختفي جسدها الصغير، ويحتله حضورهما الجبار، لغتهما لا نهاية لبلاغتها ولا لعدوبتها، تتحدث عيناها وتتحدث بلا خجل أو وجل، تقصان عليك حكايات من غابر الزمان، تأسرانك بصراحتهما، تستبقيانك كأنك غدوت فجأة مسئولاً عن ظلم الحياة لهما، تماماً كهذه الفتاة الأفغانية، لا أدري من منهما أكثر قوة أم أكثر حزنًا وقهرًا. رجوتها بعد أن استحوذت عليّ نظراتها بالكامل، أن تمهلني بعضًا من الوقت، ألتقط لها فيه صورًا فوتوغرافية، فتاة ببأس عينيها قد لا تأتي بالعمر مرة أخرى. أغريت شقيقتها بالمال، وطلبت منها الصبر، وتمنيت أن تفارقنا وتدع هذه المخلوقة الصغيرة تعيش اللحظة معي، أن تُخرج ما بداخلها أمامي، أن تدع عدستي تسجل حكايتها، وتغرق في بحر عينيها. التقطت صورًا متلاحقة، لا حدود لجزالتها وصدقها، توحدت الطفلة مع العدسة، وسلّمتها أسرارها، بعفوية يمتلكها الفنانون وحدهم، ولم تسمع نداءات شقيقتها المزعجة، وأعطت لزماني معها حقه. كنت أود أن أطيل بعمر الوقت، لكنني في النهاية لم أفصح، أعطيتها رقم هاتفني، وادّعت الفتاة الأكبر أنها لا تمتلك خطأ يمكنني الاتصال بها عبره. تركتهما، وشعور بالاختناق يسكنني، ومعه يقين بأنني سأأذكر هذه المصادفة لزمن

طويل». تتأمل عيناها، المفتوحتان على اتساعهما، سطح الطاولة المستديرة المائلة على رصيف الشارع الضيق وتقول: «من المؤكد أن العلاقة كبيرة بين الفتاتين، الأفغانية والفلسطينية».

تقول ليلي: «هناك علاقة واضحة بين الطفلتين، أعتقد أن إشارة معرضك الأول الذي كنت تفكرين بأمره مؤخرًا، قد أتت اليوم بحضورنا. هذا تفسيري للأمر».

تركز فاتن عينيها بنا، بعد أن تاهتا لبعض الوقت في الفراغ، مبتعدة بلا إرادة منها عن أي فكرة جديدة تأخذها نحو معرضها الأول، ثم تقول: «لكن ما معنى تكرر رمزي اللونين - الأبيض والأسود - أمامي، هل يريدني أن أرسم باللونين الأسود والأبيض فقط، أو ربما بالرصاص، أو بالفحم؟ أم يريدني أن أفكر بمعرض تصوير فوتوغرافي لوجوه بالأبيض والأسود؟».

«لا يمكنني أن أفهم من رمزي الأبيض والأسود إلا أنها إشارة لصور فوتوغرافية، فإما أنه عليك التقاطها أو أنها بحوزتك وعليك الرجوع إليها». تقول ليلي.

أندفع بالقول: «أوافق ليلي، الفتاة الأفغانية إشارة لصورك المأخوذة للفتاة الفلسطينية، والأبيض والأسود تأكيد بأن الإيحاء سيأتي من صور فوتوغرافية. أنت رسامة ولا أعتقد أنه يقترح عليك فكرة معرض فوتوغرافي، لا يبدو ذلك منطقيًا».

تستمر فاتن بصمتها، وجهها ساهم كأنها تحاول الهرب مما ندفعها نحوه، فتقول ليلى: «محاولات الموظف المتتالية معنا جعلتنا نركّز انتباهنا على الصورة».

أقول بحزم: «عليك كل الحرج من اليوم، وترددك لا محل له، فموضوع معرضك قد حُدّد ولا شك في ذلك. ما الذي تريدينه بعد؟».

2

أنت الخلاق.... الوقت هو الآن

في صباح اليوم الأخير لنا بمونتريال، وفي أثناء تناولنا للإفطار في مطعم
بمركز المدينة، قريباً من معرض مونتريال المعاصر، الذي جاءتنا الدعوة
الرسمية إليه من ألبرت شخصياً، تعلن فاتن علينا قرارها:

«إشارات الأمس كلها، تردّني إلى وجه الفتاة الصغيرة من وطني».

تقول ليلى: «لم يعد بإمكانك الهرب بعد الآن، يبدو أنك أعددت لموضوع
معرضك منذ زمن بعيد، وأنت لا تدريين، إنه ما تحتاجين وما تصبين إليه،
وقد مُهّدت لك السبل لتحقيق ذلك، ولم تقف بينك وبينه إلا مخاوفك، إنه
مشروعك الذي وظفتِ حدسك ليعمل لديه، وقد قام بعمله على أكمل

وجه، كنت تخدعين القدر مع نفسك أو تستمهلينهما، لكن اللحظة آتية لا محالة، وقد أتت الآن!».

يترك تحليلنا بنفوسنا حبورًا مواربًا، فألبرت قد ظهر في رحلتنا، كما وعدنا ضمنيًا.

ندرك شارع المعرض، فيبدو خاليًا. الجو ماطر تتخلله نسائم جليدية، والسماء ملبّدة بالغيوم الداكنة. نقطع تذاكر الدخول للمعرض القائم حاليًا، ونحن لا نعلم فعليًا أي معلومات مسبقة عن الفنانين المشاركين أو عن أعمالهم، سوى اسم ذلك الفنان الذي ذكره ألبرت أمام الفصل، ونقلته لنا فاتن ولا تتذكر أيًا منا حرفًا من حروفه. أعزم على متابعة فاتن، كما فعلت بالأمس في شارع المعارض، فالرموز ستأتينا عبرها، فهي المدعوة لحضور المعرض، وهي التي ستدرك كيف تقرأها وتفكك شفرتها. نمر ثلاثتنا بممر شبه مظلم، يتوسطه إطار كبير لصورة فوتوغرافية معالجة لامرأة ضخمة عارية، متوسطة العمر، من تكوين عظام وجهها تبدو أنها من عرق السكان الأصليين للقارة الأمريكية، مستلقية على جنبها على أرض صخرية لكهف من الكهوف، ويتمدد فوقها هيكل عظمي آدمي بالكامل، نقرأ على قطعة حديدية صغيرة على جانب اللوحة، نبذة عن الفنان وعن عمله، الذي يصور فيه طقسًا قديمًا لإحدى القبائل. ندرك مما كتب عنه بأنه طقس يهيب بالموت. تثب ليلي وتأخذ لكل منا نسخة من المنشور المفصل عن العمل من الجيب الحديدي على طرف اللوحة،

وتبدأ بالتحدث عن العمل وعن أهمية القراءة عنه، والاحتفاظ بالمعلومات المطبوعة بشأنه. فما كان من فاتن إلا التصريح بأن لها نهجها في المعارض، بأنها لا تقرأ عن كل الأعمال المعروضة، وبأنها ستمشي عشوائياً، وسترى إلى أين ستقذفها أواجه.

أبتسم خلسة بداخلي، فهذا ما كنت أنتظره من فاتن. سأتركها تجد طريقها، فلا بد أنها مرتبكة، ولا تعرف ماذا ينتظرها، ولن أتخلي عن نية متابعتها. تذكّرني حال ليلى اليوم بعد ما، بحالي على الدوام، وهي حال أتمرس بولوج أي لحظة فيه، لا أسترخي ولا أستقبل كل ما يجري حولي بإيقاعه الطبيعي، أسرع أنفاسي وأتلثم بكل الخارج عني، فيضيع مني مع جمال واتساقية وانسجام كل ما يحدث، حكمته والإشارات الكثيرة التي رماها لي كل من يقف في كواليس اللحظة، ويعد لها أركانها.

نسير متحررات من ضرورة مرافقة إحدانا للأخرى نحو باب كبير يوصل إلى صالة كبيرة تبدو مظلمة، على بابها لوحة معدنية، كتب عليها تقديم للفنان الآيسلندي راجنر كجارتسن، الذي قام بتحويل العمل الأدبي «نور العالم» - رحلة حياة وموت فنان - للشاعر والروائي هالدور لاكسنيس(*)، الآيسلندي الحائز على نوبل للآداب عام 1955، إلى مجموعة من مشاهد سينمائية متقطعة، تضم في نهاية كل منها، لحظات تصويرها الفعلية.

تعرض شاشات أربع ضخمة موزعة على جدران الصالة الكبيرة المعتمدة، المشاهد السينمائية المصورة المجسدة لرؤية كجارتسنس والمتكررة عدداً من المرات. تتداخل الأصوات الخارجة من الشاشات فيما بينها برفق معقول لا يعطل انسيابية المتابعة - إلى أن تتغير المجموعة بعد فترة قصيرة، لتأخذ غيرها دورها، فيما وُضعت مقابل كل من الشاشات، كنبه طويله وعريضة ولا ظهر لها.

أدخل الصالة، وبعد أن أنقل ناظري بأركانها، أجلس على أول كنبه في مواجهة الشاشة الأولى، فأجد ليلي قد سبقتني إليها، فتتابع معاً مشهداً تمثيلاً بين رجل وامرأة، يمكنني وصف أدائهما بالدرامية العالية، في زمن يبدو أنه في بداية القرن الماضي، في غرفة متواضعة وبدائية، جدرانها رُسمت بضربات فرشاة ألوان زيتية، كأن الحياة قد دبت في لوحة زيتية فجأة، وبدأ أشخاصها بالتحرك والكلام. ينتهي المشهد القصير بينهما بظهور مخرج العمل ومساعديه، فيعود الممثلون إلى شخصياتهم الطبيعية، ويقومون بتبادل الضحك مع فريق العمل، وتحتل الشاشة، لوحة خشبية يسجل عليها رقم المشهد، ويعلن ذراعها العلوي الذي يطرق على جزئها الأكبر، انتهاء المشهد. ثم يعاد المشهد ثانية وهكذا.

الشاعر أولاف كاراسن، برواية لاكسينس «نور العالم»، المنتقل من شاشة إلى أخرى، هو بطل كجارتسنس الرئيسي، الإنسان المرهف الذي لا تريخه الحياة من فواجعها. يمكنني القول: إن أبطال العمل بالمجمل

يؤدون أدواراً مفعمة بالحزن وممزجة بلحظات مضحكة عفوية وغريبة، لا تنابع منطقي لها.

أنتقل وليلي إلى الكنبه التي تليها، ونجلس ونتابع المشهد التمثيلي الثاني إلى نهايته، فلا يترك أي منها ذلك الأثر بنفسه. مكتفية بما شاهدت، أتحج نحو المخرج المستتر خلف ستارة، مخلّفة ليلي وحدها منبهة بما تراه، لأجد نفسي عند موظفة الاستقبال من جديد وفاتن تقف في مواجهتها وتتكلم إليها، فأسألها بدوري حين تستدير إليّ عن موقع اللوحات في المعرض، فتناولني خريطة للمكان، وتخبرني بأن هذا المعرض لا يحوي لوحات رسم. أفاجأ وأنظر إلى فاتن، فلا أقرأ شيئاً على وجهها إلا لمحات من حيرة يشوبها توجس مستتر، فأقرر أن ألحق بها بصمت، كما عزمت منذ البداية. بعينين تائهتين، تخبرني فاتن بأن طاقتها بدأت ترتفع بالمكان، وبأنها ستدخل الصالة الأولى، فأتبعها باستسلام شديد من دون أن أنبس بيت شفة.

ندخل الصالة معاً، أنظر حولي باحثة عن ليلي فلا أجدها، لا أقول شيئاً، وحين تجلس فاتن على الكنبه الأولى، أتبعها وأجلس بجوارها. الشاشة الأولى تعرض مشهداً تمثيلاً مختلفاً هذه المرة عما شاهدته مع ليلي منذ قليل. أشعر بالسعادة تتسلل على مهلها إليّ بوجودي إلى جانبها، وبسلام رقيق يحتلني، فحضور من اللحظة سأحبكه بحضورها، وما عليّ سوى الاسترخاء، والاستعداد لاستقبال ما ستحس به فاتن. أشعر بالوجل يزحف نحوها ببطء حثيث، لا أعره اهتماماً خاصاً. تتأبط ذراعي بمجرد أن يبدأ المشهد

الأول بالتكرار، ونتوجه معاً إلى الشاشة التالية، ونجثو على الكنبه التي تواجهها. تحتل الشاشة الثانية مقدمة قارب خشبي صغير يترنح فوق المياه تحت سماء تتبعثر فيها غيوم رُسمت مع الأمواج المتلاطمة بالألوان الزيتية. على جانبي القارب يقف شابان ينظران إلى الأفق البعيد ويتحادثان ويتضحكان، أحدهما هو الشاعر أولاف، بطل القصة، فيما يجلس في مركز القارب رجل وسيم ممتلئ الجسد أشقر الشعر، يلبس بدلة بيضاء، يحدف باستمرار ويهدوء، يضع وردة حمراء في عروة سترته، تواجهه الكاميرا وتقرب من وجهه، يحدق بدوره عبرها، مردداً جملاً متناسقة، كأنها شعرية، عيناه زرقاوان وفيهما قوة وثقة واضحتان، تظلل وجهه ابتسامة ساخرة موقنة بكل شيء، لا تغيب. تقترب الكاميرا من وجهه أكثر فأكثر، وتسترسل كلماته باندلاعها المتناقل نسبياً، فيما نبضات قلب فاتن ترتفع ويعلو عويلها، تسألني بصوت خائف، مرتجف: «مي أرجوك، أخبريني، هل تحسین أن هذا الرجل يكلمك شخصياً؟»، أتأكد من فوري بأنني لأول مرة، سأرافق فاتن قصتها، وسأكون شاهدة عليها، وبأن ألبرت أرادني أن أكون معها، أو على الأقل سمح لي بذلك، لسبب لا أود أن أبحث عن احتمالاته الآن، هذا هو فقط ما أنا على استعداد له، ولا أكثر من ذلك أبداً، فأنا لست متأهبة لأن أكون طرفاً مؤثراً أو لاعباً في الحدث، بل فقط شاهد عليه. أجبن وأردد بإصرار لنفسي، كأن هناك من يسمعني وسينفذ رغبتني: «أنا لست مستعدة لأرى ما تراه فاتن، لا تريني ما تراه الآن».

يبدأ صوت فاتن بخيانتها، يتهدج ويختلط بدموعها فتكرّر على مسامعي: «هل ترين ما أرى، هذا الشخص الخارج من الشاشة، يقف أمامي ويكلمني أنا، ينظر في عينيّ كأنه ألبرت، لا أقوى أن أحيد نظري عنه، إنه يتكلم بصوته، جُمله تأخذ إيقاعه، بطيئة ومؤثرة، تصلني وترسّب في أعماقي، وتحتلني المشاعر نفسها التي تولد بي وأنا في حضرته. ما هذا الذي يحدث لي؟».

تمسك يد فاتن ذراعي وتضغط عليها، تستنجد بي ورأسي مسمّر على الشاشة، لا ألتفت نحوها، أتركها تعيش الحالة وحدها، وجلة من أن أفسد الأمر عليها، وشعور عارم بالامتنان من مجرد توثيقي للحدث يطمرني ويكفيني، لا يوهني بكاؤها، مدركة أن هذا هو ما يريده لها أستاذها، وهذا ما عليها أن تحبّه اليوم هنا. في لحظة هذا المشهد الغريب والآسر معا، يحرك الرجل ذو البدلة البيضاء وجهه إلى الأسفل، ويتوقف عن الكلام، ثم ببطء شديد يرفع وجهه وتتسمر عيناه على الشاشة الملتصقة به لأقصاها، ويبدأ بالكلام، المتساوي النبرة كآلة، تتداخل جملة وتعيد نفسها كأنها تتبع لحناً آتياً من مكان ناء. أدرك أن ما أراه يبدو طبيعياً، وإن كان غير مريح في بُعد ما، وأن ما تمر به فاتن ليس بإمكانني التكهن بالعمق الذي نفذ به إلى دواخلها. كان المشهد يعاد ويعاد، إلى أن وجدت نفسي أكرر على مسامع فاتن، كأنني أهدئ من روعها، الكلمات الشعرية التي كان يقولها الرجل ذو البدلة البيضاء:

«لقد حان وقتك، أنت القوي، أنت الخلاق، أنت الذي سيعيد اكتشاف

عالمه، آمن بنفسك، ولا تخف، الوقت هو الآن، الوقت هو الآن».

فاتن تعيد على مسامعي همساً، وبصوت متهدج من بكاء عميق ودائب:
«أنا خائفة، لم أشعر بالخوف في حياتي كما أشعر به الآن، ما الذي يريده
مني، لماذا ينظر إليّ على هذا النحو؟».

حين أيقنّا أننا سمعنا ما قاله الرجل كاملاً، تنتصب قاماتنا، لا ألتفت
إلى فاتن، ونتجه صوب الشاشة الأخيرة، ويد فاتن لا تزال تُمسك بذراعي
بقوة. نجلس على الكنب التي تواجها، ونتابع المشهد، الشاب الشاعر، يصعد
الجل الجليدي منهكاً، والثلج ينهمر بغزارة عليه، فيزيد رحلته مشقة وتعباً.
فيما كان يدور المشهد التمثيلي، كان هناك صوت يردد الكلمات التالية، من
شعر الأديب هالدور لأكسينس ومن كتابه «نور العالم»:

«تابع طريقه، للوصول إلى الكتلة الجليدية، نحو الفجر، من حافة إلى
حافة، هناك في الأعماق، ثلج يولد للتلو، لا اعتبار يوليه للعواصف التي
قد تعترض طريقه. كطفل كثيراً ما وقف بمحاذاة شاطئ بحر لوزافيك،
وراقب الأمواج تتهدد للأسفل وللأعلى، لكنه الآن يتجه بعيداً عن البحر.
«فكر بي حين تكون في حضرة الشمس الجلييلة»، قريباً ستشرق شمس يوم
البعث على المسالك المضيئة التي تنتظر شاعرها. حينها سترجع إلى الجمال
وحده، سطوته وملكه».

«As a child he stood by the seashore at Ljósavík and watched
the waves soughing in and out, but now he was heading away

from the sea. «**Think of me when you are in glorious sunshine.**» Soon the sun of the day of resurrection will shine on the bright paths where she awaits her poet. **And beauty shall reign alone.**»

نتابع المشهد الذي يصل الشاعر فيه إلى القمة، فيستلقي على أرضها منتشياً أنه أدركها أخيراً، ينضم إليه الرجل ذو البدلة البيضاء، ويستلقي في جواره ويدس رأسه بين كتفه وعنقه، ويبادلُه فرحه بمحبة كبيرة، فيقول الصوت: «في المكان الذي يلتقي فيه الجليد بالسماء، تتخلّى اليابسة عن انتمائها إلى الأرض، وتتحد الأرض مع السماوات، لا يسكن البؤس هنا بعد الآن، إذًا لم يعد الفرح ضروريًا، يحكم الجمال وحده هناك، متجاوزًا كل الاعتبارات الأخرى».

«Where the glacier meets the sky, the land ceases to be earthly, and the earth becomes one with the heavens; no sorrows live there anymore, and therefore joy is not necessary; beauty alone reigns there, beyond all demands.»

وهذا ما أفعله مرة ثانية، أردّد على مسامع فاتن الجمل الشعرية، الذي أحس أنها بحاجة لأن تسمعها مرارًا. تنفسها لا يزال مرتبكا، وصوتها

متكسر لم ينته من بكائه تمامًا، فيما المشهد ينتهي ويعاد من جديد. لا أعود إلى حديثي الاعتيادي مع فاتن، إلا بعد تيقني بأنها هدأت، فتنفق رؤانا بأن هذا الرجل هو المعلم الروحي للشاعر، الذي رافقه في كل المشاهد إلى النهاية، حتى إنه في أحدها يقف وراء الكواليس ويغيّر بخلفية المشهد، يعبث بقدرية ما سيكون أو يمهد له، وحين ينظر إلى الشاشة نحو المشاهد، تلك النظرة الثاقبة، تهمس فاتن بأذني: «هذه هي نظراته التي أعرفها جيدًا، راقبيه جيدًا، إنه لا يزال ينظر إليّ». في المشهد الأخير، يبلغ الشاعر القمة، ومعها سلامه الأخير، يبدو الرجل -ذو البدلة البيضاء- في قمة سعادته أيضًا، سعادة تنبع عن محبة صافية وكبيرة، حب معلم لتلميذه، معلم ربما انتهى من مهمته أخيرًا.

ننهض من مكاننا حين نتحقق أن المفاجأة أو شكت على نهايتها، ونتجه نحو الستارة، نرفعها ونخرج من الصالة والذهول يملكنا، تتعطل حواسنا فلا تخرج كلمة من أفواهنا. نمشي مغيبتين بممر مظلم، ندلف من باب في نهايته إلى صالة فسيحة ومستطيلة، مضيئة وسقفها عالٍ، فنزفر هواءً ظل منحبسًا داخلنا طويلاً.

نبحث عن ليلي بعد ذلك، فنجدها تنتظرنا عند المدخل باستسلام، تستقبل وجومنا بكل دعة، نتلو عليها باقتضاب مدعائه، فنقول بحكمة تُفاجئنا بها على الدوام، وإن ضلت لبعض الوقت عنها: «لقد قُدِّرَ لمي أن ترافقك، ولم يُرد لي ذلك. لقد تابعتما المشاهد التي كان على فاتن أن تراها،

معا. ستتعاون كما نفعل دومًا، على فهم ما حدث. لنترك المكان، ونتمشى قليلاً لتتعرف على هذا الحي».

3

المأساة مع المسخرة

سحر رحلتنا لا يزال ملازمًا لي، وكل الإشارات التي تركها ألبرت لفاتن تشبه الصمت الذي يسكن عاشقين ينظران في عيون بعضهما بعضًا، ولا يجهدان بإيجاد كلمات توفي أحاسيسهما حقها. تتساءل فاتن حين كنا ننتقل بين المعارض الصغيرة المنتشرة في شارع المدينة القديمة الطويل، إن كان يمكنها في يوم من الأيام أن تقضي مع ألبرت يومًا ببساطة هذا اليوم، يمسك بيدها، يعبر بكلمات عادية عن انطباعه إزاء ما يمر بهما، يتسم ويداعب وجنتيها، وربما يطبع قبلة على خدها، يدع يده تتجول على ظهرها، وترجع لتعانق كتفها.

«أحلم أن يرافقني على الأرض، كما يفعل حين ير حل بي إلى السحاب، أرغب أن أتوقف عن التحليل، والغوص في الاحتمالات التي توصلني في كثير من الأحيان، إلى الإحساس بعجزي وغبائي. ألا يمكن للحياة أن تكون هزلية، تضحك منا، وتودنا لو أننا نغرق معها في ضحك هستيري من كل شيء؟». تقول فاتن «في لحظات التجلي النادرة، أحس بأننا نبالغ في أخذ الحياة على محمل الجد، بأن الأمر لا يتطلب كل ذلك، وسأقول كل هذه الدراما، لأغضبكِ مي!». تذكرني فاتن باتهام تميم الأزلي لي بالمبالغة بمشاعري، وبردات فعلي، اتهام تتفق فيه مع ليلى ومعه، ثم تبتسم باستسلام وتتابع: «أحياناً أنظر إلى الأخطاء التي قمت بها في الماضي، وأضحك مع نفسي من بلاهتي، وأندم أنني حملت القصة أكثر مما ينبغي بكثير، ولن أقول إنني أدرك الحياة الآن أبعد مما أدركتها وقتها، لا يتعلق الأمر بالإدراك أبداً، إنها بنية الاستقبال، ليس إلا».

تصمت ليلى التي تعرف تماماً ما يعنيه حقن النفس بالألم والطرق التي يجبرها على مشيها بعد ذلك، مع كل محاولاتها استجلاب الإيجابية عنوة.

«أتعجب فعلاً من وعيي الآن على سير المأساة جنباً إلى جنب، مع المسخرة في كثير من الأحيان. هل وعينا الحكمة من عبثية ما يحدث بلا توقف على أرضنا، فأصبحنا نواجهه بهزلية لاعب مولع بالتفرج والمتابعة، كما بالخسارة. لم أتخيل في أسوأ كوابيس هذه الأمة، أن يسخر من استيقظ على تعوقه من عاهته، أن يمشي رجلاً فوق ركام مدينته، وكأنها عمليات

إصلاح مؤقتة، مدندنًا أغنيات تعود على سماعها في كواليس يومه، أن تشاهد امرأة فجیعة فقدان امرأة أخرى لكل أولادها على شاشة ما، فتدعن حين تصبح في اليوم التالي هذه المرأة، أن يتشارك الجميع بضحك هستيري على أنفسهم وعلى بعضهم ويكملوا يومهم، كأن الأمل لم يمت مثلهم بعد. كم من المرات توجب علينا أن نموت لتتعلم اللعبة؟ أما لهذه اللعبة من نهاية؟». أقول.

«ليس هناك من معلم أقدم وأجدر من الحرب، أعلم أن الخسائر فادحة، وقد ذقنا جميعنا طعمها ولن نتعوّده، فلكل حقبة أبطالها، وأعلم جيدًا أن الجميع عاش مأساتنا، كما نعيشها اليوم معكم»، تقول فاتن بتأثر وبتعاطف كبيرين، تصمت ثم تتغير ملامحها كأنها بوغت بها يوجلهما: «تُرى كيف سيكون لقاءنا بعد يومين، أفكر بالألا أحضر محاضرتة لهذا الأسبوع، لا يمكنني مواجهته، ما الذي سأقوله له؟».

«إياك أن تفوّتي الحضور هذا الأسبوع، لن تقولي له شيئًا، ومتى فعلت! اذهبي، ولنر كيف ستكون ردة فعله». ترد ليلي بانفعال.

تصمت فاتن قليلًا قبل أن تلتفت إليّ: «حين تكلمت عن الحب، استفاق تميم بعد طول غياب، ما أخباره، وكيف تواصلكما؟ سؤال نخاف دومًا من طرحه عليك».

تتبعها ليلي باهتمامها فتكرر السؤال ذاته.

كم أمقت ملامح الانكسار التي تتلبسني حين أهتم بالروح، أراها بعيون المنصتين لي، الحاملين فجأة همي: «إنه يضيع مني، لا أدري كيف وأين ضييعته، إن كان قد تاه في يوم آمن وبعيد لمدينتنا، فأين تراه الآن بعد أن غزاها الليل ونسي نفسه فيها، فصحا على يوم لم يعد هناك من شيء يراهن فيها عليه! والدته هي الخيط الرفيع الذي يبقيه معلقًا بالحياة. كلما كلمته، أنهى حديثه بطلبه الدعاء لها ثم لبلدنا، فأصمت، وأردع نفسي عن تخيل غيابها. لقد جربت معه كل شيء، والبعد لا يساعدي، لا في الأمس ولا غداً. هو الذي فقد إيمانه بكل شيء، كيف أقنعه بأن يبقى على إيمانه بي؟ إنه لا يصدق أنني أحبه، أنني لن أخذه كما خذله كل شيء. أود أن أعانقه، أقبله، أمسح عن جبينه كل الخوف الذي يخيفنا معاً، أذيب كل الصقيع المحيط بقلبه، أتيّمه على صدري الدافئ، الليل بطوله، ولو لتلك الليلة فقط».

«أفهمك مي، في كل ما تقولين، يؤلمني ذلك كثيراً، وأشعر بالعجز معك، ليس بالحب من خيار، وما عليك إلا الامتثال الآن. ربما يتغير شيء بزيارتك المقبلة»، تقول فاتن.

«أخشى أن يكون قد استسلم فعلاً لقدر وطنه، ولا يريد أن يربطك به بعد أن حُلِّقَ بعيداً ونجوت، أتخيله لا يقوى على جرّحك، كما لا يمكنه أن يختار - بملء إرادته - الابتعاد عنك، فاختار الصمت، هو حله الوحيد، فمعه لا تعرفين ما يدور في خاطره، ولا يمكنك لومه أو مجادلته، فما من شيء حوله لم يتمّ حسمه. لا يمكنه أن يقدم لك شيئاً الآن، هذه هي حقيقة

الوحيدة، وإن كان سعيداً من أجلكِ ولا يهمه إلا هناؤك، سيحرص على
أن يبقى الأمر بينكما على هذه الحال». تقول ليلى.

الفصل العاشر

عشق لا نهائي

1

كلنا تلامذة ومعلمون على الدرب

سيهلّ فصل الصيف عما قريب متأبطاً موسم السفر، زمن ننتظره كما نهابه، كالرتابة التي على القدر الذي نتململ فيه منها، نجد في كنفها بعضاً من أمن وراحة. هكذا تأتي الغربة كل حين، وتلعب لعبتها، نشكي منها كما نتكى عليها، داخلها نحن بعيدون عن أوجاع الوطن والعائلة، وكل ما يأتي معهم من خيبات وانكسارات، نخبئ ضعفنا وعجزنا في حضنها، نخاف الاعتراف لها بفضلها، وإن باتت تراه في عيوننا. يحدث للمنفى أن يصبح وطناً مع الأيام، وللوطن أن يصبح مقبرة.

أتوق إلى لقاء كل شيء في مدينتي، إلى التوغل في عوالم كل ما فيها، إلى

أن أحظى بوقتي كاملاً معها، فليس لحديثنا عادة من نهاية.

في هذه الحقبة من الزمان التي انفجر فيها الجميع يطالب بالحرية، ما أبأس ألا نعرف شكل الحرية التي نطالب بها، لافتقارنا التاريخي لها! هل نعرف أنفسنا حقاً، وإن كنا لا نعرفها بدقة، كيف يمكننا الادعاء بأننا نعرف الآخر؟ هل هذا هو سبب الإشكال الذي يقع بيننا كل حين؟ مفارقة بين وصفي لرد فعل فاتن أم ليل، كأنني أعرفهما جيداً وبين ما تعرفه وتعتقده كل منهما عن نفسها، وقد لا تكون أي منا محقةً برؤيتها. لا بد أن ثلاثتنا -بشكل خاص- نمر الآن بمرحلة تشكيل معتقدات جديدة، قد لا نرى بدقة ما نمر فيه بظلمها وما تتركه من أثر فينا، لكننا صورة مصغرة عما يمر، وسيمر به الجميع، فالأرض غاضبة، وتزلزل تحت أقدامنا، ولم يكن الوقت أكثر إصراراً بمناكفتنا، لنقف أمام المرأة ونواجه حق كل الزمن الذي ضاع، والظلم الباهظ الذي دفعناه بإضرارنا النار في كل شيء.

كلنا تلامذة ومعلمون على الدرب، وقد آن أوان إدراكي للدرس الذي جاء به تميم من أجلي، وبتّ متأكدة من أنه يعرف به جيداً أيضاً، لذلك يلتزم الصمت، كأستاذ فاتن تماماً، اختار الوقت الذي سيظهر لي به، وذلك الذي سيغيّب فيه عني. لم تكن الثروة إلا لتعبئة الوقت الضائع، المنشور هباءً بيننا، والصمت جاء ليبقى، ليكون العصا التي تجبرني على تغيير وجهتي، وقد فعلتُ، وتغيّر كل شيء من وقتها. لم أعد المرأة التي تلحق الكلمات واللمسات، وتقيّم السعادة على قدر ما وردها منها، بتّ أيقن أكثر من

أي وقت مضى، أنني سأحبه العمر كله، وإن لن أحظى به أبداً. قلتُ له منذ زمن بعيد، بأن الحب موهوب لك وحدك، ولم أكن أعرف بأن نبوءتي ستصدق إلى هذا الحد. أشعر بالحب يغمري، يحررني من كل الآتي، أعدو خلفه ككلبه الوفي، أنظر في عينيه بشغف، لا يعرف الأمان إلا برفقته، حب يفيض مني، يمر بشوارع تميم ولا يتوقف عندها، تغرق فيه شوارع مدينتي وكل من يقطنها، يغمر الغابة الحاضرة أمامي، يصعد إلى السماء ويتحد مع عوالم لا يهمني إدراكها الآن.

2

«ألا يتصرف المرء بحماقة نادرة المثال
إلا حين يكون عاشقاً؟»^(*)

لقد غاب عني بضعة أسابيع، واعتدت احتجابه، فهو يجيد عقابي بسبب
يسهل توقعه وبآخر لا قدرة لي على التكهّن به. اقترب موعد دخولي مدينتي،
وجاء طيفه متأبطاً ذراعها، كما يفعل دائماً، بوجه بريء، لا سوابق له معي.
احتلت تفاصيل صغيرة تلافيف مخي الأخرق، وتلاشى منه كل ما أقصّ
مضجعه لشهور طويلة. أستعيد وجودي معه في سيارته في آخر لقاء بيننا
الصيف الماضي، وذراعه ممتدة نحوي، ملتفة على ذراعي وتعانق يدها يدي،
والطريق أمامنا يطول، يجول بنا في شوارع مدينتنا المزدهمة والمسكينة، التي

(*) غادة السمان.

أؤكد له أنها لم تتغير بعد سؤاله لي عنها، هائمة به، وبها أتوه عن العنوان الذي يفترض به أن يوصلني إليه، أغرق في دقائق يديه، بجسده الرياضي ومهارته في قيادة السيارة، وتفادي كل من يشب أماننا فارصًا وجوده علينا، من المارة إلى راكبي الدراجة والموتوسيكلات إلى أطفال أشقياء يلعبون إلى بائعي المحلات خارج محلاتهم يستجدون الرزق أن يسمع نداءهم، إلى السيارات المعترضة طريقنا من كل صوب، كلها لا تلهيني عن الهيام بعقب جسده، بنبرة صوته التي لا يهم ما تقول، بكل ما صدر ويصدر عنه، فأتوه عن وجهتي بعد تجربتنا لبضعة مسالك لها، فأقرر خجلًا وكذبًا أنني أدركتها، ينزلني وسط ظلام ينسى أنني لم آلفه في مدينتي، مدينة احتار كيف يغتالها الجميع، ولن أعرف من أين أضمد جراحها يومًا. أمشي في الظلام وحدي، ألتفت حولي عليّ ألمحه قد ركن سيارته وعدا نحوي بعد إدراكه خداعي له. أحدّق في الظلام إلى أن يتلاشى بانهار دموعي، أختنق بغصات أعرف طعم مرارتها جيدًا، ثم أتابع المشي غائبة، أعانق يومي معه وبحضرتها كأنه آخر يوم لي معها.

3

يوم آخر بتقويم مدينتي

وصلنا مطار بيروت أخيراً، استرحنا يومين في بيت جد زياد في الجبل،
أتجاوز بهما زحمة الحدود البرية أثناء العيد. وما إن استقليت العربّة التي
ستأخذني وحدي إلى دمشق، على أن يلحق بي زياد بعد بضعة أيام، حتى
غرقت بتصوري لأيامي المقبلة فيها، أضع برامجي وأورّعها، خائفة من أن
يسرقني الوقت ويحرمني من أي منها، متناسية أن صراعنا الآن ليس مع
الوقت، ذلك الصديق القديم الذي تجاذبنا معه أطراف اللعب في عمرٍ
ولّى ومضى.

تخلّلتُ مشواري في دمشق القديمة وتيهي بشوارعها، مروري على أصدقاء

الدرب فيها، شرب الشاي معهم والاطمئنان على حالهم والاستماع إلى شكواهم وحكاياهم في هذه الأيام العصيبة. تخيلتُ تحديقي في الوجوه الحائرة التائهة معي في دروب المدينة العتيقة، المتعبة من ظلم الأيام وحنين الأمكنة، فالكثير منهم تركوا بيوتهم المحترقة أو المدمرة ولجأوا إلى المدينة الأم، فمواجهة قذائف طائشة كل حين، أصبح الاحتمال الأكثر أماناً الآن. ولكي أجسّد تخيلائي، افتتحت حديثاً مع السائق، أسأله فيه عن الطريق من بيتنا إليها هذه الأيام، وبأنه عليه أن يأخذني هناك في الصباح ويعود لاصطحابي مساءً. راجعت معه الأماكن التي سأتوقف فيها، واتفقنا أن نفرد لسوق باب سريحة يوماً مستقلاً، أشتري منه ما يحلولي من الطعام، ثم اتفقت معه على يوم آخر نقضيه في سوق مدحت باشا، أتفقد به أحوال محالها وما طراً على مقتنياتها، حتى إنني انتقيت في مخيلتي ما سأخذه للليل وفاتن. توقفنا في طريقنا أمام العديد من الحواجز الأمنية، باجتيازها كان يقصر الطريق ويخيل إليّ أن شارعنا يلوح في الأفق القريب، لكن وصوله كان يأخذ وقته وبانتظاره استرجعت صخب الكلام الذي دار حولي في اليومين الذين قضيتهما في لبنان. ندمتُ كيف يجرجرني فضولي وحسن نيتي إلى حوار لا يفتأ يذهب في كل مرة إلى الموقع ذاته، أرض تغمرها انتماءات كثيرة، أتوهم أننا بهذه المنطقة قد نتحرر منها يوماً. الكل يدب فيه حماس الحق، فيحكي لك عن واقعة جرت في تاريخ ما، حصدت ضحايا من الجهتين، يسلط الضوء فيها على الضحايا من طرفه، تصبح أرقام ذاك التاريخ عنواناً لذاكرة حقد جديد، يكرره قومه كعيد ينتظرون

الاحتفاء به، أو كلقب يوحدهم ويقوهم في مواجهة الآخر، الذي لا أقرب إليهم منه. أتوه بعدها بين محبتي لهم جميعاً وبين امتناني لحسن ضيافتهم، وخرجي من أن أعترف لهم بأنني حزينة من أجلهم وبأنهم يخطئون مجدداً بحق وطنهم، فأرتطم مرة أخرى بذاكرتهم التي لا تنسى إخفاقاتنا معهم في حربهم الأهلية الطويلة، وتضيف عليها اليوم تحملها عبئاً كبيراً باستقبال كل الوافدين على حدودها.

سكون الليل يغمرني ويجلّل الشارع أمامي ومحبة عارمة تجتاحني، تلغي الحدود واللغو وأسباب الاختلاف، تفرض نفسها على دواخلي وتطير بي، تنتصر على خوفي وغضبي، على خيبيتي المؤقتة، تريني الأرض من علو؛ كم هي جميلة ديارنا وكم هي طيبة!

أدركنا الحاجز الأخير في رحلتنا، صودف أن يكون موقعه على بعد خطوات من بنايتنا، دقائق وألثقي والديّ وشقيقتي وأولادها، وينتهي ترقبي وطول انتظاري. وصلت أخيراً وتلقفتني قلوبهم المحبة الغارقة بطيبتها، وابتدأ حديثنا الطويل الذي لا يوقفه الوقت ولا انقطاعاته المتواصلة، التي يفرضها نداء الأطفال والجيران والتليفونات وصخب الحياة كلها عندنا. حين سألت عن خالي وخالتي، اللذين يقطنان وحدهما منزل جدّي في المدينة القديمة، فهمتُ سبب الهروب الذي قرأته في وجوههم، كلما التقت عيوننا وتجاوز حوارها ثواني معدودة. ففي الوقت الذي كنت أخطط مع السائق فيه لزيارتي للمدينة القديمة على الطريق من بيروت، كان يُقصف حي القيميرية بقذائف الهاون العشوائية، بعد هدنة امتدت بضعة شهور،

قذائف حصدت عددًا من الأرواح، وعددًا أكبر من الجرحى، بعضها كان في بيت عربي قديم حوَّله أصحابه إلى مطعم شرقي، وآخرون كانوا يمشون في شوارعه الضيقة الملتوية. كانت بين الضحايا ثلاث فتيات كنَّ يحتفلن بعيد ميلاد طفل إحداهن، لم يتجاوز عمره عامًا واحدًا، ترددت الأقدار بقتله ورمته تحت الطاولة إلى حين، فلم يره أحد، ولم تنجح معه كل محاولات إنقاذه المتأخرة، وعلى طاولة بجوارهن، كان يجلس مجموعة من الكتاب وهواة الأدب، أصيب منهم من أصيب وقتل من قتل، وألغى معه موعد لقائي بأحد أصدقائهم المشتغلين بالنشر، لأحدثه عن روايتي وما عليَّ القيام به بعد الانتهاء منها. كان خالي ناجي يقف على مشارف الموت كعادته، على باب محله، يستقبل بجسده النحيل وقلبه الطيب الضعيف، هلع كل المارين أمامه، ييكون، يستجدون، يحملون الأجساد الممزقة، يبحثون عن سيارات تنقلهم بعيدًا عن المكان، يروحون ويحيئون، يلعنون كل شيء، ينطقون بكلام لا يسمعه أحد، يحملون لو يرحلون ولا يعودون. أهااتف خالي فيرد عليَّ صوت كم أمسى غائبًا، يحكي لي كل شيء، من دون أن ينبس ببنت شفة، أسأله إن كان قد تناول غداءه، فيقول لي إنه لا يأكل منذ زمن بعيد، نصمت قليلًا، تنهمر دموع لا أود أن أكفكفها، فهذا يوم آخر في تقويم وطني، لا يختلف عن غيره من الأيام، أجسادنا مسجاة فيه على الطرقات، لا يهमे عددها ولا كيف كان شكل رحيلها. كل الحكايات حزينة، يرتطم صوتها بقلوب ميتة، لا تحلم إلا أن يدعوها وشأنها ويكفوا فقط عن العويل. أقتل الخط وأسدل الستار على مشواري، إلى إشعار آخر.

صباحات دمشقية

«وصلت؟».

تصلني أحرفه الشحيحة التي لا تريد أن تقدم لي شيئاً كعادتها، تودّ أن تكون طليقة، لا يربطها أي التزام نحوي. لا أجد الأحرف التي سأرد بها عليه، التي سأحملها خيبيتي أو ربما عدم اكتراثي أو توقعي لأي شيء منه. «منذ يومين» أجدها الأكثر بروداً وتعبيراً عن حالتي، هكذا بلا لون وبلا شوق.

«إني قريب من منزل والديك، هل ترغبين بأن أمرّ عليك وأقلّك بسيارتي؟»
يباغتنني سؤاله بعد بضعة أيام.

«لست على ما يرام اليوم، ربما غداً».

«غداً سأكون مشغولاً بوالدتي».

«بعد غدٍ إذاً».

«لقد أضعتِ فرصتكِ»، يرد مازحاً.

هل كنت أنتظر شوقه، أم كلماته العفوية التي لا تأتي، تحتفي بقدومي؟ أين العهد الذي قطعته على نفسي؟ ما له يحضر في كل مرة أثب فيها فوق عتبة مدينتي، يأخذ مكانه كأنه حق أبدي له؟ متى سنعي أن موافقنا لم تعد لنا، وهل ستدعن مدينتنا لحقيقة أننا لم نعد معاً؟ هل كنا نروق لها؟ هل تحتضن قصتنا في سجلاتها، وتذرف الدموع حين تقرأها؟

«حشوفك؟»، كلمة أخرى من كلماته المختصرة، أستلمها منه بعد أيام.

«سأعود إلى بيروت مرافقة والدتي لاتمام بعض الفحوصات الطبية الضرورية».

«ستعودين؟».

«بالتأكيد بعد يومين آخرين».

«إن كنت ستعودين، سأسمح لك بذلك» ولا يقول: «سأت إليك، سأتجاوز كل الحدود بيننا، الفعلية منها والمفتعلة، كلها بضعة كيلومترات، وأقضي اليوم معك على البحر مثلاً». افتراضات لا نهاية لها، ملّ رأسي من تجوالها داخله بلا فائدة كل هذه السنين.

يعود شوق لم ير حل عني، على مهله إلى مكانه، أعانده تارة، وأتمرغ به تارة أخرى، ثم أستسلم له معظم الوقت.

تستمر هذه المناورة بيننا إلى أن تقترب إجازتي على نهايتها، أقف في مواجهة تعنّتي وتعنته، أذرنا متكاثفة، تنتظر انكسار أحدنا واستلقاءها على المائدة بيننا بلا حراك، ننظر بأعين خائفة نحونا، أعيُن لا ترى، لا تود أن تبصر شيئاً، تتمنى أن تنام وتنسى، أن تحلم أحلاماً عادية، تصحو منها على يوم بسيط يمضي كغيره بلا جروح وبلا وجع. مع وعيي الكامل لشوق عنيد ينخر في داخلي منذ الأزل، لكن ذاك التردد بين الشوق واللا شوق، بين الغرق والصعود إلى السطح على عجل، بين أن يكون الباب مشقوقاً أو أن يكون موصداً، بين كلمة من خمسة حروف أو الصمت، لم تعد لي قدرة عليه.

يقولون: «يا لصحراء الوحشة والاتهامات المتبادلة التي يدعوها الإنسان حباً».

أجلس على كنبه في غرفة صغيرة حوّلتها أُمي إلى غرفة معيشة بعد أن كانت غرفة نومنا، أنا وشقيقتي، فأخالني مستلقية على كنبه شرفة بيت جدّي بباب شرقي، حيث كانت تمددني خالتي عائدة ليلاً، وتمسح لي وجهي وجسمي الصغير بالكحول، تمرّره على أنفي لأشعر بالانتعاش و(أبورد) كما كانت تقول. أتمدّد عليها بمواجهة باب الشرفة المشرع بها لا يتجاوز عرضها، أستقبل منه نسائم دمشق الحزينة، تداعبني فأغمض لها عيني،

أبتسم، أغيب، فتنسى دموعي أسباب انهارها، أكتفي بحديثها، بلمساتها الوديدة، الرقيقة، نسائم لا يهون عليها بنا ولا تزال تقاوم من أجلنا.

أستعيد سكينتي وأقرر أنني على استعداد الآن لأن أدع نوافذ الماضي تفتح درفاتها في وجهي، لم يكن الوقت أفضل من الآن لأقلب الصفحات وأستمع إلى بوحها القادم من بعيد. يتداخل صوت جدّي مع صوت قلبي، صوت لا أعرف ما سيلقيه عليّ وصوت تناسيت إلى اليوم ألمه وعبه براحتي. أبدأ بالصوت الأقرب لي فيزيائيًا، وأترك الآخر إلى حين زيارة بيت جدّي.

أفتح خزانتي، أرى فساتيني القديمة تنتصب فيها كما تركتها، أجلس الكرسي الصغير وأتسلقه، يصبح الرف العلوي على مستوى نظري، أبعد مجموعة من قطع الملابس المطوية والمرتبة فوق بعضها، ينكشف لي ما وراءها، فيظهر ملف أزرق كبير، يحوي بعضًا من رسائل إلى تيم. في السنة الفائتة، خشيت أن يفتح عليّ الوجود بقراءتها، فتدفق بقلبي روافد له كانت قد جفت منذ أمد بعيد، كنت خائفة من لقاء الفتاة التي كنتها معه، من انفضاح مشاعري مرة أخرى أمامي، من مواجهة ندمي، مع أن لديّ قناعة عتيقة من أن الندم شعور لا قيمة له حقًا، خيار اليائسين والخاسرين لكل شيء، هي حالة لن أرضاها لنفسي ما حييت؛ أنا الآن متأهبة لكل ما سترميه كلماتي في داخلي. أحمل الملف الأزرق برفق، وأتجه على مهل إلى كنبتي، وأخذ وضعي المريح عليها، أتنفس نفسًا عميقًا، أتبعه ببضعة أنفاس أخرى، ثم أفتحه.

رسالة 1

كم دخلت صالة المسافرين بمطار دمشق ولم أعتد وحشتها، لكن لطعمها اليوم مذاقًا مختلفًا، لم أعرفه من قبل، هناك شيء آخر يولد ويعتمل في داخلي، يحوم ويدور، يحوّفني ويملؤني، يوهّني ويفرحني، أريده وأهابه، يشدّني وأرغب بأن أستسلم له، لكن الوقت فات، فأنا على مشارف الرحيل.

أنظر حولي باضطراب من انتبه فجأة إلى فرصة يدنو منه ضياعها، فألمح كابينة الهاتف العمومي التي لم يسبق لي أن أستخدمتها من قبل، أبحث في حقيبتني عن قطع معدنية نقدية، فلا أجد بحوزتي أيًا منها، أرجع إلى مراقبة المشهد حولي، فأجد امرأة تحمل طفلها الصغير على يديها ويحوم حولها أطفالها، لا أتردد بسؤالها إن كانت لديها قطع نقدية معدنية لإجراء مكالمة تليفونية ضرورية، تتلّكأ قبل أن تدخل يدها في حقيبتها لتخرج منها ليرة سورية واحدة، تعطيني إياها بلا أدنى انفعال، أخذها منها وأهرع إلى كابينة الهاتف غير مبالية بأحد، أمسك بيد تلك القطعة المعدنية البائسة، وباليد الأخرى ورقة صغيرة كثيرة الانثناءات، عليها رقم هاتفك الذي أودعته

يدي حين فتحت الباب وهممت بالخروج من مكانك، كنت أحمل بطاقة دخولي العالم الآخر الذي أعرف أنك تنتظرنني فيه. أدخل الليرة في الفتحة المخصصة لذلك، أضغط أرقامك السحرية، وبعد رنين أو ثلاث يأتيني صوتك، أدخل عالمك ويُغلق علينا بابه، أخبرك أنني في المطار بطريق عودتي، وبأنني أخذت من سيدة لا أعرفها ثمن اتصالي بك، فينقطع الخط.

أرجع إلى برودة الصلاة، أمسك بيد عربتي، أدفعها وأمضي بين الجموع. أقف في الصف الموصل إلى كاونتر وزن الأمتعة، أستحضر لحظات لقائنا، وكل التجاوب التي خلقت في داخلي من وقتها، والمراجيح التي تعلو وتهبط بلا هوادة في قلبي. يتناهى إلى سمعي اسمي تذيعة المضيئة الأرضية، يقطع سبيل الإعلان عن الرحلات التي على وشك الإقلاع في حينها، تسأل صاحبتة أن تراجع استعلامات المطار، أتردد بتصديق ما سمعته، إلى أن يتكرر وأسمع اسمي مجدداً. أخرج من الصف بسرعة، لاهية عن اقتراب موعد إقلاع رحلتي، أذهب إلى الاستعلامات، فيؤكدون أن هناك اتصالاً مهماً عليّ استقباله. أمسك بسماعة الهاتف، فيأتيني صوتك، صوت يلبي نداءات الحب كيفما وأينما جاءته، صوت عرف منذ البداية كيف يُدخلني عالمه ويُقفل عليّ بإحكام داخله. لا أذكر ما قلته لي وقتها، لكنني أعرف تماماً أنك كنت تقف في داخلي، أقرب ما يكون مني، لا غياً عالمي البسيط الساذج ولحظاتي الفارغة الطويلة فيه. من يومها غدا عالمك هو ما أصبو الاستيطان فيه، وأخذت عهداً مع نفسي بأنني لن أضيع فرصة تدعوني فيها إليه، في أي وقت، إلى آخر نبض لي بهذه الحياة.

5

جدّي

قلّبت الصفحات وقاومت أوجاعها، فاجأني نسياني لبعض تفاصيلها،
أما مفاجأتي الأكبر؛ فكانت في جمل تحمل وعياً روحياً لم أنتظره مني وقتها،
أرجع فيه إلى يقيني الفطري، بأن المعرفة موجودة دوماً في داخلي، تكشف
لي عن حالها في لحظات أتصل بها مع روحي.

كنت أقرأ رسائلتي لتميم، فيما صوت جدّي يداعبني، ينتظرنني أن أحرره
من انحباسه طويلاً في الظلام، لا بد أنه سيفرح بحفيدته التي سمعت
هسهسات نداءاته الآتية من العالم الآخر. لم أجد أهمية من أن أقص على
أحد حكاية جدّي، فإلى جانب أنه لم يصدقها أحد حين جربت ذلك وأنا

صغيرة، أشحت انتباهي عنها ولم أتحذ قرارًا بتصديقها أم لا، وها هي اليوم تستيقظ في داخلي، وتدفع إليّ بأشعتها الدافئة، وبأوراقها المهترئة.

كان جدّي يعشق الأدب والموسيقى ويمضي وقته في كنفهما، إلى جانب باعه الطويل باستخدام موهبته بالوساطة الروحية التي دفعته للانضمام إلى حلقة روحية كانت تجتمع أسبوعيًا ومرات كثيرة في بيته، تُستحضر باجتماعات أعضائها، أرواح أدباء وشعراء وأفراد تركوا بصمتهم في التاريخ، تشاركهم نقاشهم المترنح بين الأدب والتاريخ والسياسة، فتضفي إليه نفحًا خاصًا من عوالمها.

احتفظ جدّي بكل جلسات حلقاته مدونة في دفاتره، التي لم ينبج منها مع كتبه إلا قلة، معظمها بقي في بيت جدّي والقدر اليسير سمحوا لوالدتي باصطحابه إلى منزلها. فقد ما فقد منها بغرق سقيفة المنزل بالماء منذ سني مضت، ثم بضياح ما حاولوا إنقاذه منها بإرسالهم إلى بيت أصدقاء والدتي في معلولا، وتعرض بيتهم للاحتراق حين داهم التكفيريون البلدة، ودمروا وأحرقوا الكثير مما طالته أياديهم ونفوسهم القذرة.

ذهبتُ، أخيرًا مع والدتي إلى بيت جدّي، تسلقنا بضع درجات حجرية صغيرة للوصول إلى سقيفة المطبخ، مكاني السري الذي طالما أضاعوني ووجدوني فيه أثناء طفولتي، أنقب في كل شيء، في خزائن المونة وصناديق صابون الغار والخطب، في حقائب الملابس القديمة والأقمشة الرثة، في ألبومات الصور والكتب المترية، في الأسطوانات الكثيرة والقطع المختلفة

الأحجام التي لا أعرف لها استخدامًا أو اسمًا. نبحت في الصناديق المبعثرة فيها، فنجد بعضًا من دفاتره وكتبه، فأستولي عليها ككنزي المفقود ثم أعود بها إلى بيتنا. أجمعها على ما وجدته من قبل بحوزة والدتي وبنهم أقلب فيها. ألتقي جدّي، أسمع صدى صوته الآتي من بعيد، أتعرف على تساؤلاته ومواطن اندهاشه، على اكتشافاته الصغيرة، على أسطر لأفكار مبعثرة ورسومات كثيرة متشابهة ومعظمها هندسي، نقشها على هوامش الصفحات، عوالم فتنته كم تشبه عوالمّي الآن، أطلع على نهمه في البحث، في زمن كانت الكتب فيه قليلة وما يصلهم منها مترجمًا، كان شحيحًا أيضًا. متعة أن ألمس شغف جدّي وأمشي معه خطوات فيه، أن أرى خطه وطريقة ترتيبه للصفحات، أن أسمع بوحه وثرثرة دماغه، مجرد أن أرافق سجيته، متعة لا تقاس بقيمتها. أعدّ جدّي دفاتره بخط يده، سطرّها ورتّبها ثم كتب فيها بقلم حبر سائل، بعضها ضمت يومياته، وأخرى ضمنها الكثير من خواطره، أحدها بدأه:

يوم الأحد الموافق 1968-12-29

خاطرة

خطرت لي سابقًا ولا أدري متى كان تاريخها

رُبّ سائل يقول، ما بالك تسعى السعي الحثيث للحصول على الوساطة الخطية، رغم ما يعتريك من الوهن والتعب من عملك المضني، فأجيب؛

شغفي بهذا الفن الروحي وبفني الحقيقي في هذه الحياة الزائفة، دعاني إلى السعي الحثيث للوصول إلى شرف هذه الوساطة، لكي أتمكن من سدّ ذاك الفراغ العظيم، والاطلاع على بعض أسرار الحياة، من خلال متابعة ما كتبه أهل العلم والبحث، وأضيف إليه من تجربتي الشخصية، آملاً الوصول إلى نتيجة مرضية تكون منهاجاً لكل من يود أن يصل إلى شاطئ العالم الفاني بأمان وسلام.

الكثير من الدفاتر كانت تسجيلاً لوقائع جلسات الحلقة الروحية التي ألفها مع أصدقائه بدمشق سنة 1932. أما الكتب فمعظمها إصدار 1920 وما قبل ذلك، بعضها مترجم، يتكلم عن عالم الأرواح والموت، وبعضها الآخر باللغة العربية، ككتاب بهجة الأفراح في مناجاة الأرواح، للدكتور إبراهيم عريبي، إصدار 1932، وكتاب العقل الباطن أو مكنونات النفس لسلامة موسى، كتاب الذين هبطوا من السماء، أنيس منصور، دار الشروق، وهذا الكتاب بالذات، رجع جدّي وكتبه بيده من شدة افتتانه به، وامتلاّت الهوامش بملاحظات وأسئلته، أما البقية فكانت لكاثبه المفضل، جبران خليل جبران.

دوّن جدّي، على لسان الوسيط الروحي، كلمات جبران من العالم الآخر بأحد دفاتره، مساء 30 نيسان 1932؛

يا سائي أين عنا الروح تنصرف وكيف تمضي إلى الأفلاك أو تقفُ
وكيف تترك جسمًا طالما حُيِّست فيه، وهل عندكم في الخلد من يصفُ

أبشّر بسؤلك أمراً كنت تجهله ما الروح إلا قوى كانت لمن سلفوا
صيغت بأجل حسنٍ حار رائدها وقد درى الناس كيف الشمس تنكشفُ
كل القوى حصرت في الروح من أزلٍ وصغرت من قوى الرحمن لو عرفوا
شاءت مشيئته خلقاً فصوّره هياكلًا وبها من روحه تحفُ
فكيف تسأل عن نور إذا انتشرت ذراته ثم عادت كيف تأتلفُ
هذه هبات إله جل صانعها دلّت على شأنه من راح يختلفُ

و حين سُئلت روح جبران عن النار الأبدية:

نار تأتجج في صدري وفي خلدي عما أتيتُ من الآثام في زمني
ساعت فعالي والأفلاك شاهدة أي أطاول هذا الليل في محني
كان الشباب يضحي رشدا فغدت أعمال ماضي حياتي كلها حزني

هناك العديد من القصائد التي نظمها جبران بعد موته، تنام في دفاتر
جدّي، أحببتُ منها قصيدة أو نشيد إكسير الحياة، إلى جانب القصيدتين
السابقتين، كما توجد قصائد لشعراء راحلين آخرين. هناك أسئلة وجودية
وأخرى غيبية، خواطر وأفكار، أيقظت في داخلي تساؤلات كثيرة.

بدفق ما ينتاب رأسي من أفكار، أسترجع قولاً لواين داير عن الروح،
قرأته وارتحت له منذ مدة قصيرة «إنها الجزء غير الموجود، الخالد والعصي
على التغيير فينا. هي الجزء الذي ينظر من خلف عيوننا وليس له شكل
يحدده، إنها لا نهائية، فلا دخول أو خروج منها، موجودة في كل مكان،
ولا يخلو مكان منها».

إن كنا لا نخرج منها ولا ندخل فيها، أين نحن إذاً منها؟

تُرى، هل أراد لي جدِّي أن أقرأه، هل أخذت شيئاً عنه؟ هل هي مصادفة أن يكون لخالي عليّ، لأمي، لزياد ولي أنا موهبة روحية؟ تُرى هل القدرات الروحية تورّث كما تورّث الجينات؟ أم إنها بحد ذاتها، لها تركيب جيني خاص بها؟ هل توقع جدِّي أن جهده وشغفه سيؤثران في مسارنا، نحن ورثته، وربما ينتقل إلينا؟ تُرى هل لنا يد باختيار أقربائنا، هل نختارهم من البداية؟

في كتاب «بهجة الأفراح بمناجاة الأرواح»، فنّدت الفصول كأئلة، تشبه بطبيعتها أسئلتي. أضحكني قول لتشارلز ديكنسون بعد موته ومحاولة مناجاة روحه «أنا في عالم آخر ولا زلت بشوق للكتابة» وهُيئَ إليّ أنني سأردد تماماً قوله بعد مماتي، إلى الدرجة التي بتُّ فيها أخشى أن أرحل قبل أن أحقق حلمي.

أقرأ فقرات مطولة في دفاتر جدِّي عن حضارة الأتلانتيس، وأتعرّف على شغفه بالتعرف عليها والتعلم منها. يصفهم بالقوم ذوي البشارة الزرقاء والقامات العالية، فأخيلهم شخصيات أسطورية خرجت من إحدى حكايات الخرافة العلمية. يكرر بزهو أخاله يتملكه حين يكتب عنهم، بأنهم أصحاب العرق الأزرق، الذي يفاخر الأرسطوقيطيون من الأوروبيين بالتكني به، وإليه تنسب دماؤهم التي جرت في عروقهم يوم هجرة من نجا إليهم، حين غرقت حضارتهم تحت الماء. لكن ما الذي

ميّز الأتلاتنسين عن غيرهم، ولماذا كانت لديهم هذه الخطوة عند جدّي وغيره من الروحانيين والمهتمين بالحضارات عبر التاريخ؟ يبدو أنهم تفوقوا بوعيمهم على الآخرين، وعاشوا حياة يقودها حدس لا يخيب. لكن ما الذي أغرقهم ومحا لهم كل أثر؟ من ذاك الذي استأمنوه وأسكنوه ديارهم فشّوه النصوص التي كتبوها لقدرهم؟

في آخر كتيب أتصفحه، أجد رسمًا أكثر وضوحًا لشكل هندسي يشبه أشكالا هندسية أخرى لمحتها في مواقع مختلفة. الرسم لدائرة، تلتقي بمركزها دوائر ست متماثلة ومتقاطعة مع بعضها، وبنفس الوقت تتفتح من ذات المركز ورده سداسية البتلات. يتهيأ لي أنني رأيت هذا الرسم الهندسي في مكان ما، في زخرفات صحن القيشاني السيراميك التي كنت أبتاعها في عملي، كما في بعض الأركان في قطع السجاد التي وقعت بين يديّ أو رأيتها مبعثرة في أماكن الله الواسعة على امتداد أيامي. ما الذي دعا جدّي إلى رسم هذه الأشكال بهذا الاضطراب؟ وما علاقتها باهتماماته هذه يا ترى؟

أحملق في الرسم الأخير، فأقرأ أسفله بحروف متقطعة كلمة (زهرة) وكلمة أخرى بجوارها لا ينجو منها ولا حرف يساعدني على تهجئته. أرجع إلى كتيبات ودفاتر أخرى، أبحث عن الرسم وأي عبارة بجواره ترشدني في بحثي، فأجد بعد جهد يسير كلمة يمكنني إخراجها من ضبابها فتكون (حياة)، أجمع الكلمتين على بعضهما، فأخرج بزهرة الحياة، فأهرع كالمجنونة وأبتدئ البحث.

تتدافع الأشكال الهندسية في وجهي، ومعلومات فيزيائية ورياضية تربط بينها وبين كل شيء في الحياة، كأن كل ما تعلمناه كل هذه السنين خُلِقت له بيئة جديدة، بيت وهواء وأرض مغايرة. تتراقص أرقام أعرفها ولا أعرفها أيضًا أمامي، تربط ما لا علاقة له ببعضه، ببعضه مرة أخرى، تخلق علاقات خيالية ما كان يمكن لها أن تكون، فتجعل لكل معنى طالما كان معلقًا في الفراغ في الحياة، معنى أكبر وأعمق، وإدراكًا أوسع. تصبح للخلية الحية والشجرة والمقعد والكلب الجميل الذي يرمقني بشغف من بعيد والهواء وللقطعة الموسيقية الأسرة التي تبكيني في كل مرة والمباني الرائعة، العبقيرية التصميم والآثار العجائبية من غابر العصور والمجسمات الفنية المبدعة على تنوعها، دارًا واحدة تجمعهم، توليفة رقمية تنفس خلاياهم وتصاميمهم بموجبها، وبشروطها خُلِقت وتكونت منذ البداية. توليفة أبحث عنها اليوم بطوله مع أنني لا أعلم بوجودها ولا أرتاح إلا حين أتمايل على هدرها وأتلاشى رويدًا رويدًا.

كل ما قرأته يأخذني إلى البداية، بأن هذا الرسم أو الشكل هو المخطط البدائي للكون، الذي يحوي الأساس الذي صممت عليه بنية الذرات والجزيئات وأي شكل حيوي وكل شيء موجود.

من ذاكرة جدّي أنفذ إلى ذاكرتي، تتلقفني الشابة ذات الثمانية عشر ربيعًا، المولعة بعلم الأبراج، تتوعد أن تكتب عن افتتاحها به وبمعجائبه، وهي لا تعلم حقًا منه شيئًا يكفي أن تضمه بكتاب، وتدرّك بأعمق بقعة

في ذاتها بأنها تعلم، تُذهل باحتفائها بمشروع توقن أنها لن تبتدئ به الآن، فإذا بها كانت تحفني بنبوءة مؤجلة، وعدها بها حدسها وحده، وإن كان بعد عشرات السنين. كنت أدرك علاقتي بالنجوم وبالأجرام، وإن كنت لا أعرف تمامًا كنهها، كنت أؤمن بالأرقام وأحجياتها، وتمكنت من وقتها أن أنقل مشاهداتي إلى من حولي، وانتقلت إليهم مناطق دهشتي، وحملوها معهم بلا تعريفات وبلا تبعات، بذهول المراقب لأعجوبة من أعاجيب الحياة.

منذ متى وأنا على هذا الطريق؟ لا توجد للوقت قيمة حقيقية على ما يبدو! وعي يدرك كل شيء منذ بداية البداية، والمعلومات كلها، العلمية وغيرها، كانت أداة من أدوات كثيرة على دربي، لم أكن أنتظر إلا عزيمتي، نيتي الأخيرة بالقفز من العلو الشاهق. كلها علامات ونداءات التقطها لا وعيي وانتظر بصبر ممتد اللحظة المناسبة فقط.

يصيبنني دوار في نهاية اليوم من دفع المعلومات، ومن تداعيات إسقاطاتها اللا نهائية في رأسي، أصل منها إلى الوعي الكوني، الذي أثرناه بنقاشاتنا مطولاً، وإلى وعينا الشخصي ورغبتنا الوليدة حديثاً بالصعود به إلى أماكن أبرد وأعلى، لأجد نفسي على سريري، ممددة بملابسي كاملة، تحيط بي الأوراق والدفاتر، في صباح اليوم التالي.

6

دمشق القديمة

هزمتني دمشق، وأغرقتني بلغظها وجلبتها، بحزنها وصمتها، بصياحها وعويلها، بخيبتها وانكسارها، بانتصاراتها وإخفاقاتها المؤقتة، بأوهامها وحقائقها اللجوجة، بإيمانها المتكبر وكفرها المكبوت، لم أخرج رأسي إلى السطح إلا لِمَامًا، لم أخلق فوقها كما تفت، إلا مرة واحدة، حين سرقت برهة من الزمن وزرت المدينة القديمة وحدي، بعد أن مرت بضعة أيام، لم تعكر سماءها قذائف خطط السلام، التي يُتعب العالم نفسه بها من أجلنا. كل ما أضنيت نفسي في تعلمه على طول السنة المنصرمة، لم يغثني هنا، وتُركت وحدي تتلاطمني أمواج الأسى الآتي من كل صوب، وربما من دواخلي أيضًا. خلت أنني الآن محصنة، محمية من كل من سيحاول غزوي،

وأن جسدي وروحي تملؤهما الأجسام المضادة، التي تدرك كيف تواجه كل الميكروبات القديمة والمستحدثة، لكن أمام الامتحان أُهِنْتُ واهتزت صروحي، وأصبحت على أبواب هزيمة وشيكة.

دمشق القديمة هي عشقي وملاذي، وما كان عليّ ربطها بأحد، هي وحدة أحيائها بحبها كما أفعل بحب تميم، حب موهوب لهما كاملاً، لا تشوبه شائبة، لا ينتظر عطاء ولا أي مقابل، والآن أشعر بالامتنان والرضا يغشيانني ويفيضان عني. سأذهب الآن إليها وأطيل بعناقها، أقبلها من وجنتيها وأمرّغ وجهي بصدرها. سأستمع إلى شكواها وأخفف عنها، سأنشر ابتساماتي في شوارعها، بين العابرين دروبها، في كل زاوية فيها، سأقف في وجه الكائدين لها، سأصد كيدهم بنحرهم، وأردهم إلى قبورهم خائبين.

في ظهيرة أحد الأيام التي جاوزت بها الحرارة الأربعين درجة، أستقل تاكسيًا من الشارع، وأتجه إلى سوق مدحت باشا. يتردد السائق باصطحابي ويحذرنني من ازدحام الطريق، ويطلب مني أجرة مضاعفة، أبتسم له وأعده بأن دربنا سيكون ميسرًا، ولا داعي لقلقه. إنه رجلٌ مسنٌ، أنهكته الأيام والآمال الكاذبة، يقود سيارته كأنها ستقوده إلى حتفه في أي لحظة. ينظر إليّ من مرآته مستخفًا بتفاؤلي وبفرحي الأبله. سيارته الصغيرة عبارة عن قطع حديدية مهترئة يجمعها على بعضها قدر هرم يتحدى باستهتار كل شيء، تنبعث حرارة الطريق من شقوقها وتنفذ إلى جسدي كحمم من بركان ثائر. أنظر إلى المشهد حولي، أمسح وجهي المتعرق بمنديل بيدي،

والفرح يخرج مني فضفاضاً، يطوّق اللحظة الحاضرة والمقبلة. لا أتوقف عن قول إن الطريق سينفتح لنا، وما على سائقي المسكين إلا ترقب اقتراب السوق المسقوف من ناظرينا. ترد عليّ نظراته المستسلمة حتى من عناء أن تصدقني. أصلي بإيمان أستغرب كيف أتوه عنه دوماً، أدعو ملائكتي أن تفتح الطريق لنا، فلا تخذلني. أصبح الطريق ككثبان رملية ننزلق عليها فوق كل ما يعترض طريقنا، وخُلِقت دهاليز بعرض السيارة العائدة من الموت مراراً، فمررنا بيسر فيها. كان المذيع مولفًا على محطة جبلية تبث صوت فيروز، تغني من أجلي، من أجلنا، تحتفي معي بمجد مدينتي:

شَامْ يَا ذَا السَّيْفُ لَمْ يَغِبْ يَا كَلَامَ الْمَجْدِ فِي الْكُتُبِ
قَبْلَكَ التَّارِيخُ فِي ظُلْمَةٍ بَعْدَكَ اسْتَوَى عَلَى الشُّهُبِ

غنيت كلمات تتوّج فرحي ومحبتي، والسائق يرمقني بنظراته التي نسيت الغناء، اللحظة كانت حاضرة كلها معي، والكون يشد من أزري بل يغني بأعلى صوته معي، جوقته بكل عناصرها تلحق بي، نغني كلنا بتناغم لا يمكننا أن نفتعله، يولد هكذا على سجيته ويغرق الوقت بالفرح. لم تتمكن فيروز من التوقف عن شدوها فعادت إليه بـ :

قَرَأْتُ مَجْدَكَ فِي قَلْبِي وَفِي الْكُتُبِ شَامْ، مَا الْمَجْدُ؟ أَنْتِ الْمَجْدُ لَمْ يَغِبِ
إِذَا عَلَى بَرْدَى حَوْرٌ تَاهَلَ بِي أَحْسَسْتُ أَعْلَامَكَ اخْتَالَتْ عَلَى الشُّهُبِ

تصل إلى بيت:

هذي لها النصر لا أبهى، فلا هُزمت وإن تهدها دهرٌ من النوبِ
والانتصارُ لعالي الرّأسِ مُنَحْتِمٌ حُلُوءًا كما الموتُ، جئتَ الموتَ لم تهَبِ
شامٌ أرضَ الشّهاماتِ التي اضطَبَعَتْ بِعِنْدِمِي تَمْتُهُ الشَّمْسُ مُنْسَكِبِ
تختلط ابتساماتي بدموعي، تغسلني وتحلق بي عاليًا، حيث أردت أن أكون
منذ أن وطأت قدماي أرضي، شاهدت الملائكة والقديسين وكل الطيبين
يقفون حولي، يترقبون أن تطأ قدماي الأرض ليمشوا ورائي وأمامي،
يتابعون الغناء، يشدّون على يدي ويبتسمون، تعمّرني محبتهم وحضورهم
الكامل معي. كيف عرفت فيروز ما سيلم بنا؟ ما لنا خلّقنا للخطوب وما
لها لا تياس من بأسنا؟

حين تكون اللحظة سخية بعطائها، تنسى ما تقوم به، تتلهّى عن مهمتها
الأساسية وتتحد مع جوقة فرح لا تسعها كما لا تسعنا. كلما فقد الكلام
ثقله، أعود فأستسلم إليه شعراً، فليس مثله يخترق الروح ويجفر فيها، ولقد
جاءني الآن أجمل هدية، تلقفتها من السماء كأعجوبة أخالها قامت اليوم
بعرضها من أجلي فقط.

ندخل الطريق الضيق الذي في نهايته يلوح السوق المسقوف، نتوقف
قليلاً قسراً، ننتظر أن تُنزل إحدى السيارات حولتها، الحياة في قمة جلبتها
هنا والرزق مسكوب بأشكال كثيرة رغماً عن كل من لا يريده لنا. أتابع
كل ما يحدث حولي من نوافذ السيارة التي وحدها تفصلني عن الجميع،
أكبت في داخلي رغبة بمدّ يدي خارجها ومصافحة المارة، الذين لم ييخلوا

بمبادلتي ابتساماتي بمثلها، أتابع امرأة عجوزاً، بسيطة الملبس، يغطي رأسها خمار ملون مهترئ، يفتح لها شاب وسيم باب محله، ينظر نحوي بتوجس من يتساءل عن غاية امرأة تبدو ميسورة من القدوم في هذا الجو القارس الحرارة إلى السوق، قبل أن يناولها ورقة نقدية يدسها بيدها. تبدأ السيارة بالحركة، أومئ برأسي بحثاً عن عينيه قبل أن تغيباً ثم أرفع إبهامي نحوه، أستحسن تعاطفه مع السيدة العجوز، فيشرق وجهه بابتسامة يعرف كلانا أبعاد معانيها بدقة، تعلق عيناى بريق عينيه، وتقولان كل شيء، كلام ببلاغة الشعر الذي امتلأت به روعي للتو.

مختالة أمشي في الشارع المستقيم، طريق الرسول بولس الطويل الذي امتحن به إيمانه، أمشي معه بإيمان أستجلبه معي من كل حيواتي السابقة، وبفرح يتحدى الزمن البائس المائل أمامي، بعزيمة فريدة لا تعرف إلا الحب. لم أكن محتشمة اللباس بالقدر المألوف، فلقد عزمت على مجيئي إلى السوق في هذا اليوم بلا تخطيط مسبق، ومع ذلك يستقبل الجميع مني الفرح والحب وحدهما، أرى النور يخرج من مسامي، يتحد مع سنا المدينة وكل قاطنيتها. أمشي وأمشي كأني منقذ الحي، مدفوعة بإحساس الأم نحو وليدها. في داخلي إيمان بأني سأغير بقدر مدينتي وإن لهذا اليوم فقط. أشعر بأنني قوية وملهمة، أثق أنه لا يمكن هزيمتي، كأنني بمهمة رسمية من السماء، أعني تفاصيلها جيداً وإن لم يلقنها لي أحد. أمشي طريق التاريخ القديم، فما من حضارة إلا وتسابقت بالمرور فيه وملاً خزائنها بمقتنياته.

أمرٌ بالمحلات الصغيرة على جانبيه، بالأبواب الصغيرة التي تفتح على مدن بأسرها ورائها، تنتقل قدماي على حجارته العتيقة التي تفتش دهايز وشوارع ضيقة، تكاد جدرانها على جنبها تنهاوى على بعضها فتجبرها عوارض خشبية على التراجع. أحبي صروحا أثرية على طوله وما أكثرها، أمرٌ في طريقي على النجار، صديقي القديم النبيل، أوصيه على قطع خشبية مطعمة بالصدف، معشقة بعبق الشام، أحملها معي فتبارك رحلتي وبيوت أحبائي بآخر مطافها، ثم أمضي إلى سوق البزورية، أكتنز ما أقدر عليه من روائحه وأعبئه بأكياس صغيرة، لا أتمكن من مقاومة نداءات صابون الغار وقارورات المسك متناهية الصغر، فيكون لها نصيب في حولتي. الحرارة الشديدة تحداني، فأبتسم بوجهها وأكمل طريقي. اجتاز سوق تفضلي يا ست والخياطين، خان الحرير والقباقية، أحبي كل ما تعودت على اقتنائه من بعيد، فلنا أيام مقبلة معًا من جديد. أصل إلى مدخل الجامع الأموي، أدور حول نفسي، أنظر إلى الأعلى، أعبر قوس الأعمدة الرومانية ثم أدخل سوق الحميدية، أغمض عيني، أختزن كل ما أسرني من وجوه، وأختفي بين الجموع.

أسترجع لقائي مع الكثيرين في مدينتي، تدوي في داخلي كلماتهم المترددة، ووجوههم الخائفة. كثير منهم يودّ الرحيل، يختاره لأنه خيار الأوساط الإعلامية بمعظمها، هو الصوت الأكثر امتلاكًا للصدى، وآخرون يؤثرون

البقاء، معظمهم من كبار السن الذين يرغبون بأن تكون محطتهم الأخيرة على أرضهم، التي لا يرون غيرها الأجدى برفاتهم، والباقي منهم بعمر الورد، ما أجملهم وما أنبلهم! بصيرتهم تتحدى الأحداث والكوارث المترتبة عليها، وتنفذ عبر الزمن حتى تكاد تلمس بارقًا من مستقبل مشرق بيديها. وحدهم يحمون الأرض ببقائهم، يسمعون نداءاتها الآتية من أعماقها، وحدهم يصدّقونها، فتغدو عودتها أسمى وعودهم لها. أنظر في عيون شباب وطني الناجين، يردون عليّ بنظرات ثابتة، نفهمها معًا، لا التباس أو خوف فيها. هو قرار مسئول، يكتب قدّر الأرض، بأحرف من نور. إنهم يختارون الحياة أو الخلود إن عاجلهم الموت، بملء إرادتهم، بكامل وعيهم.

حتى الموت لا يأتي مترددًا، أحس أنه يسمعنا ويحترم إرادتنا، في داخلنا نسمع نداءه، مع كل النداءات الأخرى، فنختار الانصياع له أو النجاة منه إلى حينٍ ومكانٍ آخرين.

إلى العمر القادم

في اليوم قبل الأخير لي بمدينتي أستسلم لضرورة أن أراه، تنهار قلعتي وأسوارها المحيطة بها، وأقود سيارة أهلي، لاهية عن افتقادي لهويتي ولإجازة القيادة السورية، وأعبر الحواجز الأمنية على امتداد الطريق إلى مكانه، بثقة استمديتها من شوق لا يمكن لأحد الوقوف في وجهه، حتى تميم نفسه. لا أجده أثناء محاولتي الأولى في منتصف النهار، فأذهب إلى بيته مترددة من توافق خيارتي مع أمني النفسي، ملتزمة تعاليمه التي تكره التخطيط وتؤثر عليه المفاجأة دومًا. أضغط على جرس الإنتركوم في بنايته، فلا يجيب، فأهرب خوفًا من تخيل الانفراد به في شقته، ثم أنصاع لشوقي وأعود بعد الظهر، يوقفني انقطاع الكهرباء عن صعود درج السلم الطويل هذه المرة،

فأتابع هروبي. أمّر على المكتبة التي نقتني منها كتبنا، كأنني على موعد معه فيها فلا أجده فأتجه إلى مكتبه، آملة أن يكون فيه في هذه الساعة من اليوم، فلا أعرّ عليه، أتصل به فلا يجيب، أصعد سيارتي، أدير الراديو، فتأتيني كلمات الرحابة ترجوني أن أكف عن هذه المهزلة بحق نفسي:

أمس انتهينا فلا كنا ولا كان يا صاحب الوعد خلي الوعد نسيانا
لم أسمع هذه الأغنية منذ سنين، وكنت قد بعثتُ إليه بكلماتها في إحدى رسائلي إليه في الزمن الماضي، فأفاجأ ولا أستسلم، وأعقد العزم على تكرار المحاولة في الغد.

بانتظار مواعيدي في غرفة الانتظار عند الطبيب في اليوم الأخير، تعود أغنية «أمس انتهينا» تلاحقني كالقدر الذي لا أريد أن أواجهه. أتأبط كتابين للدكتور زكي مبارك عن التصوف الإسلامي، كانا رسالته بالحصول على الدكتوراه، ووجدتهما بين كتب جدّي، إصدار سنة 1937، فأذهب بهما إليه، أتخفّ خلفهما كأنهما السبب وراء زيارتي. لا أجده في الصباح فيما كانت ساعات اليوم الأخيرة تقترب على الانقضاء ومعها فرصتنا بالالتقاء. أقوم بمحاولة أخيرة مساء، فأجده أخيراً خلف مكتبه الخالي من الموظفين، ألمح فرحاً عفويّاً يخرج من عينيه، ولا أرى عتّباً، كذلك الذي ضمّنه الكثير من كلماته برسائلنا المرتجفة منذ عودتي، يأتي نحوي ويعانقني، يقبلني من وجنتي، بقامته المديدة وأناقته الرياضية التي تمده بشباب دائم، يرتدي تيم قميصاً قطنياً كحلي اللون، مطرزاً على جنبه اسم مصممه، وجينز، وحذاء

جلدياً طرياً وعصرياً، ووجهه قد لوحته الشمس، فتركته متوهجاً، جذاباً كما عهدته. أقف أمامه كتلميذة تحتمي بكتبها من أستاذها، وقد نالت مطارداتها العنيفة من الصباح، من منظرها وأناقتها الرقيقة التي تبلغ بها في كل المناسبات. أرتدي للقائه تنورة سوداء قصيرة من الدونتيل الأسود القطني، وقميصاً بلون الزهري الفاتح، تتوزع حبات من اللؤلؤ الصغير على طول فتحة صدره. في لحظة يغلق الكون علينا أبوابه، فأحلق عالياً ثم أهوي على الكرسي الهرم الجاثم أمام مكتبه. يجلس مقابلاً لي وتوبخني عيناه ثم كلمات لا تصدق أياً من زياراتي، أرجع إلى كتبي وإلى احتمائي بها، فيخبرني أنه قد قرأها في الماضي. يشرح لي عن التأمل، وكيف أن التقدم فيه يأخذ سنين، قد لا يتجاوز ذلك بضع دقائق من سنة إلى أخرى. هنا أحاول أن أحكي له عن تجربتي مع الأشجار والغيوم، عن استرخائي واستغنائي عن توقعاتي الماضية، فلا يدعني، ثم بصوت درامي صادق يقول لي: «أنا أكثر رجل في العالم يتشدد بما لا يفعل»، تصرّح يضحكني كما يشفي غليلي منه، وحين تنسل مفردة التصوف بين كلماتي، يرجع فيقاطعني، وتبدأ أشعار الحلاج تنساب من ذاكرته كأنه مؤلفها:

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
روحه روحي وروحي روحه من رأى روحين حلّت بدنا

«تنبأ الحلاج بموته وبكيفية مقتله، حتى إنه على الصليب أهدى «مهجته ودمه»، بل طلب المغفرة لقاتليه (قد اجتمعوا لقتلي تعصباً لدينك، وتقرباً

إليك، فاغفر لهم، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لي، لما قاموا بها قاموا به». تابع مسترعياً انتباهي.

تندرج ابتسامات متتابعة من وجهي على أذائه المبهر، أتبعها بآرائي المتنامية حول الموضوع ذاته، فيقاطعني مردداً «شطط، كل ما تقولين شطط». أطلب منه أن يسمعني ويدعني أشرح وجهة نظري، لكنه يسترسل بآرائه التي تمشي متكئة على أكثر الاجتهادات الإسلامية تحفظاً بكل خطواتها، وإن كانت تدعي أنها متنورة ولا حدود لسعة آفاقها. أبتسم ثم ألتمز الصمت، وأترك المسرح له كمعادتنا. وددت حينها لو أعانق طفولته وأطيل التريبت على ظهرها لتنام ملء جفونها.

لا أدري ما الذي جعله يتكلم عن الوله، وتذكرت في الماضي البعيد كيف كان يحب أن يسهب بترتيب مراحل الحب، من الإعجاب، إلى المودة إلى التولع إلى الصبابة نهاية بالعشق، والآن يضيف عليها مرحلة الوله. هل يسخر مني، هل يبشرني بأنني وصلت إليها، بأنني أتخيله في كل الأماكن، بأنه معي أينما ذهبت وكيفما تلفت، هل وشت عيناى بذلك أم رسائي، أم إنه يقرؤني بكل يسر، هل يعطيني علامتي بعد كل هذه السنين، وهل أستحق نشان الاستحقاق على جهودي المضنية في مضمار حبه؟

يغادر مقعده الجلدي الكبير ويأتي بآخر صغير وخفيف ويضعه مقابلاً لي وقريباً من مقعدي ويجلس عليه. يرمقني بنظرة شاملة وسريعة قبل أن يدنو مني وترتطم ركبتاه بركبتي، يجذبني إليه من كتفي فتعانق ساقاه

المنفرجتان، ساقِيّ المضمومتين بينهما، وبلا مقدمات يهيم بحلّ عرى أزرار قميصي، تتعالى أنفاسه وترتفع وتيرتها فترتطم بخلايا وجهي ورقبتي، أينما تحل تكاد تعيد الحياة لما مات مني، تنفذ رائحته إلى ذرات روحي، تسترد لها فرحها الضائع، ثم برشاقة تمتد أصابعه إلى ظهري وتحررني من حمل أكتافي، وحين تصعد يده تتحسس نهدي، تتسارع صور الماضي الكثيرة التكرار إلى ذهني، وبرفق أنزل يده وأدفع جسده بعيداً عني، أقف ثم أبتعد.

أدركُ بعد هذا الزمن كيف يروق له أن يحتلني، دون أن يمهلني وقتاً يطمئن أنفاسي المضطربة في داخلي، أو فيه يتمكن جسدي المرتجف أن يعدّ نفسه له، فالتمهل يكشف ضحالته، خوفه كما ضعفه، فبدلاً من أن يقرّبنا تلاحمنا الجسدي، تخلق هوة كبيرة بيننا، هوة تفنن بردمها برعونة فتى مراهق، يتلثم باللمسات الرقيقة.

يختلس النظر إليّ بعينين وجلتين، تبحثن عن آثار ما تركه جسده عليّ في آخر لقاء بيننا، فأشبح بنظري عنهما، وأكمل ما أردت قوله من حيث انتهينا. يتفهم موقفني، يحترمه ويستمع إليّ، ربما يدرك إخفاقه المتكرر بالوصول إليّ، ثم بحماس طفولي، كأن ما حدث بيننا لتوه ما كان، يسألني إن كنت قادرة على رؤية الهالة (الأورا) التي تبثها أجساد من حولي، وحين أجيبه بالنفي، يقول لي: «دعيني أعلمك كيف ترين رسماً عادياً بأبعاده الثلاثية». يذهب إلى حاسوبه، وبعد محاولة بحث قصيرة، يجد صفحة تحتلها ورود الجوري الحمراء الصغيرة، يطبعها ثم يسألني أن أحضر إليه، أجلس على

يد كرسية الجلدي الضخم، وأמיד بجسدي حتى يتكئ كتفي وذراعي الصغيران المذعوران على كتفه الصلد العتي. كأني أؤكد لصداقتنا المديدة بأنه لن تنوبها خيبة مما حدث بيننا منذ لحظات. أتبع تعليماته البسيطة فأثبت نظري على الرسم، وبعد محاولتين، أفلح برؤية القلب الذي رسمته الورود، خارجاً بعد ثالث عن الرسم الأولي المسطح. يُفاجأ ويملاً الحبور وجهه، كأنه رأى أنني أملك العلامة التي تؤهلني للانضمام إلى مجموعته المختارة، فيأتي بورقة بيضاء، يضعها على حجري، ويجعل أصابع يديه تتلاعب على بُعد بضعة سنتيمترات فوقها، تحت الضوء الساقط عليها من أعلى، فتبتدى خيالاتها على الورقة البيضاء. يطلب مني أن أرى اللون المحيط بكل إصبع من أصابع يديه، بالطريقة التي رأيت فيها القلب يخرج من الرسم. أحاول وأحاول فيهِياً إليّ بأنني أرى لوناً أصفر، أسأله عن الأورا الصفراء، فيقول لي «الأصفر يعني الوجود في مكان يبعث على الحب والراحة، هو الوصول إلى درجة اللا تعلق بالأرضي»، ثم يطلب مني بعدها أن أضع أصابعي تحت الضوء كما فعل، فيخبرني بأنه يرى اللون الأزرق يخرج منها، فأسأله ماذا يعني ذلك، فيقول لي «الأزرق لون الهدوء والراحة، الحُدى والاتصال العميق بالآخر، لون الحب الكبير».

لا أدري كيف مضى الوقت معه. أجلس إلى جانبه، أنظر إليه بهيام عتيق، يحفظ مسالكه جيداً معه، ويتظلل بتفاصيل حضوره كلها، يفهمها، يتلمسها كطفل عارٍ تربى بين أحضانه. تلبسني سكينه وسلام ربها لا عهد لي بها إلا

معه . أقف إلى جانبه أرمقه باستسلام وهو يوحد أبواب مكتبه ولا أودّعه، أترك مكانه معه كأنني سأراه غداً. يطلب مني الصعود إلى سيارته ليوصلني إلى سيارتي في آخر الطريق، فأفعل، فأنا في جواره لبضع دقائق آخر. أنظر في عينيه قبل أن أغادره ولا أجد ما أقوله، أخفض رأسي قليلاً، أفتح باب سيارته ثم ألتفت نحوه بعجالة وأجد نفسي تقول «إلى العمر القادم إذا»، لا يقول شيئاً، فكثيراً ما هرب من الوداع ومن أي سبيل توصل إليه. أتجه نحو سيارتي وأستقلها. أعود إلى بيت أهلي، دموعي تطمر روحي وجملته وحيدة اقتطعت حديثنا، تنقر بلا هوادة داخل رأسي.....

«أنا رجل ميت من الداخل».

رسالة 2

حبيبي المجنون

في يوم ليس بالبعيد، ألقيت على مسامعي شيئاً من الحقيقة التي يعرفها جسدي جيداً. حقيقة كنت قد حدثتها عندما كنت معك فجر أحد الأيام، وكتبت إليك رسالتي المطولة حولها. أذكر كم أحزنتني تلك الحقيقة، كم أحسست بك يومها وأنت تحاول أن تفرضني عليك. لماذا نصرّ على لباس الحقيقة ألواناً تروق لوهمننا وحده أن يراها عليها ونرفض رؤيتها في ثوبها الأبيض الوحيد الجارح بنوره؟

أدرك تماماً شعورك، وأعلم كم هو معذب لك. أنت تعرف كم أحبك وقد أثبتت لك الأيام وامتحاناتك المتلاحقة حقيقة ذلك، ثم إنك جربت كثيرات غيري من النساء وخدلوك على ما يبدو، لم يبق لك من مبرر يؤخر حبك لي، فلتدفع بوعدك إذاً، فالمشاعر لا بد آتية، لكنها لا تأتي!

تقول، بدأت أعني أن لا أحد يحبني في هذه الدنيا كما تحبيني، عذيني

بأنك ستظلمين على الوعد ما حيننا. نعم سأبقى على عهد قلبي بك، فهو الذي يسكنك داخله، وهو الذي يملي على كياني موافقه، ولا يملك عقلي أن يأخذ أي قرار، كما لا يملك عقلك القرار النهائي بنا، ألا ترى! تقول، أعدك أنني سأكون هذه المرة كما يروق لك أن أكون، فأصدقك وأخرس نفساً تود أن تأخذ منك تعهداً ألا تفرضها على نفسك، أن تعدها بالحب وحده، أن تعدها لو تأخر الحب كما يفعل دائماً معك ألا تلعب بها، أن تعانقها ولا تعبث بجسدها، أن تشفق عليها، ألا تدعها ترى ذلك بثرثرة جسدك مع جسدها.

أريدك دوماً أن تختطفني، أن تثور وتسترجعني. أريدك أن تحتجز الغابة المليئة بالوحوش لتتقذي، أن تخرجني من فم أسد ابتلعني، أن تقطع دروباً معتمة لا نهاية لها، تنتظر فيها أن يطل وجهي. أنا التي علمتك كيف يعاش الحب أم أنت؟ أنا تلميذتك النجبية التي تعلمت كيف تقف عند حافة العلو الشاهق ولا تكثرث للسقوط، وكم هوت وتكسرت وعادت إلى السفح من جديد.

لم أستطع الاستيقاظ اليوم وبقيت أحلم حتى الظهر. ماذا تعرف عن أحلامي؟ وهل يمكنني اختزالها بكلمات وإنزالها على الورق؟ لماذا تحاسبني دوماً على تقصيري معك بها، لم تهمل الكلمات وقد مارسنا معاً كذبها. مع ذلك، تستطيع بكلمتين كتلك اللتين قاتنهما بالأمس في آخر المكالمات أن تأخذني بعيداً، أن تختطفني من واقعي ومن كل الناس من حولي. كم تجيد

لعبة الحب - لا يجب أن أعترف لك بذلك - «هل تستطيعين أن تنامي عندي؟». كيف يمكن لهذا السؤال أن يستولي على عقلي ويفرض نفسه عليّ ساعات طويلة، كأغنية آسرة لا يمكنني التوقف عن ترديدها. أذوب كلما كررت على نفسي بعضًا من جمالك أمس. لماذا تركتني أرحل عندما جئتك مؤخرًا، مبللة بالوجد حتى آخر قطرة منه، متألمة حتى آخر خيط من واقع معك لا يتغير؟

حبيبي ستنجلي، لا تخف، مهما طالت ستنجلي وسأبقى معك دومًا وستعود وتصلح ما قد فسد في الفترة السابقة من العمل، المهم أن أحبابك بخير وبأنك قوي وصحتك بقليل من الجهد ستعود كما كانت. لقد مررت بالكثير، ولا يمكن لهذه الأحداث - وإن كانت متلاحقة - أن تهزمك، فأنت أقوى من ذلك.

تميم أحبك وكم أتألم من أجلك، اهزمهم من أجلنا وانتظرنني قريبًا، لن يطول غيابي، سأكون لك في غضون أسبوعين ونصف الأسبوع. كن رجلي الذي وقف بوجه الدنيا... وكما قلت لي «لن يكفينا العمر بطوله».

كيف يمكنك أن تكون بهذه البلاغة والرقّة معًا!

الفصل الحادي عشر

الشك

1

حضور الجسد ودعوة إلى الرحيل

أسدلت الستار على مشاهد الوداع كلها، وما أكثرها وأوجعها، ثم أودعت الشام بحمى الرحمن وملائكته وأوليائه الصالحين. أصل أرضي الجديدة الموعودة بالسكون والهدوء، فما من مكان أجمل منها أعيش فيه مشاعري نحو وطني من بعيد، زخم يطحن روحي، أستعيده على مهل هنا، هنا الذي لم أعرفه إلا في مدينتي، أضحي على مهل أيضًا هنا.

ما إن أرتب منزلي وأمتعتي حتى أنزل إلى الغابة أستنجد فيها من غربتي، أسبق الخطى لأبلغ بوابتها، فعلى أعتابها تصحو في داخلي نشوة لقائي بمن أحب. أدركها أخيرًا افتحتل الدهشة ملامحي. أفتح يديّ، أبسم ملء روحي،

أعتذر لها عن طول غيابي، وأسترسل بامتداح طلتها. كم تبدو بهية بحلتها الملونة، تفرش عشبها أوراق الأشجار المتساقطة، الذهبية والأرجوانية والملونة بكل الألوان التي يمكنها أن تسكن بينهما. كيف قمت بكل هذه التحولات في غيابي؟ أعاتبها. أتمادى بالابتسام وأواصل المسير، أراقب كل تفاصيلها كأنني لم أرها من قبل، أرفع رأسي عاليًا لأطاول الأشجار التي تبدو كأن قامتها قد ازدادت ارتفاعًا. أرقب أوراقها الكثيفة، ألاحظ أن العلوية منها تستهل بتبديل لونها أولًا، لا أفكر بأسباب ذلك، وأتمرغ بمراقبة بهائها. أمشي حتى تضنى قدمي من التعب، أستعيد في أحضان الغابة توازني، أبكي ملء روعي ثم أعود إلى منزلي وأنام إلى الصباح.



نتفق بعد بضعة أيام على اللقاء بحديقة فاتن القريبة من منزلها، فهذه الأيام لا يجب أن نضيعها سدى، فالطقس دافئ وفي أجمل حالاته، ينسبك بخدره شتاء هذه المدينة، الذي لا يشبه شتاء أي مدينة أخرى. أحضر معي سندويشات الجبنة البيضاء المشللة والزعر الحلبى الطازج اللذين جلبتهما معي، أعدّها بنفسى بخبز الصباح، وألف كل قطعة منها على حدة بورق خاص كي تحتفظ بطراوتها ودفئها، فيما تجلب فاتن القهوة الساخنة وزجاجة من عصير البرتقال الطازج، وليلى تأتي بال«مدكوكة»، أقرص من التمر المجفف المغطى بالسّمسم، والقادمة من بغداد على وجه السرعة كما وعدتنا.

تمدّ فاتن مفرشها المورد على العشب الندي، الذي ستغطيه أوراق الأشجار المتساقطة والملونة فتضفي على المكان فرحاً إلهياً. بعد أن نجلس بشكل دائري عليه، نتخذ كل منا وضعيتها التي تريحها، نتنفس بعمق أريج المكان، تفتح كل منا ما بجعبتها للفطور، ونوزعه على المفرش، نسكب القهوة ونباشر الطعام.

كان لقاء ليلي بهاشم مثلما حلمت به في الليالي وحدها هنا وأكثر، كانت ليلة متكاملة، أعابها فقط أنها مرة أخرى، كانت الوحيدة! بتسم ليلي بتوتر تحاول الهروب منه، تروح بعينها يمنة ويسرة، تغمضهما ثم تفتحهما وتقول بصوت متكرر: «أدرك بصدق أنني لن أنسى ليلتنا معاً ما حييت، بأنني كنت كلي له، حاضرة بكل كياني معه، بأن الكون كله تواطأ معنا، وفتح لنا فسحة من الفضاء ووضعنا فيها وحدنا. وهذا ما كان، لم أره بعدها، أدرك أنه حاول وحالت مهامه الكثيرة دون ذلك، لكنني أعترف أنني تهت بين شوقي له والقبول بأعذاره، بين رغبتني به وبُعد عني. لم أتمكن من تفهم الأسباب التي تمنعه من الاتصال بي لأكثر من أسبوع بعد لقائنا، هذه الحامة من الجفاء أو البرود التي يستقبل بها اندفاعي، تجرحني، تقذف بي إلى أبعد جزيرة نائية يمكن لأحد أن ينساني على ضفافها».

لا نقول شيئاً، ننظر إليها ونحن نمضغ الطعام ونغب من القهوة الساخنة، فحالي من حالها والإنصات إليها خير لها من سماع ترهاتي، وفاتن سئمت من كليتنا، فتتابع: «أحب هاشم بجنون وحانقة عليه أيضاً، أرغب بتفهمه

وأرفض برودته وأحياناً قسوته. الغريب في الأمر أن رغباتي المتصاعدة لم تكن تؤذيها التمييزات الأخلاقية التي تربينا عليها، كانت تعوم هكذا في الأفق بكل حرية، فوق كل الاعتبارات، نقية شفافة لا يهملها أن ترضي أحداً، ولدت حرة ولا تطلب أن يعتقها أحد. لا يعيبها إلا عنفها وشدتها ورفضها الانحباس داخلي» تقول ليلي.

أغيب في تفكيري بليلى فهي لا شك محبطة من موقفها من هاشم، ولا بدّ أن الوقت الذي استهلكته بتخيل احتمالات ما يدور في رأسه طول فترة غيابه، لم يكن سهلاً عليها، لكن هناك إشراقة ما في وجهها، ليس من المنطقي بعد الذي قالته أن يكون مصدرها، ثم كلامها عن الرغبات المتصاعدة، ما الذي عنته بها؟ وما الذي تخفيه عنا؟

تتغير ملامحها فجأة وتدير ليلي وجهها نحوي وتذكرني بعبّاد، صديق طفولتها الذي لا يكبر ويحب الطبخ. كان قد دعاها إلى العشاء في بيته السنة الفائتة، وحين أخبرني، نصحتها ألا تقبل دعوته، فامتنلت لنصحي مظهرة امتنانها العديد من المرات. عبّاد شاب وسيم ومرح، وقد أمسى وحيداً بعد انفصاله عن زوجته، لديه ابنتان صغيرتان تعيشان مع أمهما وجديهما في الولايات المتحدة، يشغل مركزاً مرموقاً في شركة عالمية معروفة، تقوم بعمليات إعادة إعمار بالعراق. يكلمها حين يعلم بزيارتها ويدعوها للعشاء مجدداً في بيته. تتكرر تلبيتها لدعوته المتتالية إلى اليوم الذي يقف فيه خلفها، وهي متقدمة على الكنب في غرفة الجلوس ويلثمها من رأسها، تجفل لوهلة

و حين تستدير نحوه، يقبلها من شفيتها، قبله تفتح الطريق لأيام تلتها من الوجود معاً بصورة مغايرة عن كل سنوات تعارفهما. تؤكد ليلى بأنها كانت معه على سجيتها، كما كان معها، والرغبة بينهما منذ أن اشتعلت، استسلما لها، وما من شيء كان سيخمدنها. صداقتها بقيت على حالها، لم تفسدها مشاعر أو أجندات أخرى. حالة لم تتخيل ليلى في حياتها أن تعيشها، لكنها الآن لا تود أن تحلل وتفسد الأمر على نفسها، كما أكدت لنا، تعزم على الاحتفاء بحريتها وبما تمليه عليها اللحظة ولا شيء غير ذلك.

يتركنا بوح ليلى مشدوهتين، ننظر إليها بحذر أن يبدر عنا ما قد يوشي برفض أو بحكم على خيارها. تقرأ ليلى استغرابنا بين سطورنا المقلّة بالتعبير عما يجول بخاطرهما، فتأثر من فورهما لنفسها وتغالي بوصف سعادتهما، وبجراحة إنجازها وتضفي على التجربة بعداً روحياً أيضاً، وتؤكد بأنها أقرب إلى نفسها المثقلة بحملها من الحب للذات كما للآخرين: «كما سبق أن أخبرتكما، لن أقف بوجه أي من الاحتمالات، لا تهمني التسميات، ولا أعرف أسباب أي من التغيرات التي أصابت جسدي أو مشاعري، كما لا يمكنني ربط أي منها مع بعضها، أو افتراض أن أيًا منها محفز للآخر. لكنني سعيدة، يقود مسيرتي الحب وحده، لم أشعر يوماً بأنني على هذا القدر من الخفة والشفافية كما أشعر الآن».

لا تلقى ليلى ما تأملته منّا، فالذي حكته لنا لم يكن متسقاً مع ما نتوقعه أو نعرفه عنها. هي لا تحيد التعامل مع الحقيقة المجردة، وتفضل عليها لطفاً

وتربيتاً خفيفاً على الكتف، مع تمريرة خافتة لمفردات تحمل ظلالاً من الحقيقة، تأخذ وقتها بتشرّبها على مهل، وتعود إلينا باقتناعها بها بعد زمن.

لا نتمكن من إخفاء قلقنا عليها أمامها، وهو ما نال منها في النهاية، وواجهته باستياء شديد، كأننا لا نفهمها أو نبالغ بتوقع الأسوأ. تمسكت ليل بمفردات لن تنقذها مما تورط نفسها الآن فيه، فلا (السلبية) معبرة عن كل قول ندفعه بوجهها، ولا التأكيد بالوجود بمكان يشرح سلاماً وسكينة، مبرراً لكل ما يخرج غير متسق منها مع ذلك.

أما فاتن فتبدو نحيلة بعض الشيء، فبضع الكيلوغرامات التي فقدتها قبل الإجازة لم تسترجعها، شعرها الكستنائي يحيط بكتفيتها، ترفع بلا مبالاة الخصلات الثائرة حول وجهها كعادتها، بدبوس بسيط، تلبس تي شيرت أبيض وجينز.

ألفت إلى فاتن قائلة: «كم اشتقت إلى عوالمنا، همتُ على رأسي بعيدة عنها. ما الذي فاتنا في غيابنا؟ لا تنسي أن نخبرينا عن يومك الأخير مع ألبرت، فقد سافرت قبله ببضعة أيام ولم يشفِ فضولي جوابك المقتدر بأنك بخير».

«بل أنتِ مي أخبرينا عن الشام، بُوحي لنا بكل شيء، طمئينا عنك» تنتفض فاتن قائلة.

أبتسم برضى، وباستسلام أقول: «نجوتُ من عشقي وتعلقي ثم من

لحظات رحيلي. أهلي على ما يرام، لم يطوّعهم اليأس والقهر بعد، جذورهم ضاربة في الأرض غيرهم من الناجين في كل الأوطان البائسة».

أحاول أن أحكي لهما ما حدث، فأتوه كثيرًا بكل الذي ظل يعتمل في داخلي من جرائه، ومن جراء ما لم يحدث، أحكي لهما عن مدينتي الحزينة والمجون الذي يمارسه على تراهما، شياطينها مع قديسيها، وفاتن ولىلى - كما عهدتهما - حاضرتان بكل كيانيهما معي، نبكي كما نضحك ملء قلوبنا معًا.

انتظرتا مني أن أخبرهما عن تميم، بحدسهما عرفتا أن قصته لن تنتهي في داخلي، كما أصر بأن أدعي ومعها أتعرف على بُعد جديد في نفسي وفي نفسه، وفي ذلك الكيان المخلوق بيننا. أحكي لهما عن المناورات التي قتلنا فيها الوقت الثقيل بيننا وعلى وعيي المتأخر على حقيقة بحثه الدائم عن اللحظة التي مضت، ماتت، ولم نحيها معًا كما كان يليق بها، وتوصله إلى مسؤوليتي عن كل ذلك، فأرجح خيار ألا أواجهه بجبنه في كل مرة، خوفًا عليه، فلا أتصدى للومه وجرحه لي ولقلبي المليء بالشوق إليه. طالما كنت موجودة في اللحظة بكامل كياني أنتظره، وهو يختلق الأعذار عنها، ليأتي بعدها ويلومني على ضياعها، أصدقه ثم أختلق لحظة أخرى، لا بد مقبلة، فيصمت، ويطلب مني انتظارها، لكنه لا يعدني بها. «الآن» يُفشي ضعفه وقلة حيلته، لا تنتعش حذاقته إلا حين يغيب.

نُخرجنًا ليلي من تلك الدوامة بالنظر نحو فاتن، فتبتسم وتراخى عيناها

المليئتان بالنور، ثم تقول: «ماذا سأقول لكما؟ غلبتني مخاوفي لأيام سبقت يومي الموعود إلى أن وصلنا إلى اللحظة الأخيرة فيه، أنزلت الفرشة من يدي، وانتهيت من آخر لمسة في لوحتي، كأنني أضع النقطة الأخيرة في آخر جملة بصفحة هذا الفصل، رأيته ينظر إليّ بعينين أعرف آفاق الجمال الذي بإمكانهما بلوغه، تركز في عينيّ اللتين تعلمتا كيف تواجهان وهجهما، وتدخلان في عالمهما وتضيعان فيه وتضيعان، ضمّتهما شوقه، حزنه وحبًا أعرف وحدي قدره. نظرت كانت تفهم وجعي، تسانده وتود لو أنه يترفق بي، كانت تتفق معي وتخاف مثلي من الوداع. لم يحدث شيء بعدها، لملنا أغراضنا وبقايانا وتركنا المكان بكل بساطة. حين اختليت بنفسي داخل سيارتي، جفلت لبضع دقائق، ثم استسلمت لبكاء طويل، لا يشبه نحبيي الأول ولا الأخير، بكاء عاطفي تهاجمه الأفكار والاحتمالات، يلح عليه حوار متعب مع النفس، وغير مجدٍ بشيء، أحس فيه بضعفي وقلة حيرتي، أدخل به في دوائر منهكة، أتقنت التيه فيها من قبل».

تبادر ليلى بسكب القهوة ثم تمدنا بأقراص المدكوكة. أستعجل فاتن الكلام، فعيناها تعدنا بالمزيد ولا أطيق الانتظار. ترتشف فاتن مقدارًا معقولًا من مشروبها، تسترخي ثم تسترسل بسردها حكاياها.

«سجلت في مادة أحتاجها، مدتها لا تتجاوز الخمسة أيام مع أستاذ جديد، وحرصت على التسجيل بكورس رسم الأجسام بكامل ثيابها، مع ألبرت، في الوقت الذي نزلت فيه. المادة الجديدة التي اعتقدت أنني

سجلت بها عشوائياً، تبدى لي أنني في أمس الحاجة إليها. هي كورس عن الرسم التشريحي لجسم الإنسان، كأننا نبخر داخله، نتلمس عضلاته وأعضائه، شرايينه وأوردته. لقد تعلمت الكثير فيه، ولمست أنني أقطع مسافة ليست باليسيرة في طريق معرضي. إنها تجربة فريدة وجديدة عليّ. يمتلئ الفصل بالعارضين دوماً، يتوزعون في زوايا كثيرة، فيما تتوسط الفصل طاولة كبيرة عليها كتب كثيرة تتناول تشريح الجسد الإنساني برؤى مختلفة. في إحدى المرات التي دعانا فيها الأستاذ للتجمع حوله، للاطلاع على الرسومات التي في الكتاب الذي بين يديه، دفع بالكتاب نحوي دوناً عن الآخرين، وطلب مني تصفحه. عقدت الدهشة لساني لثوانٍ، أخذت بعدها الكتاب وتصفحته بانبهار شديد، وفهمت حاجتي إليه. كل صفحة فيه كانت لأوضاع مختلفة لمجموعة من أجساد عارية حتى من جلد يكسوها، كان قد تبرع أصحابها بأجسادهم قبل موتهم، فيما قام فنيون بفصل الأعضاء والعضلات ومعالجتها بمواد كيميائية تحفظها من التلف، وقاموا بتجميعها ثانية في مكانها. يمكنني القول إنني استسلمت لكل الإشارات التي تأتي نحوي، ولا أرغب بطرح الأسئلة اللجوجة بعد الآن. ممارستي الدائمة للتأمل العميق، مهّدت لما أنا عليه اليوم، تلك الحالة التي أصفها لكم من السكون والوعي الآخر، بات يمكنني أن أدخل فيها متى شئت، حتى في أكثر الأماكن ضجيجاً، حالة تكلمنا عنها في السابق، هل تذكran؟ حين توقعنا أن ألبرت يمكنه أن ينتقل بوعيه من مستوى إلى آخر بكل مهارة ورشاقة، وبالطبع لا أدعي أنني وصلت لما هو عليه».

«كم أصبو إلى بلوغ ما تصفين! لم أعد أستعجل شيئاً الآن، تأكدت من هذه الحقيقة، وتعلبت على الكثير من مخاوفي، لكن الثبات في حالة السكون لا يزال أحدها» أقول.

يتوه منا حوارنا قليلاً بعد ذلك، فرغبتنا في اللحاق بها فاتنا في إجازتنا شتت أفكارنا، وبعثرنا على ضفافها، سخرنا من احتمالاتها وظلالها اللا نهائية، مؤثرين عليها ببعض الأحيان، شوقنا إلى مجرد الوجود معاً.

أطول وقفاتنا كانت حول اليوم الذي ابتدأت منه كل أسباب دعوة ألبرت لفاتن بالرحيل. ففي يوم بالفصل الجديد الذي سجلت فيه معه لرسم عارضين تكسو أجسادهم الثياب، تصل إلى توافق مع نفسها لم تختبر مثيله من قبل، وترسم شاباً أسمر البشرة حدست قدومه وهي في الطريق إلى المدرسة قبل مباغتته لهم في ذلك الصباح. يقف الشاب مذهولاً معها، من البُعد الذي وصلت إليه فاتن بتصويره، بُعد لم تصل إليه في أي من محاولاتها السابقة. يوم سمت فيه لذلك المكان الذي لا شكل له ولا حدود، تسبح به النوتات والألوان والحروف، زواره من الموسيقيين والشعراء وكل المبدعين، يأخذون حاجتهم منه ويهبطون بها إلى عالمنا ليهرونا بالصيد الخاص لكل منهم. كانت فاتن واحدة منهم ودلفت مكانهم وحدها، أخذت زوَادتها ورجعت ووقفت أمام لوحتها، تكسوها مادة فرح ربما كانت مغايرة لما تحسه حين ترسم في حضرة ألبرت، ولا تعلو عليها بشكل من الأشكال، تلوّح دون وعي منها بيدها حول أذنيها، تمنعها من سماع كلمات ألبرت

المنهمرة باتجاههما، فالفرح فرحها، والإنجاز إنجازها وحدها اليوم.

«هل تصدقان أنني توحدت مع لوحتي للحد الذي لم أع معه على ألبرت يقف بجواري ويتكلم معي، لا أذكر إلا أنه يقول كلاماً لا أسمع، وأخال كأني أرفع يدي بمواجهة أذني، طالبة منه ألا يتدخل بدفقات فرشاتي المترتبة. جاء الموديل من خلفي، وصرخ فرحاً بصورته، وانهمرت كلماته المبهورة مما يراه، تحيط بي وتدور حولي، تحتفل معي بموهبتي، بدوائر استنتت ألبرت مرة أخرى من الدوار بفلكها معنا. خرجت من الفصل بعد انتهاء الدرس منتشية من إنجازي، كنت أحسه ينظر إليّ مشدوهاً حين كنت أجمع أغراضي في حقيبتي، وتمتم بكلمات قليلة حين مررت بمحاذاته، وأمطرته بابتسامات حرصت على ألا أداريها!».

انقضى الأسبوع على عجل، وجاء موعد الدرس المقبل لفاتن، فتدخل الفصل بانتشاء تلميذ لم يخفق كعادته في الدرس الماضي، وأنه على الأرجح أتقن الدخول والخروج من المتاهة بسلام. تأخذ فاتن موقعها بمواجهة العارض الأسمر، تُخرج اللوحة، تنصبها وتباشر من المكان الذي تركتها فيه الأسبوع الماضي. يهّم ألبرت بجولته لمتابعة أعمال طلبته، وحين يأتي دورها، ينتقد لوحتها ويعرّفها على أخطائها فيها. أمام ذهولها، تعيد فاتن النظر للوحتها ولموقعها من العارض، فتري أن وقفة العارض تبدو مختلفة عما كانت عليه بالأسبوع الماضي، وعليها، فرسمتها لا تبدو متوافقة مع انحناءات جسده لذلك اليوم، فما كان منها إلا الاستنجد بألبرت متسائلة

عن السبب، إن كان العارض قد عدّل موقعه أو غيّر بانحناءات جسده، مستغربة من أن كل شيء يبدو أمامها مختلفاً اليوم، فيرد عليها ألبرت، بخفة، مقترحاً رسم اللوحة من جديد، جازماً لها بأن كل شيء فيها لا يبدو متسقاً مع الواقع المائل أمامها، ثم ينظر لها ببرود، وظل من ابتسامة ساخرة يلزمه ليؤكد لها بأنها لم تكن على ما يرام الأسبوع الماضي.

تقول فاتن بخيبة، اعتادت على انتظارها من نفسها، وما كانت تتوقعها من أستاذها: «ملاحظاته حفرت إسفيناً بموقع قدميَّ على الأرض وربطتهما به، توّهت نظراتي بين اللوحة وبين العارض وضللت معها ثقتي بقدرتي على الإتيان بأي شيء يغير من قدر لوحتي. ثم ما الذي عناه بأني لم أكن على ما يرام! في اليوم الذي احتفيت به ببلوغي لحالة من الاتساق مع كل حواسي واللوحة التي أمامي، يبشّرني بإخفاقي!».

تلمع عينا فاتن ببريق تحلّفه عبرات خجول تأبى أن تنهمر أمامنا فتقول: «لا يمكنني أن أصف لكما ألم الصفعة التي تلقّيتها يومها، لقد جرحني هكذا بدم بارد، كأن بيني وبينه ثأراً ذا عمر طويل، لا يستحق أن يمنحه غفرانه».

تقول ليلي يهدوء، بعد أن تلم شعرها كعادتها وتدور به من جهة إلى الأخرى: «عيني فاتن، ربما يريدك أن تفهمي أنك برفقته ستصلين لما يمتناه لك فنياً الآن، وأن الوقت لم يحن بعد لاستقلالك الكلي عنه، لا يزال لديه الكثير ليعطيك، عليك الثقة بذلك. انتبهي إلى أنه كان بصحبتك بكل مكان،

فما بالكِ بالمرسم الذي يجمعكما معاً! كأنه يطلب منكِ التركيز على تواصلكما معا في اللحظة التي تمسكين فيها بالفرشاة وتهمين بالرسم. ربما بالغ بإظهار استيائه من اختيالكِ بدخول عالمكما وحدكِ ذلك اليوم، ليس إلا».

«لكنه هو من شجعني على أخذ مادة الرسم التشريحي بمدرسة جديدة عليّ، ومع أستاذ آخر، كأنه يدعوني بأن أستقل عنه وأرسم وحدي، مع أنني حين التقيته مصادفة بأحد أروقة المدرسة، رجعت للفصل ورسمت بألق تاه مني لأيام قبل لقائه. أدرك أن كل شيء عرضة للتغير والتحول، وبأن آلبرت ضعف بذلك اليوم. هذا ما أنا تائهة على شواطئه، شاطئه الإنساني وذلك الروحي، أو من به كما أو من نفسي، كلما هزمني شوقي له، يتبدى لي وجهه القاسي الهازئ بي، كان يود أن يشاطرنى لحظتي بمكاننا، داخل الفصل، ولا يود لي أن أشرك أحداً بها أو أن أكون داخلها وحدي، أيعقل أن يكون ذلك كله من صنع خيالي؟ ثم أعود وأرجوه أن يعود لي، ويشاركني زمني ويعيد الفرح لأرجاء روحي».

تندفع فاتن فجأة نحو جوالها وكأنها تذكرت شيئاً ضرورياً، تشد على ملاحمها، محاولة أن تحقق فرحاً فياضاً من الانفلات عبرها، تبحث بمخزونها من الصور لترينا صورة لآلبرت، التقطتها له إحدى زميلاتها بالفصل. أبخلق بصورته بعد ليلي وأجد نفسي أخفي بكفي نصف وجهه، وأنتقل به إلى نصفه الآخر، فنشاهد معاً اختلافهما الكبيرين عن بعضهما، أحدهما ملائكي وطيب، والآخر تصعب قراءته، مائل لأن يكون جباراً أو متسلطاً

ربما، جفنه فيه مرتخٍ بعض الشيء، وخده أقل امتلاءً.

حاولنا أن ننثني وجل فاتن عن الاسترسال في إزعاجها، ولم نوفق إلا بتهدئتها لدقائق، لا تلبث أن تعود إلينا بشكوكها وحزنها.

«أنتِ كنتِ تشّرحين جسد الإنسان لترسميه، وبدوري ما دمت أحاول أن أشرّح دوره في حياة تميم وفي حياة كل من يقده. أحزن للدور الذي يلعبه الجسد في حياتنا، وفي حياته بشكل خاص، ذلك الحضور الذي نهرب به من كل شيء، فيما نعتقد أننا نواجه به أنفسنا والآخرين». يغشى ملاحي حزن عميق، يضع من يتلقفه في موقف مريبك، تستوعبه فاتن جيداً وتدرّك كيف تُخرج منه صديقتها.

«مي، عليك أن تدرّكي الدرس الذي جاء به تميم من أجلك، في اللحظة التي ترين أنه يستنزف طاقتك، يكون فعله انعكاساً لجزء من نفسك أنتِ، تقوم بها تتهمينه به. في بُعد ما، تميم معلم لك، ومهمتك أن تتعلمي الدرس منه أو من غيره، وتنسي المضي في طريق الحق ممن يقوم بدور المعلم»، تقول فاتن.

أوافقها وأبتسم بسخرية: «في اللحظة التي تركزين فيها على الدرس عوضاً عن المعلم، تأتيك الحقيقة على قدميها، عارية، متوهجة كأشعة الشمس، هذا هو التحدي، أليس كذلك؟ كم هو سهل الكلام!».

قالت ليلى غير آبهة بشيء: «في بعض الأحيان التي أغرق بها باللا شيء،

أتخيل نفسي شجرة هرمة في غابة منسية، تقف باسقة لا تعرف الركوع، صامتة مع أنها تنفخ بالحياة، ثابتة بالأرض كالجلبل، تتمايل أغصانها مع الريح، كراقصة محترفة، تعرف كيف تفتن معجبيها وتوقعهم بحبالها، لا يهتمها أمر أوراقها، بعضها تقاوم الإعصار وأخرى تستسلم له وتسافر على متنه برضا إلى أماكن بعيدة، تموت لتُخلق فيها من جديد. بت أتمنى أن أكون شجرة ولو لفترة قصيرة، في العمر المقبل». نضحك من طفولتها فتضحك معنا، ولا نستغرب حلمها أبداً.

يتركنا ما تداولناه تحت تأثيره برهة من الزمان، نختم المفاجأة على أفواهنا، فيسود الصمت. لم نعد فتيات تتعالى أصواتنا دهشة من كل ما نسمع، تُسهم كل منا بنظراتها بعيداً، لنعود إلى دائرتنا رويداً رويداً، نلتهي بسكب القهوة وبقضم لقيمات من الطعام المفرد أماننا، نستمتع بلدغات الشمس القوية أخيراً على بشرتنا، والنسمات الباردة للهواء من حولنا تلتطف من لسعاتها.

2

حين تمتلك المخاوف أجنحة

دخلت ليلى إحدى مدن التيه، ولم تعد تعرف كيف تخرج منها. أحسُ
بغياها وبحزنها ولا يزيديني تأكيدها عكس ذلك، إلا قلقاً مضاعفاً عليها.
أنظر في عينيها الجميلتين، تسارع بالابتسام كأنها تنفي عنها حقيقة ما يعيش
داخلها ويعبث بسكينتها وأمنها. لا أود أن أقع في ظلم الحكم على مشاعرها
وخياراتها المترتبة عليها، وأقوم بمجهود مضاعف كي لا أفعل، وأعرف
أن بعثرتي لأحكام على تصرفات من حولي كان ولا يزال من أكبر عيوبي
ومكامن ضعفني.

كثيراً ما بحثت ليلى عن حريتها التي تآقت لها، وحين وجدتها، خلقت

لنفسها عبودية من نوع آخر. في الوقت الذي اعتقدت أنها تحتفي بحريتها، كانت تنصب أعمدة سجن مستحدث، لا أعرف له سبيل اعتناق. تقلقني حالها، ولا أدري كيف أصل إليها، نحن منشغلون بعطايا عالمنا الجديد، ولم نحسب حساب مخاطره، انكبنا عليه كجوعى على مائدة مليئة بالطعام الشهي.

كيف أقف إلى جانبها صائنة صمتي؟ وكيف أكون صادقة معها دون الخوف من جرحها بلا قصد مني؟ ما الأسئلة التي أطمئن بها عليها ولا يفسدها فضولي؟ سأعيدها على نفسي وحدي، أنزلها على الورق، أخفف من حملها، عليها تتبدد بالكلمات ويضيع صخب عويلها في داخلي.

أفهم أن هاشم لم يرويك وجدانيًا، وشحه العاطفي لست على استعداد للاستثمار أو المقامرة به عمرًا، ليخذلك كما يفعل الرجال عادة، لكنك تحببته كما تقولين، فما حاجتك إلى عباد الآن إذن؟ أنفهم أن تكوني قد انجرفت معه لتلك اللحظة في مدينتكما، ضعفت واحتجت لكتف تبكين عليه، أما أن تأتي بهذا الكتف إلى هنا وتحمليه أحلامك وربما مجونك، فهو ما يربكني.

طالما غزت المخاوف كما تقولين، وأفسدت عليك متعتك في كل شيء، صوتها جارح كرايها، لا تكره شيئًا قدر كرهها للحرية، تريدك لها، لها وحدها، وبصراخها في وجهك حرمتك حريتك دومًا. الآن حين تجرأت وتذوق الحرية، ترغبين بالانتقام الجزافي منها. صراعك لا تخوضينه وحدك، كلنا تصرعنا مخاوفنا، ولا يكون تفوقنا عليها بقتلها داخلنا. لا بد أن تكون لها

مساحتها في داخلنا دوماً، صديقي، لا سلام لنا دون مؤاخاتها وتوقيع تسوية جديدة معها، نضمن بها حقوقنا مع محاولتنا الدائمة تقليص سطوتها. في الوقت الذي اعتقدت أنك قهرت مخاوفك، خلقت مخاوف جديدة أكثر مكرّاً في داخلك كما فعلت في داخلي عليك.

إلى أين يذهب بك حزنك صديقتي؟ كيف أقف في وجهه، وأعيد إلى عينيك حذاقتهما وفرحهما الطفولي؟ كيف أعانقك وأطمئنك أن كل شيء سيكون بخير. الحب الذي في داخلك عظيم، يمكنه أن يغمر مدينة بأكملها، ويمدها بزادها كاملاً من المطر، ولا حاجة له إلى التخفي في قلوب الرجال.

هل أخفقت حين جررتك إلى الحرية، هل أعطيتك مباركتي دون أن أدرك ما فعلت!

أرغب بأن أكون معك، على بعد خطوة منك، أمامك، أتلقّك كلما أوشت أن تهوين، أرجع إلى هامتك استقامتها، ولثقتك قوتها، فأباني بك هو حقيقة لن أحيدها عنها.

3

الثقة بدلا من الخوف

يدخل آلبرت إلى صالون بيت جدّي، من الممر الضيق الموصل إليه، عبر بابه شبه الموصد، فأقف بمحاذاة الكنبّة التي كنت أجلس عليها بمواجهة الباب، استعدادًا لاستقبال الضيف، أتعرّف عليه فورًا، بقامته المديدة، ورأسه الحليق الأبيض كالأطفال. عيناه الزرقاوان تقدحان بنورٍ لا مثيل لشدة ضيائه، يلبس سترة جلدية، لونها بيّج فاتح، قميص قطني أزرق، يغطي كرشًا خفيفًا، تهبط عيناها عليه بعجل، فيصرخ باسمي عاليًا؛

«هالومي»....

بعد أن يربّت على ظهري بقوة.

تتخط فاتن بمشاعرها وبكل الاحتمالات التي تدورها برأسها، فشكها بكل شاردة وواردة تستقبلها من ألبرت، يفسد عليها هناءها. بليلة تتغلب فيها مخاوفها عليها، تتضرع أن يأتيها بحلمها، ليرد على شكوكها وربما بطريقة يخفف من أوجاعها، ولو بإشارة صغيرة تعيد إليها صفاءها. يأتي ألبرت على جناح الحلم مستعجلاً مردداً عليها طلبه «انصتي»، تميل بجسدها نحوه، فيعيد إلى جسدها استقامته بدفعة يسيرة بإصبعه على ذراعها، مجذوبة إليه بلا إرادة عنها تعود فتميل نحوه، فيرجع ويعدل باستقامة جسدها ويكرر على مسامعها «انصتي».

تصحو من حلمها والحبور يسكن صدرها، تنسى كل ما ألمَّ بها من مخاوف وخيبات. تدرك أن ألبرت بتكراره لأمر «انصتي» كأنه يناديها ويطلب منها الاستجابة له، فيجبرها على تذكر حالها بالمرسم وهي لاهية عنه. كما تفتن إلى أنه حين كان يدفعها بإصبعه كان يردها لحدود رسمها بينهما، وعليها أن تقف دوماً بمحاذاتها.

تعزم فاتن بإحدى الصباحات، على أن تكون البادئة بمنح الحب لآلبرت، عوضاً عن ترقبها ككل مرة، استقبال الحب الآتي من صوبه، فتذهب إلى الدرس بهذه النية، وهو ما تلقفه آلبرت منها من فوره. كان حولها طوال الوقت سعيداً بمبادرتها، ممتناً لأبعد الحدود لالتفاتتها على بساطتها. كانت فاتن ثملة من العشق، كأنها صعدت جبل الحب ووصلت قمته، ثم استوطنته لزم من مسروق. كم بدا الأمر مختلفاً من علٍ، حين كانت المانحة لا المستقبل،

حين رافقتها الثقة بدلاً عن الخوف. وصلت بعدها لإيمان من أن حالة العشق، وهي الرتبة الأعلى من الحب على قولة تميم، تذكرني فاتن، هي الحالة الطبيعية التي يجب أن يُبصر بها كل شيء.

تتساءل فاتن: «في المرات القليلة التي حظيت بها بهذه الفرصة، كم بدا فيها العالم مختلفاً. كيف أمد بعمر هذه الحالة؟»

يأتي آلبرت نحو فاتن بلحظة هاربة عن النسق العادي للوقت، يجلس على مقعدها ينظر للوحة المرأة السمراء ذات الثوب النيلي، مرسومة بأناملها ويطلق سؤاله على الجميع «تُرى هل وصلت المرأة السمراء لتوها أم إنها تهم بالرحيل؟».

تُبهت فاتن من سؤاله، تسكت ثم تُطرق، تبحلق بالموديل السمراء الغارقة بحزنها الدفين، تجلس أمامهم على طرف مقعدها وحقيبتها الصغيرة بحجرها، وقدمها متقدمة على الأخرى، ليس بنيتها أي قرار، لا بد أنه وجه سؤاله المؤلم لها، إنه يعلم بعزمها البدء برسم أولى لوحات معرضها، ويعتقد بأنها آمنت بنفسها وبدأت المسير وحدها لأول مرة، وها هو يسألها، تُرى متى ستعزمين الرحيل!

يعود آلبرت بالأسبوع الذي يليه إلى سلوكه غير المفهوم، إلى نصفه الإنساني، كاشفاً عن وجهه المستاء والساخر من فاتن، فتصف لنا بحنق كيف ماحك ما قمتُ به معها بآخر لقاء لنا، فأخفى بكفه نصف الوجه المرسوم

بلوحتها، ورجع ونقل كفه للنصف الآخر ونظر إليها مبتسماً، فما كان منها
إلا التعبير بافترار بسيط من شفيتها، لا تعرف إن كانت به تبتسم باستسلام
أو تعلن عن سأمها من ألامه. لا تتحرر فأتن من دهشتها طوال يومها
معه ولا من استيائها، تخط يصاحبها لعربتها، فتغلق على قرارها بالرحيل
عينها، لا تلبث طاقته الكبيرة بالجثو فوق رأسها، فيغمرها حضوره، وتتوه
بحيرتها من رغبته بها أم برحيلها عنه أم من جهلها بكل شيء.

4

لقاءات صباحية مع اللوحة الأولى

تبدأ فاتن أخيراً جدياً بالاستعداد لرسم لوحة معرضها الأولى، تأتي بالألوان الجديدة وتتقصد أن تقتني النفيسة منها، التي لم يتح لها أن ترى اختلاف دعساتها على الكنفاس إلا بالمعارض الفنية، والآن ستختبر ذلك بيديها، تعدّ غرفة خاصة بالطابق الأرضي، نوافذها كبيرة ونورها سخي، تقصد محلاً للإضاءة لشراء وحدات إنارة خاصة إضافية، تبعثرها بالغرفة حين تظن الشمس بنورها. والأهم من كل ذلك، ترهن صباحاتها كلها للرسم، ولا تستجيب للقائنا بذات اليسر الذي كان لنا منها.

في لحظة من زمن ضائع، تخرج فاتن من حزنها وتلتقي بحزن طفلتها

الفلسطينية التي التقتها بشوارع القاهرة، لم تكن تود إلا أن تعانقه وتنصت بإجلال له. تتذكر انطباع حسام حين أطلعته على اللقطات العديدة التي أخذتها لها، كيف هاله منظرها وبؤسها، ثم استهجن اهتمامها بالمبالغ بها. لن يعي حسام ما نشأ بينهما، لن يحدث قوة الفتاة الصغيرة وبأسها، مع كل الذي مرت به وباد بجلاء عليها، وحدها فاتن، أيقنت حين التقت عيناهما، أنهما ستكونان برءًا لكليهما، وبأنها كانت تنتظرهما منذ أمد ليس بالقصير.

تعتزم فاتن أن تبدأ مجموعتها باللقطة الأولى التي أخذتها لفتاتها في ذاك اليوم. كانت الشمس تضيء نصف وجه الطفلة، فيما يبدو نصفه الآخر معتمًا لوجوده بالظل. ما إن تشرع بالرسم حتى تغيب مع خطوطها الأولى ويضيع الزمن منها، إلى أن يدركها الإنهاك، فتضع ريشتها جانبًا وتجلس على أقرب كرسي أمامها، وتتنفس بعمق أنفاسًا متتابة وطويلة، تدرك بها أنها مرّت بحالة من حالات الموت الصغيرة، التي لم تعد بحاجة لأستاذها أن يشير لها عنها بعد اليوم.

تواظب فاتن على لقاءاتها الصباحية مع طفلتها، التي بدأت تدب فيها الحياة والألوان، ولم تعد تتجمل من نفسها ومن حكاياها، فلفاتن قدرة غير عادية على الحب كما على ترويض النفوس التائهة.

الفصل الثاني عشر

طبيعة ملهمة

1

«في لحظة واحدة، طلة وحيدة لعنصر من
عناصر الطبيعة يمكنها احتواء كل شيء»

في يوم عاصف، غطت فيه الثلوج كل شيء، ذهبتُ إلى مقهي، وجلستُ
في مكاني على الطاولة الكبيرة، أشاركُ الجالسِين دفئاً مسروقاً، يحيط البرد
بكل زواياه، حميمية الدفء الذي أعرفه جيداً في مدينتي، كان لنا فيه ملاذ
في كل شوارعها ودهاليزها، نركن إليه جميعنا في كل وقت.

دفء طبيتنا، سذاجتنا، لكتتنا، أصواتنا، تعبيراتنا البسيطة والبليلة،
موسيقانا ومواويلنا، أشعارنا بحمقها حين تعشق حبباً أو وطناً، أضاحينا
بالعيد أو بأرواحنا، أو هامنا وحقائقنا الطريفة، عيوننا ببريقها ودموعها
السخية، كله أفايضه هنا، بدفء يحترم إنسانيتي.

بين غيابي وحضوري، استرقتُ النظر إلى نافذة صغيرة أمامي لم تلفت انتباهي في كل زيارتي السابقة، ورأيت ندف الثلج تتساقط بسرعة ومستسلمة لمزاجات الريح. يهبط قلبي فجأة، وتتأبني أعراض سلام وسكينة أبحث عن كنفهما اليوم بطوله، يرتجف جوفي فرحاً، وتحتله أسراب من الفراشات الملونة، يتلون الدم بعروقي باللون الأخضر، وتغرق خلايا جسمي بالحب، ينتظم دورانها وتمتلئ فراغاتها بالأوكسجين النقي. أبتسم ممتنة لكل شيء، أنظر حولي بعيني عاشق، يرى في كل الموجودين أمامه معشوقه، يتكاثر الجمال ويطوقني، يخلق بي فوق الأرض، أهم بالبكاء وبمعانقة الجميع، يغادرني الخوف أخيراً، وأعلن صداقتي لعنصر جديد من عناصر الطبيعة، أوقن أنها لن تضنّ عليّ بهبات، وحدي قررت ألا أضيّعها.

اتفقت مع فاتن على الالتقاء في مكتبة «أباف جراوند»، لبيع المستلزمات الفنية على أنواعها، في مركز المدينة قبل سفرها، على أن نذهب بعدها لتناول الإفطار في مطعم قريب من هناك، فيما تخلفت ليل عن الحضور لانشغالها مع مرضاها، على حد قولها.

كانت فاتن ترغب بأن أزور المكان معها، ربما كموثق على تاريخها مع ألبرت منذ البداية، وهي رغبة مؤجلة بالتأكيد، وإن كنت حين جاء وقتها، تلكأت بالاحتفاء بها. ربما أحسست بوطأ توقعاتي عن المكان، وترقبي

للمفاجآت التي ستأتيني لاهثة ورائي من شقوقه، وخيبتني إن خرجت منه دون أي شيء منها. في لحظة صفاء ذهني تبعت إحساسي، وذهبت إلى لقائها كما اتفقنا، تغمرني حالة استسلام أعرفه ويقين من استقبالي لما لا يهمني معرفة ماهيته.

ونحن في الطريق إليه مشياً على الأقدام، بعد أن ترجلنا من الأوتوبيس، نرى متحف (الأي جي أو) على ناصية الشارع المقابل للمكتبة، فتصيب فائن دهشة من أنه على طريقنا وقريب من مكتبتها، وهي دهشة بلهاء عادة ما ترافق أولئك الذين لا يتمتعون بموهبة معرفة الطرقات المختلفة المؤدية إلى وجهاتهم، نعمة عادة ما تهرب من الفنانين الغارقين في أوهامهم.

تقول فائن بحبور لا يفارقه الذهول: «كيف تاه عني وقوع المتحف عند هذه الزاوية؟ ربما لأنني آتِ المكتبة عادة من شارع مغاير. كم وعدتك أن أرافقك إلى زيارته مي، وها نحن هنا اليوم».

وكم تبغت بما خطر على ذهنه، تلمع عيناها وتتابع: «أتصدقين! يستضيف المتحف الآن أعمال رسامين عالميين لمدة ثلاثة أشهر، يجمعها عنوان واحد. كم سيعينك ذلك مي! أعتقد أنه سيتهي الشهر المقبل، وودت زيارته بشدة منذ زمن وها هو الوقت يُنفق على عجل ويأتي وقت السفر، وتساءلت منذ فترة قصيرة، إن كنت سأحظى بفرصة أخرى لزيارته».

أرد مباشرة كأنني صحوت فجأة من سبات عميق: «سنزوره معاً فائن،

ماذا تقولين!»، أطرق لوهلة، أبتسم وأقول: «يبدو أنه ما جئت من أجله اليوم».

ننظر إلى بعضنا نظرة نعرفها تمامًا، ونبتسم ابتسامة تُثير وجوهنا ونتجه إلى المكتبة لشراء أدوات الرسم التي تحتاجها فاتن فقط ولا شيء آخر. كانت فاتن تمشي في أرجاء المكتبة بسعادة من يقدم بيته لصديق زائر، فهنا باعتهها رائحة ألبرت وهنا التقي بحسام، وذاكرتي لاهية عنها، تشدّ هممها للقدام بعد خروجها من هذا المكان.

نخرج من المكتبة مسرعتين، فتكرر فاتن سؤالها حول رغبتني بزيارة المتحف، فأنهرها وأتجه إلى مبنى المتحف بلا تردد. ندخله معًا، تستقبلنا ملصقات المعرض ثم لوحات إرشادية له، تتبعها بيسر، إلى أن نصل إلى درج يصعد بنا إلى مكان المعرض. الملح صالة كبيرة تتسلق جدرانها لوحات عديدة تصور مناظر طبيعية خلابة، نزورها لاحقًا فتكون أعمالاً لفناني المجموعة من سبعة الرائعة ودائمة الحضور في المتحف.

تبادرني فاتن بمجرد نفاذ صبرها: «أرأيت اسم المعرض مي؟ Mystic Landscapes مناظر طبيعية ملهمة أو ساحرة، ولن تصدقي من هم الفنانون المستضافون! أتذكرين الفنان الذي حدثتك عن تجربة لقائي بإحدى لوحاته أثناء زيارتي إلى متحف في نيويورك، التي لا تشبه ما مررت به لدى مشاهدتي أعمال أي فنان آخر، ووددنا أن نأتي معًا منذ سنة ونصف السنة، لرؤية عمل له، حين استضافت أعماله مدينة تورونتو؟».

أنظر بشغف من يحب مجيء الهبات وحدها وبلا أي تخطيط مسبق،
أستنجد بذاكرتي لوهلة وأقول: «وكيف أنسى! لا تقولي لي مونيّه؟».

تبتسم فاتن موافقة وتزيد على فرحي فرحاً مضاعفاً بترديدها للأسماء
الأخرى الحاضرة: «فان جوخ مي، غوغان وشاغال، ويستلر ومونك
وآخرون لا أعرفهم، جمعهم تجربتهم الروحية مع الطبيعة وجاءت بهم
اليوم إلى دارنا! إلى جانب إيملي كار وغيرها من أعضاء المجموعة الكندية
السبعة إياها». تعانق ذراعها كتفيّ، تنحني بقامتها المديدة نحوي ثم نتجه
إلى طابور التذاكر.

لا يستوقفني عنوان التجربة الروحية مع الطبيعة كأني لم أستوعب ما
سمعته جيداً، مدفوعة بحماس أعمى، أدلف مع الجميع إلى داخل الصالة
الأولى أخيراً. نستلم من موظفة الاستقبال جهازاً لكل منا كالهاتف الجوال،
عليه أزرار بأرقام، بالضغط على كل منها، يخرج إلينا صوت مسجل بصوت
خبير بأعمال الفنان الذي نقف أمام لوحاته.

في اللحظة التي دخلنا فيها الصالة الأولى للمعرض، توقف الزمن ودخلنا
أعتاب عالم فنانيين عاشوا في الفترة بين سنة 1880 و1930، وسجلوا عذاباتهم
وتحدياتهم مع خلاصهم بالألوان. أول اللوحات كانت لفان جوخ، لوحة
أشجار الزيتون، وعلى الجدار بجوار أعماله، كتبت جمل موجزة ومعبرة عن
علاقة فان غوخ مع الطبيعة وتأثيرها عليه، تتبعها جمل مقتبسة من سيرته
الذاتية تفيض بالحكمة وبسلام لا يمكن لأحد أن يفتعله أو يدّعيه. تبدو

الأشجار كأنها رسمت بشكل دائري، كذلك تتبدى السماء وكتلة الغيوم المتمركزة فيها. تتبعتُ الخطوط بهدوء، لحقتها وتنت في عوامها، سلّمتها وعيي بملء إرادتي، فأصابني دوار خفيف، لم أعره اهتمامًا. وهو ما تكرر معي أمام لوحات فيها حركة دائرية أقوى من تلك التي شهدتها لدى فان جوخ، كلوحة أوجين جانسن(*)، فجر فوق ريدارفجاردن، 1899، سماؤها لها القدرة على سلب المراقب لها من حالته العادية والرمي به في دوامتها، كذلك يفعل النفق فيها، الذي تتوزع به القناديل الصغيرة وفيرة النور بلوحة يحتلها الظلام. كأن الغرق في قوى الخطوط المرسومة يعيد إلى المشهد الصامت الحياة، ويخلق بالمشاهد إلى تلك اللحظة، يعيد عليه زخمها وتفصيلها، كأنه يقف أمامها ويلفح وجهه هواؤها.

أتابع فاتن لأرى ردة فعلها، فتخبرني عن اختيار رقم اثنين والاستماع إلى ما سيقوله التسجيل.

يصيني كل ما يتبع ذلك بالذهول، وأرى كلمات لها خصوصيتها لديّ، تترتب أمامي وتتابع على لسان المعلقين وعلى جدران المكان. ابتدأت دهشتي بكلمة الغابات، هكذا مجردة، مطبوعة على الجدران، ثم وصف يهيم بحسنها وبسحرها وبالحالة الخاصة التي تخلق بداخل من انغمس بأجوائها، تبعثها كلمة البرية والأشجار والأزهار، الشمس والنجوم، السماء والغيوم، المطر والثلج، الرمل والأحجار، الأنهار وقمم الجبال، الحروب والدمار ثم السلام.

(*) Eugene Jansson, Dawn over Riddarfjarden, 1899, oil on canvas, 150 x 201 cm.

تشابك المسارات الموصوفة أمامي مع مساري، فيزداد انبهارى به رغم تواضعه، وفرحي به على ضياعه في يومي، فيُلغى منه ما اعتقدته وهما، وينقلب أمامي إلى حقيقة، أدرك أنني لم أعد أمشي في دروبها وحدي. لم يزدني ما وصل إلى فهمي إلا امتناناً، فلو أنني قرأت عن ارتباط التجربة الروحية بالطبيعة، لربما سعت إليها كما يصفون، ولأخفقت في بلوغ ما وصلت إليه الآن، دون افتعال وترقب، فلديّ فن خاص، بإجادة خلطهما مع أي مركب وضمان إفساده.

نصل إلى الصالة التي تعرض أعمال مونييه، فأرى فاتن وقد سبقتني إلى هناك، تقف في مواجهة لوحة حديقته التي تتوزع في بركتها أزهار الليل، لوحة جدارية عملاقة، من أكبر أعماله المعروضة، بل أكبر لوحة في المعرض على الإطلاق، أنظر إليها بعجالة متوجّسة الضلال بمداراتها قبل أن أسأل فاتن عن إحساسها، فتؤكد لي بأنها تشعر بوهن وبدوخة وبحاجة إلى الجلوس. أقف بجوارها بعد أن تجلس على المقعد العريض الوحيد القابع أمام اللوحة وأدع نفسي تستقبل الضربات المتتابة لفرشاة مونييه على الزمن، أضغط على الزر المناسب للجهاز بيدي، وأستمع إلى قصته.

ما أكثر مدن التيه وما أكرها، وفي زمن تعبت الحرب بدقائقه، تتكاثر الأبواب التي لا توصل إلا إليها. بنى مونييه وغيره من الفنانين، باب خروجه من إحدى مدن الالباس بيديه ولم ينتظر أحداً. في اليوم الذي التقى فيه بقرية جيفرني بريف فرنسا Giverny، وهي تلوح مسرعة من

نافذة قطار يقلّه إلى مدينة بعيدة، أيقن على الفور أنها ستكون ملاذه. اتخذ فيها بيتاً وقام بتشيد حديقة يابانية تتوسطها بركة متعددة الطبقات، تعوم على سطحها أزهار الليلي المائية، بإيجاء من الفكر البوذي-زن، الذي كان قد افتتن به في نهاية حياته بعد رحلة بحث طويلة. أنفق مونييه جل وقته إما زارعاً للأزهار بحديقته أو واقفاً متأملاً جمالها، ناصباً لوحته أمامها، مترقباً اللحظة التي يشرع فيها باب الغياب، ليدلف منه ويسجل عجائب مشاهداته خلفه بالألوان.

«في لحظة واحدة، طلة وحيدة لعنصر من عناصر الطبيعة يمكنها احتواء كل شيء»

«At one instant, one aspect of nature contains it all.»

أستمع إلى الصوت الخارج من الجهاز بيدي، يصف تلك اللحظة، بأنها قصيرة ونادرة، وما يخرج من بين يديها لا يشبه -بعمقه وبعبقريته- أي عمل أنجز خارجها. لحظة يتوحد فيها كل شيء، المراقب مع المادة المراقبة، والمبدع مع ما أبدعه. فيها تتحرر الأشياء من القوانين التي تحكمها ومن كل ما هو متوقع منها وتهيم في فراغ لا تفصله حدود، تتغير فيه حركتها وألوانها.

رسم مونييه أعداداً كبيرة من لوحات أزهار الليلي وتحولت تلك اللحظة التي ينتظرها بصبر، إلى لحظات متدفقة تملكته، ولم يسعه أمامها إلا أن ينصب

اللوحة تلو الأخرى، ويدع فرشاته تحكي مشاعره وهيامه وتفاصيل حياته على الضفة الأخرى من العالم.

بوجودي أمام لوحة مونية ويجوار فاتن، والكلمات تنهمر على أذني في بُعد ثالث، كأنها توثق ما يعتريني من مشاعر، يترابط كل شيء ببعضه، وتنطلق الخطوط غير المرئية وتشابك أمامي، تفك عرى وحدتي وضياعي، تزيل عني غمام شكّي وخوفي، تطمئنني بأنني أخطو في طريق خطي به كل هؤلاء الراحلين، تقربني من نفسي ومن فاتن، فأدنو أكثر من تجربتها ومن فهم ما ودت أن تنقله إليّ بالكلمات وكم أحست بأنها عجزت.

أطرق من فكرة تلوح سريعاً في ذهني، يوم زرنا متحف مونريال للفن المعاصر، وانفردت مع فاتن وحدنا بالصالة المعتمدة، وفقدنا أثر ليلي، أوقن مجدداً أن الأمر لم يكن مصادفة وقتها ولا الآن، حينها اعتقدت أنني وُجدت مع فاتن لتوثيق تجربتها، لكنني أثق الآن بأنني شهدت كل التفاصيل الثرية من أولها إلى آخرها لتكون جزءاً من تجربتي، وخطوة في مسار لا يهمني طوله بتمديد وعيي وإعطائه فرصة في التحليق إلى أماكن جديدة، لم يحلم يوماً بإمكانيته من السمو نحوها. والآن أيضاً، استسلمت لحديسي بمرونة تدهشني، وها هي اللحظة تقدم لي المساندة من الجميع، تشد على يدي وقلبي، تربت على ظهري مثل آلبرت، وتومئ رأسها نحوي كما تفعل فاتن.

لم يجد القدر لليلي مكاناً في التجربتين، فتركيزها لم يكن معنا، وما نصبو

إليه، تكتفي هي بالادعاء بأنها تسعى إليه، فيلج جانب احتمالية أنها قد لا تصل، لا ترى ما بددته فيه، مع أنها لا بد تدرك أماكن أخرى كثيرة لا يمكنني التكهن بها.

يودّعنا المعرض بلوحة فان جوخ، ليلة نجمية فوق الرون بأرلينز^(*)، 1988، يقول فيها فان: «رسمتها تحت وطأة حاجة ملحة، ربما يمكنني أن أستعير كلمة دينية في وصفها.... فخرجت مساءً في إحدى الليالي لألّون النجوم».

أخرج من المعرض يحتلني دوار مسكر لا يشبه دوارًا آخر مررت به في الماضي، ودهشة لا حدود لها، ارتواء وجودي وروحي طال انتظاري له، أركن إلى الصمت وإلى ابتسامة ثابتة على طرف ثغري، آتية من مكان قصيٍّ في داخلي.

(*) Vincent Van Gogh painting's The Starry Night over The Rhone at Arles, 1888

«I felt a tremendous need of —shall I say the word—religion.. so I go outside at night to paint the stars».

2

كياناتي تقدم نفسها لنفسها

لوقت طويل اعتقدت بأنني مجموعة من كيانات مختلفة، تعيش مع بعضها، ولكل منها عالمه وأصدقائه، لا يؤد أحدها الآخر، وإن كان يميل لكيان أو أكثر من الكيانات المتعايشة معه رغمًا عنه. كيان الكاتبة أحدها، يراقب كل شيء ولا يحياه كلية، يترصد التفاصيل، يتململ منها، لا لاهتمامه فيها بالضرورة، بل ليشبعها تحليلًا وتشريحًا لأصغر مكون فيها، فتتسنى له الكتابة المنصفة عنها. هناك الكيان الاجتماعي، الذي يجيد التعامل مع العامة، يعرف تمامًا كيف يكسب ودهم ويثير اهتمامهم، يبالغ باهتمامه بمعطياته الخارجية كلها، من مظهره الخارجي لمفرداته اللاذعة السريعة الوثب من العمق للسطح ومن الهزل للمعلومات الوفيرة. يقابله الكيان الاجتماعي

الحميم، الذي يُعنى بالدائرة الأقرب، بكل تعقيداتها ومتطلباتها. ثم الكيان العملي والمهني، الذي يغلبه الجدية، وخلطة عجيبة من التواضع والغرور. كياني العقلي، المتواري خلف أي جملة أبدأها بـ(أنا) وأي كلمة أنهيها بـياء الملكية، أكثر كياناتي جبروتًا وتعتًا، يفرض إنتاجه بغضب وبصوت عالٍ، ومع الزمن بنى لنفسه أعداء كثيرين. لا شك بأن رقعة سيطرته هي الأكبر بحياتي. أما كيان الأمومة، فيمكنني أن أفصله عن الكيانات الأخرى، فله حضور خاص به، قد يمجحها جميعها عند الضرورة.

هناك كيان لا يزيد عمره على ست سنوات، لا يكف عن النحيب، كل يوم لا يصدق ما يحدث لمدينته، ينظر أمامه ولا يرى شيئًا إلا دموعه، وأشلاء مدينته، وأناسها الطيبين مشلوحين بكل الأماكن فيها، على إسفلت شوارعها، وسطوح ركامها، داخل بيوتها الخائفة المتهالكة، وحول آثارها المحترقة، على شواطئها كما بسمائها. طفل صغير هو، لا يعي ما يرى أو يسمع، يهرب من القصص والحكايات التي صحا يومًا ووجد نفسه قد غدا بطلها. يرى حزنًا بأعين الجميع، ويخاف أن يعيد السؤال عن دواعيه، فمنذ ولادته والجواب لا يتغير.

منذ فترة قصيرة، وعيت لولادة كيان جديد لديّ، خلاصته سكينه خالصة، مياهه رائقة، كأنها راكدة، لخريرها صوت مسكر وهادئ، يكاد مع الأيام لا يعكّر صفوها شيء. جربتني الأيام القليلة الماضية، ورمت عليّ بللواها، بعضها صغير الشأن وبعضها لا تحتمله أيُّ من كياناتي السابقة،

فتلاشى أذاها بعد وهلة قصيرة من الزمن، كما تطيّر الريح أوراق الخريف
الصفراء، من أرض غابة، غطت أرضها بالكامل.

منذ ولادة كياني الجديد ونموه السريع بداخلي، بدأت كياناتي الأخرى
بالتنحي واحدة تلو الأخرى، برضا وسلام كاملين. توحدت الشخص
التي تسكنني وتصادقت مع نفسها، سلمت دروعها وأسلحتها، وغرقت
بالسكون.

الفصل الثالث عشر

ميثاق «الآن»

1

لوحة شبح

داهم فائن أذى قدرها الجديد، تأخر فتوهمت باحتمالية ترفقه بها، فأتى عاتياً، كأنها ما تذوقت ألماً على شاكلته أبداً، ألماً ما عرفت مداراته واكتوت بناره، كأن الزمن حوله لا يجيد الانقضاء. هربت من غرفة لأخرى، من انفرادها مع ذاتها كما من التقائها بأطفالها، تغطي الدموع وجهها، وتنهمر غصبا عنها. أما ألم القلب فما تمت سوى أن تقتلعه من مكانه، وتوقف لسعته المتدافعة بصدرها والتمتددة بأعماق روحها. لا بد لفرح كالذي خلقه بداخلها أن يكون له وجه آخر حارق كالذي يولد بين جوانحها بكل لحظة من لحظات يوم لا ينتهي.

«ما الذي فعلته لأستحق منه كل هذه القسوة، أيتلذذ بتعذيبي؟ أيعلمني قدره عندي؟ ما الذي ينتظره مني؟ ألا أقاومه وأمثل لما لا أفهمه دومًا من تعاليمه؟»، يسألنا صوت فاتن الباكي.

«أين أهرب منه؟ وكيف أوقف هذا النزيف بداخلي؟ لا أجد بموقفه الأخير، بإبعادي عن المعرض إلا رغبة بإذلال والاستخفاف بي. أسترجع وجهه ينظر إليّ بنظرات جانبية بآخر يوم لنا، وأرى فيها استهزاء بي بعد أن خلقتها تعدي بمفاجأة جديدة. ما الذي دهاه؟ أين ذهب بقدسيته؟ مالي أراه مجرد رجلا آخر يتحداني ويضيق صدره مني! أينما التفتُ تواجهني جدران تحمل صورته، فتتهمر دموعي غصبا عني، وتتلاشى أسئلتي اللوححة على مهلهما، ويحل محلها ألم عميق بقلبي، وإيوان بأنني مصابة بمرض لا شفاء منه».

يختار ألبرت بنهاية الفصل لوحات لعرضها بمعرض المدرسة فتكون لوحة الرجل الأسمر إحداها. مغتبطة تذهب فاتن لمشاهدة لوحاتها على جدار معرض المدرسة مع قريناتها من لوحات الآخرين المختارة، بالوقت الذي أخبرها ألبرت بالقدوم فيه، تدفع درفتي باب كبير يفصلها عن صالة العرض، لتجد أنها تقف مستقبلة الفراغ والوجوم يتدافعان لها من كل صوب.

«أين ذهب الجميع؟»، تتساءل. الساعة الآن الثالثة وأربعون دقيقة. تذهب للأبواب المحيطة بالصالة والموصلة للصالات الصغيرة الأخرى

المقترنة بها فتلقاها موصدة. يهوي قلبها سريعاً، وتنسل حبات عرق باردة فوق جبينها. تستنجد بذاكرة لا تنسى أي شيء يخص ألبرت، فيعود إليها صوته يردد الرقم أربعة، وعينه تنظران إليها بعمق يستجلب السكون من أعلى السموات إلى دواخلها.

هل يسخر منها، لا يود أن يراها، ولا يريد أن تكون بمعرض يقدم لوحة من لوحاتها؟ أين الحكمة من ذلك؟ تستمر فائن بالتساؤل. تنظر إلى لوحاتها ويغيب فرحها بها، يتنامى غضب تبغضه بداخلها، يحار كيف وأين ينفث سموه، تقف أمامه عاجزة، تحجب على أسئلة لا تهدأ برأسها، كلها تهينها وتهزأ منها بشكل أو بآخر. هذا هو جوابه عن أملها الواهم باستمرار دوره معها، لا فصلاً جديداً لها معه بالمستقبل القريب، ولا ترغب بالتفكير بالمستقبل البعيد أو لا قدرة لها على ذلك الآن، لتلمم جرحها وخيبتها وتعود لمنزلها خاوية الوفاض حقاً، من كل شيء، حتى من لوحة يسكنها شبح!

إحدى صديقات فائن رأت تشكلاً مموهاً على طرف اللوحة، لجسد رجل متين، يميل بوجهه كأنه يضحك، وكتفه يمتد ويحتل جزءاً لا بأس به من الخلفية، فنطلق عليه لقب شبح اللوحة.

قالت ليلى يوم اكتشافنا للشبح، بثقة مقترنة بضحكات متتابعة: «جماعته كانوا حاضرين، ورسمتهم دون دراية منك، لهذا اختار لك ألبرت هذه اللوحة للمعرض».

توقن فاتن بأنها لن تخرج من ألمها إلا بالتأمل، فتمثل أيامًا لنداءات روحها، وتجلس إليها منصتة، فتعود إليها سكينتها بعد طول غياب. بيوم يخطر على بالها أن تقوم بتأمل خاص، تطرح به سؤالًا محددًا، لا ترى لنفسها مهربًا منه، فتفعل.

«لماذا أراد ألبرت الانسحاب من حياتي؟».

تأتيها أحرف انجليزية أربع تتردد على مسامعها،

W o r n

تجمعها على بعضها، تهجأها فلا تدرك معناها. تهرع إلى حاسوبها ملقمة قاموسه ما جاءها، فيأتيها رده، (متآكل، رث، مهترأ، بال). ما الذي تفهمه من ذلك؟ تطرق بتلك المفردات، تدورها بذهنها وتصل لاهثة بها إلى مكان لا تود الوصول إليه. هل تعب ألبرت مني، تهالك من جهوده المضنية نحوي، ومن ملاقاتي لها بكل الجحود الذي استقبله مني؟ تتساءل فاتن بينها وبين نفسها. تتذكر ما ألمحت لها بضع مرات ولم تعر ملاحظاتي اهتمامًا!

لقد أصريت عليها مرارًا بأن شكها الدائم به يضايقه منها، فيومًا تراه معلمًا نورانيًا، ويومًا تهبط به إلى الأرض وتترغ وجهه بالتراب. لم توافقني على رأيٍّ تمامًا، كما لم ترفضه رفضًا قاطعًا، وكانت دومًا تردد على مسامعي: أن القائم بالخير لا ينتظر الامتنان والشكر على طول الطريق، فأعرض عنها ممتعة من تعنتها.

ما الذي فعله تعنتُّها من أجلها الآن؟ وبأية حفرة رماها؟ لو أنها فقط
استسلمت لقدرها الجميل معه، وداومت على دروسه إلى ما لا نهاية، تنهل
من منبع الحب بلا تعب أو ضجر، ما الذي كان سيضيرها؟
تدور بهذيانها حول أيامها معه، كان لها يد بمصيرها أم إنه قدرهما
وقدر كل المريدين والمرشدين، ما الذي كان سيمنع أن تستمر حالة الهيام
تلك إلى الأبد!

2

استعداد لليوم الأخير

بقِيَّ يومان وينتهي كل شيء، هذه الفكرة التي حاولت فاتن أن تراها هينة وقدرية وعليها التسليم لها، كررتها بجرأة اصطنعتها أماننا وحين عادت واختلت بنفسها، أدركت وقعها الحقيقي بداخلها وعلى حياتها. ربما رغبت بأن تختبر التهديد بالرحيل، وكم كان هذا حتى قريباً احتمالاً مستحيلاً، توقعت منه إيقافها ونصحها بالأفضل كما كان يفعل دائماً، فهي لم تسجل بأي فصل معه إلا تلبية لدعوته لها، بطرق تفنن برميها بطريقها.

كيف أصبح الأفضل لها الآن ألا تبقى معه؟!

تبحث بذاكرتها عن وجهه الملائكي والعاشق لها فيعود لها وجهه الرجولي

الغاضب منها، لأسباب تقسم لنا بأنها تجهلها.

ما يزلزل الأرض تحت أقدامها، تزامن عبثية ما يجري بينها وبين ألبرت، مع ما يحدث بينها وبين حسام. مؤخرًا باتت تبصر بحسام رجلًا ضائعًا لا تعرفه، ينظر إليها وتسكنه أسئلة يُفرض إجاباتها عليها ولا ينتظر أي إجابة منها. يحيطها بخيبته بها كلما نظر إليها، ثم يُعرض عنها جازًا حزنًا غائرًا ولا يقول شيئًا، لا يخرج من صمته إلا ليصرخ بوجع، أريد للمرأة التي أعرفها أن تعود إليّ، ويتابع النظر إليها باستغراب.

تتساءل فاتن طوال الوقت، إن كانت قد أخطأت بحققها بمكان ما، ولا كنه لها أين حدث ذلك. يجرحها تذكرها لكلمات حسام البكر، احتفاء بدخولها حياته، ما الذي غيّرَها بداخله ولماذا اعتبر نفسه مخدوعة بها؟ هو الذي لا يتقن الكلمات، كان يختارها من أجلها، لم تعد إذن ملاك الطاهر الذي وُجد من أجله، كما كان يكرر على مسامعها، كما لم تعد نورًا احتار ألبرت باحتوائه! ما الذي يبصره فيها الآن، وأين اندحر كل ذاك النور؟

ما الذي رآه حسام وألبرت بداخلها، ما الذي راهنا عليه بزمنين مختلفين وخذلتها فيه معًا وبذات الوقت؟ ما الذي تغير فيها؟ هي لا ترى بأنها تغيرت بجوهرها بشيء، كل الذي حدث فعلاً، هو توطد ارتباطها بذلك الجوهر وبمعونتهما، كل بوقته وبأسلوبه. كيف يخلق منها الحب بزمن ما امرأة حكيمة وبزمن آخر يحولها لفتاة حمقاء! تؤمن فاتن بأنها لم تسلب أحدًا حريته، ولا تنتظر من أحد تجريدها من إرادتها وخيارها، لكن يبدو لها أن

حريتها لم ترق لهما، وحبهما المشروط كان بالحقيقة حباً منقوصاً.

لم يبقَ إلا يوماً واحداً تختبر فائن فيه صمودها ومسافتها الجديدة من ألبرت. لا ترجمها أفكارها طوال الوقت إلا حين تهرب منها إلى نحيب لا تعرف كيف توقفه أو تداريه. منهكة تتملص من بكائها عازمة على الانتهاء من لوحة طفلتها، أو الالتجاء لها، فلا يمكنه أن يختار متى حرّمها حضوره، نهبها عن الرسم أيضاً.

تذهب إلى غرفتها لتجهز الألوان ثم تلتفت للطاولة التي تقبع عليها الصورة الفوتوغرافية فلا تجدها، مستغربة تباشر البحث عنها بكل مكان، فلا تلقى لها أثراً. عازمة أن ترمي بنفسها داخل الألوان، تتوجه لسرداب المنزل، وتستخرج صوراً لمها ولكريم على البحر بإجازة الصيف الماضي من جوالها القديم، وتقرر أن تطبعها بمحل كوداك للطباعة، استعداداً لرسمها كمجموعة كاملة. تقصد المحل فيتعذّر عليها ذلك مرة أخرى، ما ذلك الخلل الطارئ الذي أصاب جوالها؟ وما هذا القدر الذي يعاند مساعيها لخلق هدنة مع نفسها ومعه؟

يائسة من محاولاتها مجتمعة تتجه إلى الغابة بجوار منزلها وتمشي بها هاربة من كل شيء. تنتشلها من بأسها طلة أشجار سامقة وأخرى عملاقة لم تنتبه لها حين كان الورق الذهبي والأرجواني يكسوها، فتعي بأنها أطالت بغياها عنها وفاتها تشييع موسم الخريف فيها. مأخوذة بسكينة كل ما يحيط بها، تتابع توغلها بالغابة إلى أن تصل لمقعدها الأثير بها، تظلل شجرتها

العلاقة والحكمة، بأغصانها الكثيفة والمتشابكة وبما تبقى من أوراق عليها. تلقي بهامتها المتعبة على المقعد، تتأمل شجرتها من مكانها المعتاد، تحملق بملاحظتها، بضر وبها العجيبة من الألق، فيتناها سلام لا يود الانفلات عن حزنها، وتُدْرَف دموعها عنوة عنها، يقودها رجاء يائس يحاكي ألبرت وحسام معاً، ينقر برأسها بلا هوادة «لا ترفعاني للسماء وتهويا بي إلى قاع الأرض على أهوائكم».

فجأة تختلج شجرتها العلاقة والأخرى التي خلفها، وترتشان ارتعاشات ناعمة، تبدأ معها أوراقهما الصفراء بالتساقط تباعاً، تلحق عينها الورقة وراء الورقة، يتسارع انهارها، خيوط ذهبية متتابعة تنسل من السماء كالطر، تحملق بالمشهد أمامها هائمة به، تلمح أن للأوراق حركة لم تعدها من قبل، ترتجف كأنها ترقص، بتناغم لا يمكن إلا أن تقوده موسيقى خفية، تغمرها، تحملها وتحلق بها إلى مكان آخر يجمعها بالأشجار وأوراقها، لا يفصلهم عن بعضهم شيء، تجمعهم نشوى يدركها كل منهم، تدغدغ حواسهم فتولد بهم ضحكات متواترة، كل الأسباب والمعنى بجوفها، ولا يحوي شيئاً بعدها أي مضمون، فتفيض من عينها دموع فرح، لا يشبه فرحاً آخر عرفته ولا يطغى بذات الوقت على غيره، فتدرك أنه غدا للفرح أثواب لا حصر لها بحياتها.

وحين يعود لها وعيها اللجوج، تتساءل بينها وبين نفسها، هل رُقَّ ألبرت لحالها، وندم على ظلمه لها فبعث لها برسالة تهدأ من روعها، وتطمئن منها من

فتك هو اجسها بها؟ هل جند الطبيعة وجعلها رسول سلام بينهما، أم إن الطبيعة تشعر وتحتفل بها وحدها كفرد محب بعائلتها الكبيرة، والأمر لا يتطلب بينهما أية وساطات.....

أم إنها رسالة ممن هو أسمى منهم جميعاً؟

3

«الله والمعلم الروحي والنفس،
كلهم وجود واحد»

بيني وبين فاتن اتصال يتجاوز الكلمات ويعدو بطلاقة فوقها. الآن أدرك السبب وراء أنني كلما نقلت حديثها، أصف بريق عينيها. لقد كنت على طول الطريق أحاور عينيها، تسألني فأرد عليهما، تستنكران فعلي، فأبرره بكلام مسموع لها، تشيان عليّ، وإن من بعيد، فأحтар كيف أداري اختيالي وفرحي أمامها، أما حين أقرأ حزنهما، فلا أملك إلا أن أهوي معهما بلحظة إلى قاع الحفرة التي يختبآن بها، وأخرج بهما مسرعة إلى السطح، وقبل أن أفكر بأمرهما، أو أعطي نفسي فرصة فهمهما، أنكر وجعها وألمم ضعفها، ولا أدري من أين آت بالقوة والثقة اللتين تعداًنهما أن كل شيء سيكون على ما يرام.

«هل داخل الهيام يحيا التيه؟» تتساءل فاتن.

أجيبها: «بالتأكيد، أنا التي أعرف كيف يكون التيه فيه، فالهيام عشق بلا نهاية، تتيم بلا طريق».

«هل انتهينا؟ وما شكل أيامي دونه؟».

فأؤكد لها أن دوره لن ينتهي من حياتها، وعليها الإيمان بتحول وتبدل الحال بينهما، بأنه يعدّها لمرحلة جديدة بعد اجتيازها للمراحل البدائية معه ونجاحها فيها كلها. ما لها لا تصدقني، وتصّر على احتلال شعور مخيف وموهن لكيانها، لا يقوم إلا بالجزم بعكس ما قلت تمامًا! فكرة ألا تراه ثانية لم تكن بالحسبان، ولم تكن لترد على ذهنها بأكثر لحظاتها قنوتًا.

«لم نكن نلتقي كأَي رجل وامرأة عاديين، كنا وجودين يلتقيان ليصبحا وجودًا واحدًا، وجودًا متحدًا وممتدًا مع كل شيء حولنا. كان يربطنا وشاح متين، رقيق لا يُرى لكنه شديد البأس، لا علم لي بمعدنه، ولا بهاهية الحلقات أو الوحدات المكونة له، كل ما أعرفه، أن بانفصامهما عن بعضهما ذُقت ألماً كم أتمنى لو أنني ما خبرته. ليت هذا الوجد يكف عني ويدعني لسداجة كنت أحيّا بها، بلا فرح وبلا عذاب سهاويين». تقول عينا فاتن الشجيتان.

تكمل: «لم يكن وشاحًا عاديًا ذاك الذي ربطنا ببعضنا، كان حبل الوصل بيني وبين السماء، بيني وبين المجهول، بيني وبين الله. كان صلتي مع

أولادي ومع زوجي، كان رابطتي مع نفسي ودواخلها. أعرف الآن أنه كان لديّ يقين بوجوده منذ نشأ بيننا، ولا يهليني الآن إلا ترجيح انقطاعه بيننا. كيف لمن حلّق بي يومًا نحو السماء أن يهبط بي الآن إلى جوف الأرض؟ معه جُبت الفضاء وما وهنت، شاهدت عوالم أعلم الآن من أين جاءت بها كل الروايات والأساطير، اعترضتني كائنات غريبة ما خشيتها برفقتها، كان دومًا على بعد دقة من دقات قلبي مني، يدفعني إلى الأمام، إلى الإيمان بنفسي وبجمال الكون الفسيح الذي يضمنا، معه تعلمت أن أبدل أقينتي ومعها وعي بعوالم مختلفة تضج بالحياة هي الأخرى مثل عالمنا، ومنذ أفلع ذلك، أتمكن من ولوجها والإبحار بها على مهلي، معه تعرّفت على إمكانيات وقدرات داخل الإنسان، على قدر حلمي بامتلاكه لها دومًا.

لقد قرأنا معًا بيوم ما، قول رامانا ماهاراشي (*) «الله والمعلم الروحي والنفس، كلهم وجود واحد»، ولم أفهم مقصده إلا الآن.

أهذا ما كان يعنيه ألبرت بالدرس قبل الأخير، حين كان ينادي ويكرر على مسامعها Separation (الانفصال)؟ ما الذي أراد أن يلفت انتباهها له، وهل سداجتها حينها هي ما أفقده صبره؟ هل كان يحذرهما من العودة للشكل form في الوقت الذي وعيت فيه اللا شكل Formless؟

هل كان يتعجّب من أنها تخلق الانفصال بوعيهما من جديد، توجد منطقة عازلة بينها وبينه، تبعده عنها قسرًا، فلا تباعد إلا بينها وبين نفسها، هل كان يقول لها بأن شكّها به هو شكّها بنفسها؟

(*) «God, the guru and self are one» Ramana Maharashi

هل كان يقول لها، إننا لسنا منفصلين عن اللا شكل الذي جاء بالشكل
بمرحلة من المراحل، اللا إطار القابع خلف كل إطار، هل كان يذكّر لها
برحلتها الطويلة معه وتنقلها فيها بينهما؟ هل كان ينبهها من خيبة له فيها،
لاحها تحزم متاعها نحوه؟

«الآن أدرك أن كل شيء حولي أراد لي هذا الفراق، الكل شارك بالتهليل
لرحيلي عنه، قرعوا الطبول ومشوا بجنازي خلف ألبرت، مايسترو الجوقة،
كما تعود أن يكون» تختم عينا فاتن الحزيتان قولها.

تتصل ابنة خالة فاتن والقريبة منها بها بعد بضعة أيام، فتحدثس تخبط
حالتها، وهي على علم بالخطوط العريضة لقصتها، فتخبرها فاتن عما يتأبنها،
وتنتهي بإرسال صورة عن اللوحة التي يسكنها شبح إلى جوالها، مترقبة
ردة فعلها. كأنها بسؤالها ابنة خالتها، ترمي بشباكها لأبعد بقعة من مياه
ترصدها عيناها، فيخيب صيدها، فتدرك أن الأمر كله من صنع خيال
ورّطت به كل أصدقائها ولا يمت لأي واقع بصلة، فتأكدي وليل لما
نراه معها فيها لا يكفيها. لا تفاجأ ابنة خالتها بشبحها وتراه على الفور
يتصدر خلفية اللوحة، وترمي عليها بمفاجأتها مستغربة غفلتها عنها أو
بالأحرى عنهم. تطلب منها أن تتفحص اللوحة مجدداً، فهناك العديد من
الأشباح التي تسكنها. يهبط قلبها من تصرّيح قريبتها، وتهرع بفتح الصورة
وتكبيرها من كل زواياها، فيستقبلها أوجه الغائبين الحاضرين فيها، طفل
يعدو خائفاً في العاشرة ربها، وجه طفل آخر يصرخ ويحتل الهلع ملامح،

شابة مراهقة تجلس على الأرض وتغطي وجهها بكفيها، امرأة تحمل طفلاً،
وشاب يهوي رافعاً يديه، يجمعهم استجداؤهم أو استنجادهم بها، يتشكلون
بسرعة كيفما حملقت بهم، فيصيبها صداع يجبرها على إنهاء المكالمات والوجوم
أمام احتمالات لا نهاية لها.

4

أود أن أكون سعيدة فقط!

كم أحب وجهه وحضوره، أفقدته وإن لم يغادرني يوما. متى سيوقن
كم أحبه؟

يبتسم فيبتسم الكون حوله، تتوهج عيناه الزرقاوان، يفتقر شفثيه ويقول
لي باللغة العربية، التي كم تبدو غريبة عليه ولا تليق به؛
«وسّعي صدرك»

تقول ليلى بسعادة: «ما زلت على تواصل يومي مع عبّاد، يتصل بي عدة

مرات باليوم، يسأل عني ويخبرني عن تفاصيل يومه، صداقتنا لم يخفت بريقها، إنه إنسان رائع. لا يترك بالوقت مساحات فارغة لا يملأها بلطفه وباتتباهاه للتفاصيل، وحين لا يتطلّب الأمر التفاتة، يعبئه بدعابة تشر كنا بضحكٍ لا نلبث أن ننسى ما دعانا له من البداية. كأن عبّاد جاء لرأب الصدوع التي تفنن هاشم باختلاقها على طول علاقتي به. مع كل مزاياه واختلافه الجذري بكل شيء عن هاشم، أحب أن أطمئنكم، مع مضي بضعة شهور على توطد علاقتي به، إلا أن حبي لهاشم لم ينقص ولا قيد شعرة عما كان عليه قبل تواصلتي مع عبّاد.

«ما هذا الذي أسمع منك ليلي، لقد زاد الأمر تعقيدا بداخلك، أليس كذلك؟ ماذا لو وقع المسكين بحبك الآن؟ ماذا ستفعلين عندها؟» أقول.

«جاءت مي والأسئلة! تعرفين أنني لا أحب التعقيدات والتحليلات، هاشم رجل غائب زمنيا ومكانيا وعاطفيا، وتعاملي مع غيابه يؤلمني ولا يخفف من حدة مشاعري نحوه، أما عباد فيملاً الوقت صخباً وفرحاً، يأخذني من وجعي، ويجبرني على الضحك معه من كل شيء، بخضم حفل القهقهة هذا، أضحك حتى على شوقي الموجه لهاشم. هل فهمت شيئاً؟».

تقول فاتن: «أحببت عباد بوصفك له، انسي أمر هاشم ولا تعودني لشح مشاعره، لن ينوبك منه إلا انتظار ما قد لا يبلغ محطتك أبداً.»

«صديقيني فاتن، وجود هاشم رحمة لعباد، بت أعرف نفسي جيداً،

فموهبتي بزعج الدراما بكل قصة لا يضاهيني بها أحد، كما أن وجود عباد خفف من وطء نداءات شوقي لهاشم، وإزعاجي له بها كل يوم تقريبا. ربما بعشوائيיתי هذه، حللت العضلة، ويمكنني الاحتفاء بحريتي بما فاق تخيلي بكثير».

هل هذه هي هيئة الحرية التي سعت لها؟ وأين بحثت عنها؟

ما الذي يجعلني وفاتن نلاحق ليل بأسئلتنا هذه؟ ولماذا ننكر عليها محاولاتها بكل مرة بدفعنا بعيداً؟ تراها تعلم بأننا لا نصدق ادعاءها بوجودها بالمكان الآمن الذي تزعم لنا بأنها فيه، وبأنه لم يسبق لها التنعم بالسكنى بأرجاء مثيلة من قبل.

اليوم تعترف أماننا بأنها تضيف عنصر الدراما على بعض الأحداث بحياتها، وهو ما أنكرته على نفسها بالماضي حين ألمحت لها بذلك. أحدها تكره نفسها حين تعترف بأخطائها وحين تنكرها أماننا، وتجذنا لا نصدقها بالحالتين، ترانا نراقب تعنتها ونقف مكتوفتي الأيدي، لا نعرف ما علينا قوله أو فعله، وهو ما يباعد بيننا وبينها.

لا أكف عن وصف الحرية الحقيقية التي تتوق إليها الروح، الحرية من الأفكار والخوف، من المقاومة والتعلق. لا بد أن ليلى تساءلت بينها وبين نفسها إن كنت أقصدها بتلميحاتي، بل ربما أدركت بأنني أواجه بذلك حريتها بحريتي وأهزأ من تحررها، لذلك كان ردها:

«حريتي تعطيني فرحًا لم أعش بكنفه منذ زمن بعيد، تُسكت كل الأصوات التي كثيرًا ما أزعجتني ونعقت برأس كل لحظاتي وأفسدتها عليّ. لا أرغب بأن أكون وليّة، أتنقل بين مدارات الكون العديدة بلمحة من وعي آخر بي. أنا الآن متحررة من المسببات والعواقب المترتبة عليها، من الواجب والمفروض وما لا يصح القيام به، أتنعم بحب نفسي، وحب الآخرين وتوقعهم لها. لم أكن بيوم أجهل من اليوم، ويسعدني انبهار الآخرين بأنوثتي وجاذبيتي كما بتميزي. تردف جوانحي بالحب ولا غيره أودله أن تعمر به أيامي. لم أسع إلى الطريق الروحي إلا رغبة بأن أكون بحال أفضل. أود أن أكون سعيدة، سعيدة فقط.»

هكذا كان جواب ذاتها العليا على اعتقادي غير المعلن بأنها تهرب من اللحظة، وتغرق نفسها برغباتها كي يموت الوقت بها، ولا تبقى لها فيه مساحة تسمع فيه نداءات خوفها وأفكارها التي لم ترحمها يومًا.

ذات لبلى العليا لا يهملها أن تمر بتجارب أفضل على القدر الذي يهملها حيازتها للأشياء الأفضل. ذاتها تأمل فقط أن تكون سعيدة، أن تكون بحال أفضل، وإن لم تحظ على ما تريد، بالطريقة التي تشتهي، لن تصل للحال الأفضل. الحال الأفضل هي مادة أخرى تسعى لامتلاكها المؤقت. كيف أذكرها بتمنيها أن تكون شجرة بيوم من الأيام؟ إنها كشجرة تتمنى لو أن الشتاء أقصر، فيما أنه لو تغير استقبالها للشتاء لبدا لها أقصر، لو أنها كانت متبائلة على هدره، مستسلمة لحسه، منسجمة معه، لما أحست بطوله.

إنها تعارك الحياة، وتعيش الحب بخوف. لكنها ليست بهذه الدوامه وحدها، كلنا نقاوم حريتنا الحقيقية، نقاوم الحياة، ولا نحيا الحب إلا بخوف.

وحين ينتابني وخز بضميري أخالها ترد عليّ بكل بأس: «كل منا مرآة للآخرى، وما ترونه اليوم بي، ربما رأيتموه بأنفسكم بالماضي أو سترونه بأنفسكم بيوم ما، وهو ما لا أفتأ أقوله لكم، كل شيء عرضة للتغير، لا نضمن بوصولنا لأي مكان ثابتنا فيه، كان المكان على سفح جبل أو ببطن واد». جواب ربما قرأته بعينها، العديد من المرات.

أنظر نحو فاتن، أبتسم لها فتقول لي عيناها وابتسامتها ما سمعته منذ بداية لقائنا اليوم، ولم تقله شفتها حقاً بعد. تترقق عيناها بدموع أعرف تماماً مصدرها، ولا أرى بُدّاً من نكء جراحها، فمعها لا تنفع الإدارة ولا المجاملة.

أسألها مداعبة: «أين أنتِ من هواجسكِ فاتن، ألم تفتكِ بكِ بعد؟».

«لن أسجل بالفصل المقبل مع ألبرت، وهذا لا يعني أنني لن أكون بفصل مُقبل له بيوم ما. لقد كلمت نفسي كثيراً، وبيوم نظرت إلى أفراد عائلتي وهالتي حفاوتهم بي وكأني عدت من سفر بعيد. هل هرعت إلى ألبرت حين كثرت الاحتمامات بيني وبين حسام؟ ترجع وساوسي لتطمئني؛ كم من مرة كانت لا ألبرت يد بمساعدتك بالخروج من حالاتك المهتزة، وإعادة التوازن إليك، كلما دبّت الخلافات بينك وبين حسام، وعدت بعدها

ليبتك بسكينة وبقوة ساعدتاكِ على إطفاء ما أضرم بينكما من حرائق. أين فقدت توازني إذن؟

هو الفصل الأخير، أين سأهرب منه؟! بعد كل ما مررت به من تفكير وتمحيص وأحاديث دائمة معكما، سأقر وأعترف بأنني لم أكن حاضرة في الفصل الأخير بطوله، واللحظة لم تكن شاغلي، درس بسيط بمفهومه وأعرف أعاجيبه بدقة، لكنني أتوه بأوقات عن تنفيذه، والالتزام بدقائقه، فتكون الخسائر أكبر بكثير من توقعاتي ويتوه عني رصدها، كمحاسب فاشل لا يعرف عواقب فشله، باحتساب مصاريفه كل مرة، فتصبح أرباحه لا قيمة لها. كانت العزة لكبريائي وحده، وضاع عن الصورة ألبرت وغنائمي الكثيرة وأنا بصحبته. الحضور باللحظة يغيب كل شيء لا يستحق الحياة داخلها، ليسنح للحب والحقيقة وحدهما أن يتنفسا وينموا. لو أنني التزمت بميثاق (الآن) لعشت الحب وحده معه، حباً ممتداً من حسام لأطفالي، لألبرت المعلم، للجميع، حباً خبرت كيف أحترق سماواته السبع بأجنحة ملاك يعرف طريقه جيداً إلى مملكة الله. أخفقت، والذي ضعف هو أنا وليس ألبرت، لم يلق عليّ الدور القدسي وهرولت منكفئة لإنسانيتي المتهاهلة والخائفة».

يسود صمت قصير بيننا، نهتمك به برتق جرح رحيل ألبرت، نبحت بأذهاننا عن مخرج معقول يليق بأحلامنا وآمالنا العريضة فيه. تقترح ليلى أن يحضر كل منا طلبه، وتتطوع بإحضار الإفطار بنفسها. تأخذنا جلبة

الطعام عن الكلام حول مواضيعنا الشائكة، فتبادل خلاله أخبار يومياتنا المعتادة.

«أين أنت من تميم مي؟ أخاف دومًا من سؤالك». تقول ليلى، فيصلني على الفور، أن سؤالها يخرج من قلبها.

أفرد ظهري محاولة أن أضفي على هيكلي العظمي الصغير حجمًا إضافيًا، أعدل بتموج شعري القصير المنشور بعشوائية حول وجهي المتناهي الاستسلام، أخذ رشقات طويلة من القهوة، أتنفس بعمق، وبعد صمت جليل أنظر بأعينهما: «ماذا سأقول لكما؟ يكاد حسه أن يختفي من أيامي، حتى أسئلتني الاعتيادية عن حاله، باتت تجرحه، ما الذي سينقله لي؟ انقطاع الكهرباء أم الفرح بكل مظاهره عن مدينتنا؟ الحرمان من الماء والدفء أم من العيش بكرامة إنسانية؟ تبدد اليوم وراء اليوم بانتظار كل الذي لا يأتي، أم مراقبة كل آثارنا وهي تحترق الواحدة تلو الأخرى آخذة معها تاريخنا العتيق، كأنه ما كان له من شاهد على أرضنا! أعلم أن القصة بيننا لا يختصرها هذا الفصل، وبين درفتها تنام فصول كثيرة، كما أعلم أنني سأحبه دومًا، كما أحببته من البداية. أنظر داخل عينيه فأرى كل شيء، حقيقة لا تتغير، لا يمكنني حصرها بكلمات، أحسها بداخلي كيقين وُلدت به منذ الأزل، وأجمعها على غيرها من حقائق أخرى بداخلي، تضج بالحياة، لا يعكر صفوها شيء، لا يهمها أن تتغير وتتلون، تتحرك بحرية بمياهي، بألق ملازم لها على الدوام».

الفصل الرابع عشر

استسلام

تأخر موعدنا لأحقاب كثيرة، فأضحى في بُعد ما حقيقة، ليس في خيالي فقط بل في خياله أيضًا.

اليوم سيأخذني تميم بجولة في دمشق القديمة بعد الساعة الثانية عشرة ظهرًا، كما وعدني بالأمس. أذهب معه خلف الأبواب بلا مقاومة، فلم أعد أنتظر شيئًا من التقاء جسدينا، وأحدس بأنه على مشارف الوصول إلى مكاني ذاته منه. أفكر بيني وبين نفسي بأن جسدي ليس أنا، ما هو إلا جسد، يهرم وسيصيبه العطب في أي زمن، وفي يوم ما سأتركه وأرحل، ولن يبقى منه ومن بقايا تميم عليه أي شيء.

يسألني تميم إن كان حذائي سيحتمل سيرنا الطويل، فلا أجيب. لم يكن هناك من سبب في الكون سيقف في طريق مشواري معه. أرثدي معطفي الوردي ولفحتي الباشمينة من اللون ذاته، وألفها حول عنقي

مرتين، شعري ممسد لتوّه عند مصفف الشعر ومنسدل على وجهي، وهو ما لا يروق لتميّم، فجهدت بتمرير أصابعي بين خصل شعري وأنا في طريقي إليه، كي لا يرى لمسات المصفف الشمعية عليه.

أعدو إليه كعادي، وكأن الطريق لم يسأم مني بعد. يقول لي ساخرًا حين أدرك مكانه: «ألم أقل لك، إن تميّم سيحل لك كل مشاكلك، ما عليك إلا اللجوء إليه».

يتلقف من يدي مغلف الأوراق الذي طلبه مني ويتأبطه لنقدّمه إلى صديقه المحامي، المتخصص في معاملات الإرث. يقفل مكتبه، وبيتدئ مشوارنا إلى دمشق القديمة سيرًا على الأقدام على أرض رطبة وسماء ملبدة بغيوم لم تنته من إنزال كل حمولتها بعد. يرتدي تميّم بنطالًا قطنيا رمادي اللون وتي شيرتًا وسترة سميكة مبطنّة سوداويين، وكوفية باللونين الأسود والرمادي، يلفها حول رقبتة وحذاء رياضيًا خفيفًا أسود اللون.

نقطع شارع المحاربين القدماء ومنه ننفذ إلى الشعلان، فتستقبلني الخضار والفاكهة متوهجة بألوان لا أعرفها لها إلا في مدينتي، وجهي يبتسم من مكان قصي في داخلي يستمهل اللحظات في سيرها. نقطع شارع الصالحية فتمر حذونا أربع شابات محجبات على مشارف العشرين، يتلقفن فرحي وينادينني فأقف، تتمم ألسنتهن بالدعاء لي متسائلات عن من سرّح لي شعري اللائق عليّ، أبحث عن عيني تميّم لتشارك الفتيات رؤيتهن الجمالي فأراهما قد ابتعدتا، على عجل تتلامس يداي مع أيديهن مودعة، قبل أن

أعدو للحاق بتميم، فنضمَّنها حبًّا وامتنانًا وفيرين. تنهمر الأمطار على رؤوسنا بسخاء عهدناه بها في الصباح الباكر. أمدَّ اللفحة على رأسي، وأترك أظرافها حول عنقي فأرى جدتي في انعكاس صورتي على زجاج الفاترينات، والطرحه ملقاة على شعرها المصفف والمملوء بأسبراي الشعر.

نتابع سيرنا فندخل شوارع خلفية لا أعرف بأنها توصل إلى المدينة القديمة. ألحق أخيرًا بخطوات ساقيه الطويلتين، يمسكني من يدي وتبدأ الشوارع بالتحول إلى شوارع ضيقة وقديمة، ويبدأ ذلك العبق بالتسلل على مهله إلى أماكن منسية، محبة وقريبة. يشعر تميم برودة أنا ملي، فيضعها داخل جيب سترته، وكلما سارع الخطو، خرج كفي من جيبه فيتلقفه ويرجعه إلى عشه. لا أحس بحرارة يده ولا بحميميتها، نفسه قصية عن متناولي، لا تقربني منها لمسات يده. لا تتمكن عيناى من اللحاق بتبدل المشاهد كأني أراها لأول مرة، على قدر ما قدمت نفسها إليَّ كل سنوات عمري. تتسرب رائحة خبز طازج من بين سرب الروائح الكثيرة المباغثة لنا، فنلمح مخبزًا صغيرًا تخرج منه الأرغفة الساخنة المطاولة والموشاة بحبات البركة والسّمسم، فيعدو تميم ويحلب رغيفًا، نتقاسمه، ويلتهم قطعتة التهامًا، وحين أعترف بأني قد لا أتمكن من أكل أي شيء بعده، يختطف مني القطعة التي بيدي ويلتهمها. نمرّ على محل لبيع الأتيك، يقف عند بابه وينادي: «وينه؟» فيأتي صاحب المحل مسرعًا، فأضحك من حركات وجه تميم ومن صوته العالي وكلماته الشامية الشعبية. يعثر وسط زخم من قطع قديمة فوق بعضها

على سلة فضية صغيرة، تلتف وتتوزع ورود منقوشة بحرفية عالية حول سطحها الإسطواني، يبازر على قيمتها ثم يهبها لي، فأصر على احتفاظه بها حين أعلم برغبته فيها.

نتابع طريقنا، فنمر بماذن قديمة لجوامع صغيرة لم أرها من قبل، يقف عند كل منها ويحكي لي تاريخها، ثم يرجع ويسألني أن أعبئ الفراغ بمعلومات عنها، فأضحك من جديته، ثم أمثل لقواعد لعبته. يغافله غضبه بين الحين والحين، فيسخر من عبارات فرضت علينا ورددناها مجبرين في طفولتنا، عبارات شوهت تاريخنا وفرضت علينا حاضراً لا يليق بنا، ويتبعها بمشاهدات فعلت التشويه ذاته على آثارنا. كمقدم برنامج وثائقي، يمهد لما ستقودني أقدامي إليه، يقف أمام الطلل التاريخي، يمد ذراعه نحوه ويبدأ بإلقاء محاضرته. لو قدر له وكان مسؤولاً في هذا البلد، لبنا حول العمود الروماني مرفقاً سياحياً أو على الأقل جعل منه نصباً، ثم يسخر مما آل إليه مقامه في هذه الأيام، فأمسى حجراً يثقب وتخرقه سلسلة حديدية تشكل أحد أطراف حاجز عسكري.

أربت على غضبه كعادي، وتعانده ابتسامة لا تغيب عن وجهي. نمر على محل عطور محلية، فيشتري لي عطر غار وليمون، يختزن عقب أيام مضت، ثم يطلب شامبو للشعر من الخلطة ذاتها لي وله. تحيي في رائحة الغار ذكرى يوم الاستحمام الأسبوعي في بيت جدتي التي كانت تنتظرنا داخله جالسة على الكرسي الخشبي مقابل الجرن الرخام، طفلاً وراء الآخر، تفرك أجسادنا

الطرية بكيس الحمام بعد استعمالها صابون الغار، والسخان خلفها، تلقمه خالتي كل حين بالخطب، ينفث بحممه الحارقة في أرجاء الحمام كما في أجسادنا.

من سوق باب سريحة، نمر بمحلات الكنافة المكتظة بزبائننا المنتظمين في طابور خارجها. يشتري لي تميم من محل يطري جودته، صحناً منها ويلقمني منه بيديه، فأثني على طعمها. لا تتوقف الأمطار عن الهطول في سماء عافها غدر القذائف وعويل الطائرات منذ بضعة شهور. نصل الشارع المستقيم من شارع باب توما. ننفق وقتاً لا بأس به بالمرور على الكثير من المحلات التي يجد تميم في كل منها غرضاً يود الاستعلام عنه، من أجله أو من أجل أصدقائه. نتابع السير فألمح تميماً يراقب سيدة شقراء طويلة، ممتلئة القوام، عيناها معلقتان بجوال في يدها، على الطرف الآخر من الشارع، فيقول متفاجئاً: «ما الذي جاء بنا ديا إلى هنا اليوم؟».

فأرد بلا تفكير: «لنذهب ونلقي التحية عليها، فمن مهازل القدر أن يرمي بها اليوم هنا!».

لقد كرهتها بالقدر الذي رغبت فيه برؤيتها يوماً في الماضي البعيد، وهما هي تقف أمامي كامرأة عادية، لا تلفت النظر، تبدو كأنها أوروبية، ولا أدري من أين أحسست بانكسارها ووحدها. ينهري تميم مستغرباً، ثم بعد لحظات من غياب يعود إليه حضوره الإعلامي، ويستطرد بتذكر كلمات حبها ومديح أهلها له، ثم يصف لي حسن ابتها ورغبتها، على شدة حبها

له، بتزويجه إياها. أتوقف ناظرة إليه بذهول وبنفور، فيصمت ويرسم على وجهه ابتسامة ساخرة، وحين أقول: «أشعر بالغثيان!»، يتراجع وتبدو على وجهه علائم ندم أو خجل.

نتابع السير، فنمر حذو مطعم النارج مقابل الكنيسة المريمية، فلا يمهل الخطى ولا ينظر نحوه، ويتلاشى أمل دعوته لي على العشاء مع غيره من الآمال. يتسرب ملله وغضبه المكبوت إلى ملامحه، ويتناثر في الفضاء أثرهما فأواجههما بالتزام الصمت. وما إن ندرك مكتب صديقه، حتى يلتفت لي يقول لي بحنق: «ألم يكن مشوارنا أفضل من أحلامك فيه بكثير؟». ترد عليه عينان صامتان لا تودان مواجهة ما حل عليهما من مشاعر. نصل مقصدنا منهكين، والشمس قد غابت والبرد قد اشتد، ورطوبة المكان ثم انطفاء الكهرباء، وعزلة تميم مع نفسه، لا تزيدني إلا انكفاء على نفسي أنا أيضًا. صديقه مرآة أخرى أرى فيها انعكاس صورتي بعينه، صورة تهينني وأزدرئها، ولا يمكنني الادعاء بأنها من صنع خيالي، لأن مشاعرها سبق أن وضعني بها مع صديق آخر له منذ زمن بعيد. هل يتعمد فيها إذلالي، هل يرد بها على تعريتي له بروايتي؟

يتنامى غضبه الذي لم يعد مكبوتًا، يخرج من كل خلية فيه، تعلن عنه ثرثرة لا تهدأ، تعلن كل شيء وتذم بهذا وذاك، بصوت عالٍ تحول إلى مخيف، فتتصاعد رغبتني بالهروب من وطأة الكهف الذي طال مكوثي فيه. أطلب سيارة أجرة قبل أن يلح علينا صديقه بتوصيلنا إلى وجهتنا، فأذعن لعرضه

مع الحاح تميم، لينتهي بي الأمر، بعد أن ينزل تميم في مكان يصير بأن عليه أن يكون فيه، جالسة وحدي بجوار صديقه في المقعد الأمامي لسيارته. أستمّر وجهي في الطريق، أردّ على صديقه بكلمات مقتضبة، أراعي فيها حدًا مقبولا من اللباقة، حتى إن أخفقت في مداراة خجلي وغضبي. يتركني يومي مع تميم وأنا أتقلب على جمر مشاعري، حانقة من غبائي وإصراري بالكذب على نفسي. يلاحقني وجه تميم المخيف، الغاضب والبعيد، قبل أن يغادر السيارة، من دون أن يلتفت، أو يوجه إليّ أي كلمة، فألعن نفسي الخائعة مئات المرات على التورط في حلم ما كان له أن ينطلق خارج جدران خيالي. أهذا إذا تصوّره عني؟ مجرد امرأة متحررة في قافلة نسائه، يتحداها في يوم أجمل من توقعاتها، يحاول أن يبهرها فيه بمعلوماته وآرائه وحذاقته، يقدم لها مدينته وكأنها لا تشاركه شغفها بها، ثم تجفل من الأبعاد التي ترى نفسها مدفوعة إليها حين يعرفها على صاحبه. إنه لا يحترمني! بل لا يحترم المرأة، ورجولته الشرقية الناقصة عشرة أمام رؤيته لكل شيء، وكما كان يقول: «أنا أكثر رجل في العالم لا يمارس ما يتشدد به!».

أتذكر تحذير زياد لي من طيف رجل خيف حلم به في الأمس كأنه حقيقة لا لبس فيها، يمشي في أرجاء غرفتي، تغطي الدماء وجهه، حاجباه عريضان وفوضويان، أنامله ممتلئة، يحمل سكينًا ويتمتم بأن عليه أن يقتل المرأة العصرية، ويصرخ باسمي الكامل عاليًا. بيني وبين زياد تواصل لا يحده شيء. يقف زياد أمام نفسي كما أقف أمام نفسه، كأنه بعضٌ مني.

يتصل بي تيم بعد يومين متفاجئاً من صمتي، كأنه كان ينتظر انبهاري بمشوارنا. لا أدري بماذا سأرد عليه، فيأتيني وجهه الطيب جالساً مقابل صديقه، يقدمني إليه باعتباري كاتبة لقصة يودّه لو يعرفنا إلى أحد من معارفه الكثر ليساعدنا بتحريرها كأنني ما سخرت منه في كثير من صفحاتها، قبل أن يستشير به بمعاملة الإرث التي جئنا من أجلها. ثم يأتيني وجهه يقف على باب مكتبه، متابِعاً حركاتي المتلعثمة الكثيرة، أرتب بها حقيتي وملحفتي وشعري، أنظر إلى مرآتي، جملي سريعة تشي بقسوة مبطنة بالقدر نفسه الذي يغلفها ضعف وانكسار، يقول: «أنا أبسط بكثير مما تتخيلين!». هل كان مزهواً بمرافقتي له، فقدمني بطريقته لكل من اعترض طريقنا؟ هل استاء من احتفاء صديقه بي، وثنائه عليّ، فتركني وحدي معه بسيارته أم تراه غار عليّ؟ هل أهابته مواجهة ما رسمه ليو من بحلمي به، هل خشي ألا يكون بمستوى توقعاتي عنه؟

يأتيني وجه من وجوه التي أعرفها وأمقتها، وجه ينظر إليّ كالغريبة، يستقبل كل ما يخرج عني باستغراب، يجبره على الصمت أو متابعة كلام لا معنى له، يود به أن يقتل الوقت البليد الجاثم بيننا. وجه أراه على الكثيرين من حولي حين ينظرون إليّ لوهلة ما كأنني كائن فضائي، يتساءلون فيها، عما هم فاعلون معي. كيف يشارك تيم الجميع إخفاقهم في رؤيتي على حقيقتي!

كيف ننسى في كل مرة تلك اللحظات الفريدة التي رأينا فيها بعضنا

بحق ونرجع إلى ذات الوهم ونقف عند تلك المسافة التي نتقن منها رؤية
ظلال لنا، كم نمقتها فينا! ظلال لا شغل لها، إلا إصرارها على تخريب ما
يعمر بيننا ثم ضمائها بألا نكون معًا.

كان عليّ أن أتخضر ليومي معه بطريقة مغايرة عما فعلت وكررت مرارًا،
بعد كل ما تعلمته واستوعبته جيدًا. كان عليّ أن أواجهه بلا تصوّر مسبق،
بلا رغبة وبلا توق، بلا ماضي وبلا مستقبل. لو أنني غبت باللحظة وغرقت
بكاملها، وتحررت من رغبتني بالاستحواذ عليه، لربما حظيت عليه.
المقاومة لا تسمح للحظة بالحدوث.

تفكيري بما كان لابد أن يحدث معه، وحكمي على كل ما يبدر منه من
قول أو فعل، كانا شكلاً من أشكال المقاومة. كيف هفوت عن حقيقة أن
كل تفكير بالافتقار، بعدم الكفاية، بالنقص، لا يأتي إلا عن معاندة. لو
أنني فقط رضيت لربما انتهت معاناتي.

لقد عشت حياتين على الدوام، الحياة التي أحيها حقًا وحياة أخرى
بمخيلتي، أصبو إليها ولا أدركها. أضعت عمري كله وأنا أصارع الحياة،
أنازل أطياها من أوهام لا نهاية لها.

بين حلمي بيومي مع تميم ووجودي معه أخيرًا، ولدت ونمت المقاومة.
لم استسلم طوال دربي معه. كأن بداخلي خوفًا من أنني لا أستحقه،
كما لو أنني لست جديرة بالحب.

الفصل الخامس عشر

عتبة فناء

«آتِ إليك دون نفسي فإتني دون نفسك»

جلال الدين الرومي

أين تميم؟ وأين أنا منه بعد مُضي كل ذاك الزمان؟

ما مصير البذرة التي نثرها يوماً بقلبي؟ كلما خلتها تحللت وضاعت بالتراب، أرى نبتة لها تنشق وترفع رأسها ملبية نداء الشمس من جديد. ربما كان عليّ الاستسلام لوجودها دائماً بداخلي، لتركها تُحيي وتُميت نفسها كما تشاء، وأمضي بيومي ممتنة لدفع قلبي واحتفاظه بفراشاته بين جنباته على الدوام.

كنت كلما جئته، تركت نفسي منسية بزاوية من زوايا المدينة، ولم يأتيني يوماً إلا ممتلئ بنفسه. كنت أنظر بعينه وأتلاشى، أغيب بحضوري معه

ويذوب كل شيء حولنا ويتهاوى. تحاور روعي وروحه وتركن لها، تسند رأسها أخيراً على كتفيها، تسكن ثم تنام.

تميم طفلي الآخر الذي يرفض بتعنت رعايتي، يدّعي بأنه كبير وما عاد طفلاً صغيراً، يعدو إليّ كلما انتابه الخوف. لكن الخوف يحيم على مدينتي ولا يعتق حاشية فيها، والجميع يفتش عن مكان ينزوي به ويصمّ أذنيه عن كل شيء.

لم تنته الحرب بعد وقصص الموت في بلدي لا يريد لها أحد أن تتوقف.

إلى أين ستأخذنا بعد ثقافة أنت وأنا؟ وإلى متى ستكتب مصائيرنا؟

أنا من هنا وأنت من هناك، أنا لديّ كل ما ترى وأكثر ولا أراك تمتلك أي شيء، أنا من هذه المدينة وأنت لست منها، أنا متعلم وأنت جاهل، أنا ألمعي وأنت أحمق، أنا بهي الطلة وأنت لا طلة لك، أنا أبيض البشرة وأنت أسمرها، أنا مؤمن وأنت كافر، هذه الأرض لي وليس لك أي حق بها، الله يحبني وحدي ولا يحبك، أنا من طائفة الناجين وأنت من طائفة الهالكين، سيهني الله الجنة وسيرميك في النار ...

ألا يمل التاريخ منا؟ أترأه أقفل صفحاته بوجوهنا، وأشاح بوجهه بعيداً عنا؟ من يشتهي أن يحكيها ونحن لا نتعلم من خطايانا، من يحتمل أن يجالسنا ويستمع لتبريرات ما نقوم به بحق أنفسنا، من لا يستحي من الإجهار بجاهلية كل ما يصدر عنا، من منا سيجرأ أن يعلن انهزامنا ويكتب

بمروءة آخر فصول روايتنا؟ ألا نستحق بعد كل هذه الأزمان، قدرًا أجمل؟
ما الذي ستتطلبه كتابة رواية تليق أخيرًا بنا؟
مديتتي تحترق ولا أعرف كيف أداويها.
مديتتي أحرقنتي كل حكاية فيها، من بدء التكوين وربما إلى نهايته
فيها.

«أتذكر حين قلت لي، إن أصابع قدميك تقع بالحلب أيضًا حين تكون
عاشقًا».
«لا، لا أذكر».

كنت دوما أود أن أسألك، هل آلتك قدماك يومًا بسببي، هل تاهتا
بغابات الوحشة التي أعيش بها منذ زمن بعيد، وحدي؟
«بت أمشي بين أمواج الناس الكثيفة بالمركز التجاري الضخم،
بطريقي لعملي، أتبادل النظر مع المارة، يغدون ويحيئون، وبوهلة أعلو
على الأرض قليلًا، وأدلف من الباب الأثري غير الموصد أبدًا، تصفعني
ذرات هواء مغاير عن ذلك الذي كان يلامس وجهي منذ قليل، تملأني
فرحة غامرة، تعي كل شيء وترضى به، ولم أزل أنظر بأعين المارة، أقرأها
على عجل من بُعد آخر لا يُعنى بتفاصيل كثيرة، يرى حقيقتها مجردة

لا تحسب حساب أحد، تستقبل مني حبًا، يخرج من مسامي سخياً». أقول
لتميم بيوم من الأيام.

«أتدريين ما اسم هذا المقام عند الصوفيين؟» يقول تميم.

«ما اسمه؟» أسأله بفرح.

يرد بصوته الذي لم أسمعه منذ أشهر: «مقام الفناء، آخر مقام عند
الصوفيين، الموت قبل الموت. حين أترأى لك بكل مكان، أخرج من
المرايا، أجلس مقابلاً لك وأنتِ تلبسين، أظهر على عتبة كل باب تفتحين،
أمشي معك بكل الشوارع، أذوق معك طعامك، أتلقف معك الكلام
يتساقط من مخيلتك على الورق، دائماً أت معك، ثم أجثو جوارك حين
تنامين، هذا أيضاً فناء، وإن كان آخر».

يصمت قليلاً ثم تخرج كلماته على مهلها كأنها تهمس بداخلي: «منذ
اليوم الذي التقيت فيه بك إلى آخر يوم رأيتك فيه، لم يتغير مقامي منك،
هو درجة دائمة وليست حالة شعورية لا تدوم».

حين يتكلم، تصحو طفلة بداخلي من سباتها، طفلة ولدت يوم سمعت
صوته، تحيا كما تنام عليه. صخبها يفقدني تركيزي على مضمون كلامه،
يضئع مني شيئاً منه وأنا أحاول أن أهدئها، وبمرات كثيرة تغلبنني، فأقتنع
وأرقص معها وأنصت لهدرها إلى أن نجلس معاً مشدوهتين نراقبه، فلهدير
الحياة نهاية، وسنعود معاً للوحشة عما قريب.

أهرب من وعود وثقل الكلمات: «أحب أن أعرف عن الصوفية. وبحثي
يأتيني بما لا أحب أن أقرأه بكثير من الأحيان، أكره الاختلاف والذم
والقذف، لا طاقة لي عليه الآن».

«ألم تقرئي ما كتبت عن التصوف؟».

«لم ترسله لي، وحين أكثرث عليك بالأسئلة، فررت!».

«سأبعثه لك فوراً، وستتعرفين فيه على مقام الفناء عن كتب».

«كلي شوق».

ينتهي تبادلنا للجميل النصية ونتفق على التحادث باليوم التالي، بعد
القراءة.

«هل أعجبك ما كتبته عن الصوفية؟».

أصف له حلمي به، قادماً إليّ بحزمة من قطع قماش مقصوصة ومنشأة
كأنها أوراق لكنها أكبر حجماً منها، حُبكت خيوطها فكانت نقوشاً بغاية
الأناقة والتناسق، ألوانها فاتحة بألوان الطبيعة البعيدة المدى، تلتصق بها
ورقة من الوسط، عليها رسماً بالألوان المائية، لمشهد من مشاهد محكمة،
تحضرها شخصيات كرتونية، رسمت بمهارة وبخفة عاليتين. كان بالحلم
يريني صفحاته والسعادة تغمره، حولي أقربائي وشقيقتي، تزين معاصمنا
أساور من قماش حريري، حيكت بأيدينا، نتبادل إعجابنا بها والتعليق على
ما علينا فعله لتطویرها.

أقول له: «هل ترغب برأيي المجرد أم إنك تفضل ألا تسمعه مطلقاً؟». بعد دقائق من صمت مطبق يقول لي مستسلماً: «احلي لي برأيك المجرد». «مضمون ما كتبتة ثري ووفير المعلومات، لكنه بعيد، كمن يحضر محاضرة عبر شاشة ولا يرى الأستاذ يقف بكل انفعالاته أمامه. الشخصيات التي تتكلم به كثيرة، لغتها صعبة وقديمة، تُجبر القارئ على التوقف الكثير، وإعادة القراءة».

«إذن لم تفهمي ما كتبت، توقعت منك عكس ذلك».

أصمت، أفاضل بالأجوبة التي يقترحها عقلي، فأستمر بالصمت، ثم أطلب منه أن يدعني أحضّر نفسي لموعد الطبيب المقبل بعد ساعتين. أعدو لتحضير ملابسني، ثم أنسل على عجل تحت المياه الدافئة، أغمض عيني، وأعيد على نفسي كلامي له، أختبر وقعه عليّ مجدداً، لأنأكد من أنني لم أقسُ عليه، فيرتبط معي بتوافق يسير وغريب مع حلمي.

أجفف نفسي وأجهز لمغادرة منزلي بعجالة وعلى الطريق للطبيب أتصل به.

أجند كياناتي كلها من أجلي وأجله وأقول: «جئتني بالحلم بالليلة التي قرأت بها جزءاً من عملك، تحمل أقمشة جميلة، لم أر بجمال تصميمها نسيجاً من قبل، مما يعني أن مضمون العمل جذاب ولافت للنظر، عليها رسوم بالألوان المائية الشفافة وليست الزيتية الأكثر حدة وسماكة، والرسوم التي تصور عملك بالمحكمة كانت فنية أيضاً، لكنها أيضاً بسيطة، مما يعني

أن الوضوح واليسر مستحسنان بالعمل، أما الشخصيات الكاريكاتورية الهزلية، فهي جانب شخصك المحبب والقريب من القلب الذي لم تظهره بكتابتك، أي حقيقتك، وكم هو بهي جوهرك. أقولها لك حبيبي للمرة الألف».

يصمت هذه المرة أيضًا، لكن لصمت السلام وقعًا مغايرًا، على طول انتظاري له، أعرف تمامًا هيئته ولا يمكن لحواسي أن تخطئه.

ثم يعود للتحدث بلسان شخوصه الكثيرة بكتابه، يدافع عنها وعن المنظومة الأكبر، ويلوم الكثير من الشيوخ الذين ورطوا الأمة بنزاعات لا حصر لها. ويشدد بأن ما كتبه موجّه للخاصة وليس للعامة.

«أليسوا الخاصة من ورط العامة بكل هذا الجحيم؟ العامة تحلم بالسلام، ولن تهبها الأطر التي تختبئ خلف النصوص والكلمات إلا الخراب. صدفة أنني هنا اليوم وقرأت عن كل رافد قد يوصلني لهذا العالم باللغة الإنجليزية، ومن جهات مختلفة، أخرجتني من هم الأطر والشكل، حررتني من ثقل الكلمات. ها أنت اليوم تقول لي إنني خبرتُ الفناء، ولا أعرف عن الصوفية إلا القليل، وربما كنت بالنهاية أعرف كل ما يجب أن أعرفه عنها». أرد عليه بحذر، بوجه متوهج من انفعاله، خائفٍ من أن يثير حنقه.

يصمت مجددًا، صمت الموافق ربما أم صمت من سأم من الكلام؟. أعجب من كل تلك السنين التي ملأناها صخبًا، أضعناها ببناء السدود،

سدًا وراء سد، وحين سقط كل شيء بالعدم، تداعت الجدران، تماهت
الأشكال والتبديات، وجدنا أنفسنا معًا، كما تقنا يومًا أن نكون، بهذا العمر
أو بكل الأعمار التي التقينا بها ولم نسمح لأرواحنا بأن تلتقي حقًا.

على عتبة فناء التقينا، كعاشقين خائبين منذ زمن بعيد، أم ككائنين، عادا
طفلين، يخلقان حذو الملائكة بأعلى سماء ولا حاجة لهما لأجنحة.

الآن، لا فرق.

الفصل الأخير

«لا تضع كلمات المعلم الروحي، الرهبان، الشيوخ، الأئمة، والعلماء والأصدقاء أو كلماتي، بمرتبة أعلى من مشاعرك الشخصية الدفينة داخلك. يمكنك تعلم الكثير من الآخرين، لكن المعرفة الحقة والأعمق عليها أن تأتيك من داخلك» (*).

(*) من كتاب (سيث يتحدث) للناقلة الروحية جين روبرتس

From the Book «Seth Speaks» – For Jane Roberts.

كنت أنتظر اليوم بطوله أن تومض شاشة هاتفي بأحرف اسم تيم أو فاتن، وجاء اليوم الذي يربض به الهاتف على الطاولة ولا تومض الشاشة باسم أيٍّ منهما.

في يوم ليس ببعيد التقيت بوليفتيّ روحي واحتفيت بلقاءاتنا احتفاء أمّ عاقر بوليد حسبته لن يجيء. كنت أسابق الوقت لموعدنا، وأخاف على الدقائق معهما أن تنقضي، أنصت إلى كلامهما وأحفظه، أفكر فيه حين لا نكون معًا وأقلّبه من كل أوجهه، وأعود إليهما باكتشافاتي ونتائج تفكيري وبحثي المملين في غيابهما. كنا نكبر معًا، ونبارك كل تجلٍّ من تجليات ولوجنا عالم السحر، مهما كان صغيرًا.

في البداية، التمسّت الحكمة التي تخرج من كلمات ليلي وتشبث بها، وهكذا فعلت فاتن، كانت تفرض علينا تصورها فنركن إلى ظله ونرتاح

لأمنه، ومع الوقت لم تسمح لنا الاستغلال بغيره، إلى أن باتت حواراتنا مبتورة، أستمّر فيها بالثرثرة وحدي بعد استسلام ليلى، وفاتن تنقل ناظرها بيننا بقلق نشوب حرب مباغطة، إلى اليوم الذي اختارت فيه ليلى التغيب عن لقائنا، والاعتذار المتكرر لأسباب كثيرة، فاخترنا في النهاية ألا نساها الانضمام إلينا في كل مرة.

داومت وفاتن على تبادل انبهارنا بكل ما يمر معنا، نرى كل شيء من زوايا مغايرة أكثر عمقاً مما رأيناها عليه في أي وقت مضى، فتوطدت علاقتنا وخُلقت بيننا أواصر لم أعرف بمتانتها مع أحد قبلها. أنا معها على سجيتي، أحاسب نفسي أمامها كأنها منا، كائن آخر من كياناتي المجنونة، فأسمح لها بأن تنتقدي كما أنتقد نفسي تماماً، لتركني أسخر معها من تصرفاتي وأفكاري وكل البواعث لها. مع أنها تخبرني بالكثير، وتفرد نفسها أمامي أيضاً بصدق كبير، لكنني أدركت منذ البداية بأنه لا يمكنني أن أنتقدها بالأريحية التي سمحت لها بها أن تفعل معي. كل منا احترام خصوصية ووقت الآخر، فلم نكن نلتقي إلا حين تسنح لنا ظروفنا بذلك، كل عشرة أيام أو أكثر. كنت أقول بيني وبين نفسي، وهو ما أجهرت فيه فاتن بضع مرات على مسامعي، المسافة المعقولة بين الأصدقاء تضمن صحة ودوام علاقاتهم على المدى الطويل. فاتن تعتمد على حدسها في كل أمر، ولا تقتفي أثر شيء لا يرميه القدر في دربها، فيما لا أثق أنا بحدسي على الدوام وأمطره بمعلومات لا أكلّ من استجلاها من كل مكان، وباجتماعنا تلتقي الرؤى والمشاهدات وتتداخل ويكمل بعضها بعضاً.

في يوم جمعتنا أوجاع الحب وأفرغنا لأيام طويلة بعده عذاباتنا منه. خلنا أن الحب مرادنا، ودربنا لمعرفة أنفسنا، وكل ما نتوق إليه في الحياة. كل الدموع التي ذرفناها من أجل الحب، والدماء التي نزفتها أقدامنا سعيًا إليه، اتفقنا على حقيقة أنه كان ينتظرها حب أكبر. لا أجل من العثور على ما غاب عن الذهن ضياعه في خضم البحث عن شيء آخر.

كانت فاتن تمطرني بكلمات إطراء، ترى دومًا ما لا يبصره إلا المحبون الحقيقيون، فلا تترك أي شيء يصدر عني إلا وتعيده انتباهها، وتحرص جيدًا بأن تُعلمني بوجوده. تشابهنا وتوالفنا كان حقيقة لا شك بداخلي فيها، ومَعْلَم من معالم طريقي إلى التعرف إلى نفسي، إلى الله الساكن فيها، على عتبة من عتبات الفناء.

تبوح لي بمكنونات عالمها، فأصدّقها، تتردد ويصيبها الارتباك بسردها لبعض التفاصيل فأطمئنّها، تتحير إن كان أي مما يتبدّى لها وهمًا، فأبتسم وأربط لها الأحداث ببعضها، ووقفاتنا الكثيرة لنا معًا في كل مرة. كنت أبعد الكثير من الشكوك التي تحاول أن تحوم حولي حين تحكي لي حكاياتها، خصوصًا حين تمتلكها هواجسها التي تتطير فيها من بعض الأشخاص، إيمانًا مني بقوة حدسها، وبمدى ارتباطها بالعوالم الأخرى. فمرة انكسر الطبق وتبعته المزهرية في بيتها من زيارة صديقتها وزوجها، ومرة خسر زوجها في تجارته بعد قدوم ابن عمه -الذي تجزم فاتن بسوء طاقته- إلى بيتهم، وإقامته فيه لبضعة أيام، ومرة نهزت زوجها عن استقبال أحد أصدقائه

في بيتهم، لتخوفها من حضوره الخبيث، وأشعلت البخور وتبعته بتدوير صوت مسجل لشيخ، يردد أدعية كثيرة، تلفّ أرجاء المنزل، إلى أن تعذّر على الضيف فعلاً بلوغ عتبته.

تملّك فاتن ولبضعة أشهر عنوان الانعكاس Reflection، هكذا كمفردة مجردة، متزامنة مع رغبة شديدة برسم مشاهد طبيعية، فعدت باحثة عن معانيه وخفائيه وقرأت بنهم كل ما يمت إليه بصلة، إلى أن رأت نفسها ترسم مجموعة من لوحات، تتمركزها صفحة مائية، تعكس منظرًا طبيعيًا ما. لم تكن فاتن تؤمن بالأرقام وعلم الأبراج الذي أضجرتها بالكلام حول عالمها، إلى أن رأيتها وحدها تتبّع إشاراتهما بذهول، مردّدة عنوان الانعكاس أيضًا أمامي وعن أهمية دلالاته في هذا الوقت بالذات في حياة من يشاركونها برجها. أنصتُ إليها كعادي، وراقبت لوحاتها بانبهار من يُبصر أعجوبة تكشف عن أسرارها واحدة تلو الأخرى، وتتجلى أمامه بوجه جديد يومًا بعد يوم. اللوحة الأولى كانت لغابة استخدمت في رسمها تدرجات مبدعة للون الزيتي، يفصل جسر خشبي قديم مهترئ، وتغطيه الأغصان الكثيفة فيبدو قصيرًا، بين طرفين فيها. ينعكس المشهد على صفحة بحيرة ضخمة تحتل أسفل اللوحة. لفتني الجسر العتيق وأخبرتها عن ولعي بالجسور، ولفت نظرها إلى الباعث وراء انتقائها رسمه، فتأملت بأسباب ذلك إلى أن توصلت بعد بضعة أيام، إلى أنها تمر بمرحلة دقيقة ستقلها من مكان إلى مكان أكثر وعيًا. ثم أتبع اللوحة الأولى برسم لوحة أخرى لأشجار كثيفة باهرة الجمال، تقسمها أيضًا صفحة مياه متوهجة إلى جزئين.

لم تستكن نداءات «الانعكاس» في داخلها إلى أن وجدت نفسها تبحث في صور فوتوغرافية قديمة عن شيء لا تعرف ماهيته، فوجدته في مجموعة صور التقطتها في إحدى العطلات التي ذهبت فيها مع عائلتها إلى نهر الميسيسيبي، شرق مقاطعة أونتاريو، بهرتها بعض اللقطات، وعزمت بهمة على رسمها وضمها لمجموعتها.

أجلس في المقهى، ولمرات لا حصر لها، أنازل أطياف مخاوفي المتكاثرة على مائدتي. يبدو أن الغلبة لن تكون لصالحي اليوم مع الكثير منها. تتصل فاتن مقترحة أن أمرَ عليها بدلاً من أن تأتيني إلى المقهى، فلقد أعدت وجبة كوسا باللبن اشتهدت لي أن أتذوقها. باستسلام فرضته عليّ هزيمة مسبقة أمام الكلمات أوافق، أبتلع حدسي وتحذيراته وأذهب إلى موقف «السب واي»، لأصل منه إلى آخر قريب من بيتها على أن تأتيني وتقلّني منه.

نعيق حدسي لم ينسني، وكعادي أصمم ألا أفهم تحذيراته وأدلف إلى زمن لا ينتظرنني فيه ما يسرني. هناك ما يحثم على صدري ولا أفهم له سبباً، فرحي بحضور فاتن أمامي، تغيب على غير عادته ولم يأت. نحضر مائدة الطعام معاً، أبحث عن قدر الأرز في أرجاء المطبخ فلا أجده، أتساءل بيني وبين نفسي: إن كانت عائلتها تتناول الكوسا بلبن من غير الأرز المفلفل عادة، فتتأبني خيبة طفولية، تحضرت لمذاق معين ولا تود الآن أن تنحرف عنه إلى أن أرتاح حين أكتشف أن الأرز محشو داخل الكوسا ولم يغب كما خشيت أن يفعل.

أجلس إلى مائدة أعدتها فاتن بحبها وكرمها المعهودين، تطوّقني باهتمامها وشيء في داخلي لا يستقبلها مع كل محاولاتها، تحاصر عيناها كل ما يصدر عني فلا يزيدني ذلك إلا انزعاجاً. لا أدري ما الذي أطال بتسمري على كنبه غرفة الجلوس، أنقل ناظريّ بعبث في الغرفة، على شاشة التلفزيون، على وجه مها الطيب يبحث عن أمه، إلى وجه حسام القادم من عمله بعد انتهائنا من الطعام والجالس على الكرسي قبالي، إلى جسد فاتن كثير التنقل في المكان متحيراً بتقديم حفاوته، فلا أرى شيئاً. في مشهد أرى فاتن تتقاسم الكنبه المقابلة لي مع حسام، وتتنظر إليّ بريبة وبخوف، وأقابل نظراتها باستسلام مريض مستلق على سرير المشفى، لا يجهد نفسه بالكلام مع زائريه، الذين لا بد سيقدرّون حالته. يتصل بي زياد، يطمئنني عن حالة بنت ابنة عمتي، التي تربطها به صداقة قوية وخاصة، بعد تورعنا من إصابتها بالاكْتئاب وهلعنا من احتمالية أذيتها لنفسها، الذي لا تعرف عنه ابنة عمتي شيئاً، ليبقى سرّاً بيننا، يجثو هو الآخر على صدري. تمر ساعات طوال، قبل أن تعرض فاتن عليّ أن تقلني إلى محطة «السب واي»، على أن نمر على محل حلويات قبله لتتذوق صنفاً من الحلويات تمنّت عليّ تجربته. أوافق أيضاً باستسلام غريب، ربما رغبة مني بتغيير شيء بمشيئة ذلك اليوم. وعلى باب المحطة وقبل أن أنزل من السيارة، أعترف لها بحوار تافه جرى بيني وبين تميم، وخوفي من أنه لم يتواصل معي من يومها، فيواجهني وجهها المصدوم من قولي، ثم المسكون بفزع وبوجل كبيرين، سيقطنا تخيلتي لزمن طويل،

وتمتلئ عيناها المفتوحتان عن آخرهما بالدموع، وكأنها شهدت على فاجعة لا يمكن تصورهما ثم تردد بهلع على مسامعي: «مجنونة»، لا أدري كم من المرات قبل أن تعانقني قائلة: «اللعة على الرجال كلهم، إنه لا يستحق ظفرك!». يصدمني انفعالها فتُجبر عيناها على ذرف بعض من دموع. أعود إلى بيتي كأني منومة، غائبة عن الوعي، أذوق الحلوى التي ابتاعتها لي فاتن فلا أحس بطعمها، ثم أجبر نفسي على شكرها برسالة أشعر بأني أجاملها فيها، فلا يأتيني منها رد. أنتظر بضعة أيام فأتصل بها، فلا تجيب، أبعث إليها برسالة أسأها عن سبب عدم ردها، فيأتيني ردها بانشغالها، وبأنها ستتصل بي حين يتسنى لها ذلك.

أراجع أقوال في آخر لقاء لنا، فلا أذكر منها شيئاً معيماً، فأبعث لها برسالة أستعجب بها مقاطعتها، وأبشها عجزني عن انتقاء الكلمات وذهولي من أنني أوجهها إليها. تتصل بي من فورها، فأخاها تسخر من المكان الذي تاهت به مخيلتي، فأमित هواجسي من فوري مستقبلة بحذر بعيد صوتها، فيأتيني صوت غريب بنبرته وبجديته كما بقسوته، صوت عالٍ ولاذع، متقصد منذ البداية أن يُسمع ولا يهمه وقع كلماته على مستقبلها:

«أنت تحيين الصدق وتحلينه وتتمنين لو أن الجميع يتعاملون معك من خلاله، أليس كذلك؟».

يقع قلبي من مكانه. وفي وهلة أتمنى لو أغيب ويتوقف الزمن عن المضي في الطريق الذي عزم على المضي فيه. مستقبلة صمتي تتابع: «حضورك في

بيتنا كان ثقيلاً ومؤذيًا وطويلاً، حين تكونين في هكذا مزاج، عليك أن تجهدي بالأل يلقاك أحد. حضور غير مقبول، غير مقبول» تردد بانفعال.

تنسال على عجل دموعي، أختنق بها فيخرج صوتي مرتجفاً وخائفاً:

«ما الذي تقولينه، لا أدري ما كنت عليه، لم أكن مستاءة من شيء محدد، وبالتأكيد لا شأن لك بما رأيته عليه. هل بدر مني كلام أزعجك؟».

بإصرار لا تتوقف أنفاسها لأخذ استراحة وبغضب واثق بمنابعه تتابع:

«كنت متأكدة من أنك ستذهبين في ظنك إلى هذا المكان، لذلك لم أكن أنوي أن أخبرك. من الصعب عليّ الادعاء والكذب والاستمرار بمجاملتك بعد الذي حدث. منذ اللحظة التي دخلت فيها بيتنا، نظراتك وتلفاتك، أحسست بها لا تحترمني، حضورك كان مؤذيًا، الطاقة المنبعثة منك لم أر على أحد مثيلها. رأيت ما يشبهها على امرأة مرت في حياتي منذ زمن بعيد، كررتها أمامي لثلاث مرات، فما كان مني إلا مقاطعتها».

أرتعد من الخوف على الحال التي تصفه لكائن لا أعرفه ولا يمكنه أن يكون أنا، لكنني أثق بها، وأركن إلى رأيها، وأرتاح لحضنها ولم أستوعب في لحظتها بأنه عليّ الآن أن أقف على قدمي وأواجهها، وقد أدفع بحضنها بعيداً، إلا بعد فوات الأوان. أجهد نفسي على الكلمات وبصوت متهدج أقول: «لا يمكنني أن أقصد أذيتك، لا بد أن في الأمر سوء تفاهم حدث في موقع ما ولا دراية لي به، لا يمكنك أن تعرفيني أكثر من نفسي التي لا توجد فيها خلية تضمّر السوء لك. أنت تعلمين جيداً مكانتك عندي.

ما الذي رأيته في ذاك اليوم ولم تريه في السنوات الماضية؟».

بقسوة ربما حدستها فيها مرات وأصررت على نكرانها تقول: «هنا تكمن المصيبة الأعظم، أنك لست على علم بكمّ الظلام الذي تحملينه! ما رأيته فيك يخيفني! في النهاية أنا أحب نفسي مهما أحببتك، وأودّ لنفسي دوام سعادتها، ولا أعتقد أنني على استعداد أن أرى هذا السواد مجددًا». وبلا تردد يعمق سيفها الولوج بجرحه: «كان يمكن للمرء أن يعيش عمره كاملاً ولا يمر عليه ظلام بهذه الحلقة». ثم ببرود تأمرني، وكأن مثلي لا يمكنه أن يتأثر بطعنات السيوف: «لا تبك أرجوك. حاولي ألا تفكري في الموضوع ودعيه يطفو وحده بسلام».

ترتجف أوصالي وأنتقل من البكاء إلى النحيب، نحيب عميق يمتد من عضو إلى عضو في داخلي، أنتشل الكلمات من حنجرتي الغارقة بمياهه انتشالاً: «ما الذي تقولينه؟ ما الذي تريدين لي أن أفعله حين تقولين لي إنك كنت في حضرة الشيطان؟».

تصرخ قائلة، بعد أن تدحرج ابتسامات متتالية تسخر بها من سذاجتي: «تماماً الشيطان!».

أمام تمدد نشيجي المعلق على سماعه هاتفي كما طال تسمري على كنيته في ذاك اليوم، تعيد سيفها لإغمادها، وتُخرج كلمات قليلة من جوفها وتدحرجها كيفما جاءت، كلمات يتبادلها الناس العابرون، يتراشقون بها أخبارهم وحالهم،

من مستوى سطحي يسهّل عليهم الانسحاب من الحديث في النهاية.

من وقتها وكلماتها تتردد على مسامع يومي، ترمي بظلالها على كل ما يمر فيه، تخلق أنفاسه وتمضي بنصل أذاها إلى كل دقيقة فيه. نظراتها المتوترة يومها التي كانت تخفي بصعوبة قلقها، وأسئلتها التي لا قرار لها تتابعني وكم تؤذيني، أدرك الآن فقط بعضًا من معانيها. عقلي لا يهدأ، يعمل بتؤدة على ترجمة كل ما خرج مني يومها ودعاها لقول ما قالت، قلبي ينتفض من جرحه وينبض بحزن لا أعرف له من قرار، وعيناها تذرفان دموعًا، ما إن تتوقف حتى تعود إلى دورتها بالانهمار بغزارة وبصمت. يحزن زياد على حالي، يراني أبكي اليوم بطوله فلا يهون عليه، لكنه مع ذلك، لا يخاف، ويجرأة يؤكد لي بأن ما من أحد لديه الحق بقول ما قيل لي، وبأن عليّ أن أهدأ وأكف عن جلد نفسي، وكأني قد ارتكبت خطأ لا يغتفر. لا أدري من أين جاء بثقته وقال بلا تردد: «فاتن ترى الأمر برمته من ناصية عالم اختلقته بنفسها، فتلوّن الواقع على هواها، وربما أيضًا استجارت برؤى أناس من حولها».

لا يبتأني مع كل ما قالته فاتن مشاعر تجلسني في موقع الضحية أو تؤويها هي بسرير الظالم أو الكاره، كما لا تفقدني مشاعري نحوها. رأسي يدور بأفلاك أخرى محاولًا الإجابة عن أسئلة تأتيه من أمكنة بعيدة ولا تليق به وبهذا الوقت، أن يهيم بها، فطالما ضيّع نفسه مع غيره من ملايين البشر في دروبها.

«أنا ظلام حالك»، تقول لي صديقة روحي، فهل أنا كما تصفني ولا كنه لي بحقيقتي؟ لماذا كنتُ على تلك الحال يومها؟ هي تقول بأنها وجدت أنني لست بخير قبلها بيومين حين حادثتني، لماذا إذاً أصرت على دعوتي إلى بيتها والآن تنصحني بالأمر وأرى أحداً وأنا على هذه الحال! فإن كانت هي أقرب إلى النور، فكيف تسنت لها رؤية كل ذلك السواد الذي تصفه؟ كيف تكون أعمى وترى الألوان جميعها؟ كيف يرى النور الظلام؟

تركن فائن إلى تربيتها، عقائدها ومشاعرها، فتخلق عالماً تراه بموجبههم. المشكلة أنني أثق بها وأصدقها، أقدر مكاييلها وأخذ بها، والآن حين نابني تقديرها، هلعت، كيف أصدقها وأبدأ برؤية نفسي كما تراها هي؟ كيف أسلم لذلك الشيطان الذي رأت وجهه يزاحم وجوهي السابقة كلها ويخرج رغماً عني ويواجهها؟

أين أنا من نفسي؟ هل تشبه حقيقتي ما تراه فائن بي الآن أم ما يراه الآخرون مني، أم ما أعتقد أنني عليه؟ ما الذي يصر عليه الآخرون ويريدون لي أن أدركه؟ ولماذا يتحملون عناء تعريفني بنفسي!

«لا بد لفرح كالذي خلقه في داخلي، أن يكون له وجه آخر حارق كالذي يولد بين جوانحي في كل لحظة من لحظات يوم لا ينتهي»، قالت لي يوماً تصف ألمانها في مواجهة رحيلها عنه، وما كان لصداقتنا أن تعطف ولن أصدق بأنه يمكنها أن تنتهي كما يحدث مع العلاقات الاعتيادية بين البشر، فتواصل من المستوى الذي كنا نتواصل منه، كان لا بد له من انحناء من

المكان ذاته، مكان لا يُعنى بالكلمات، ولا يتوقف عند التصرفات ويتعثر بالواجبات. لا بد أن أكون ممتنة الآن، فالمفردات الروحية التي لعبناها، وظننا يومًا بأننا حزناها وذللناها لخدمتنا، جاءت بكل ثقلها لتطاردنا، في عقر وجودنا. اليوم لا تلومني فاتن على كلمة أو تصرف بدرا مني، بل على طاقة غير مرئية بثتها في الفضاء دون دراية مني.

تتكاثف الصور أمامي وتأتيني من ماضي القريب والبعيد، تنبلج وجوه أحببتها في يوم ما وفي يوم آخر اختفت ودعوتها للرحيل بكل هدوء دون أن يتباني ندم أو شعور بالذنب. لو أبعدت الصورة قليلاً وأعدت النظر إليها لوجدت أني قمت بها قامت به فاتن مع غيري بجلبة أحيانًا، وهدوء في أحيان أخرى. ألم أدفع بليل بعيدًا عن أيامي حين رأيت بها وجهًا أو وجوهًا لا تريحني؟ عرّت ليل نفسها أمامي، وأرنتي وجوهًا مذعورة من نفسها، تائهة بمخاوفها أيضًا، تبحث عن الحب ولا تشبعها عطايها، تكثر من الأسئلة وتبالغ باستقبالها لكل شيء. لا يأتي الحكم على الآخرين إلا من خوف، لا يأتي عن بأس، لا يسمح به النور أبدًا.

في اللحظة التي يأخذ المراقب دوره، مثبتًا الآخر المائل أمامه مقابلًا له وعلى مسافة منه، مطلقًا عليه أحكامه، معتقدًا أنه إنها يحمي نفسه وحدوده من مباغته لا لزوم لها، يكون يؤسس للحائط الكبير بينه وبين الوحدة، بينه وبين ال oneness. المراقب يخلق الانفصال، العزلة، القطيعة ال separation الذي ظل ألبرت يصرخ بها في وجهها في آخر أيامه معها.

هو نفسه الجدار الذي حين كبر وتضخم غدا جدار برلين وجدار غزة، واليوم، ما قد يصبح جدار المكسيك.

أين إيمان صديقتي القوي؟ أين ذهبت حكمة «ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها» فلتسأل نفسها، لماذا كان يا ترى الفجور قبل التقوى؟ أتكر عليّ فجورًا خرج عنوة عني وأراها وجهه، وكأنني لست إنسانًا آخر على كوكب الأرض؟ ألم ترّ وجهًا لآلبرت أخافها أيضًا في يوم ليس بالبعيد؟ ألا تذكر حين أرّنتني صورة له ووضعت كفي على نصف وجهه الأيمن، لأريها اختلافه عن نصفه الأيسر، كيف وصفته لي يومها بنصفه الشيطاني ونصفه الملائكي، وكيف أنه قام بالفعل نفسه بعد بضعة أيام، حين وقف مقابل لوحاتها بالفصل وأخفى نصف وجه الرجل الذي رسمته وضحك في وجهها؟ كيف بهرنا وقتها للمرة الألف، بأنه يقرأها ويرافقها يومها أينما كانت، ويريد لها أن تعلم ذلك، لكن يبدو أنه أراد لها استيعاب حقيقة أخرى تاهت عن إدراكها.

تلوح أمامي الآن الأشباح التي رسمتها دون دراية منها في لوحاتها، وتبدّت لها بوضوح في لوحة الرجل الأسمر، من كانت ترسم؟ أشباحها أم أشباحه؟ ظلّالها أم ظلّاله؟ مُنيت بنعمة رؤيتها لترهبها أم لتعلمها؟ وهل من أحد منا بلا ظلّال؟ النور يجلي الظلال، لا ليكشف عورتها ويستعيبها، بل ليتعرف عليها. أسخر من ذاكرتي الآن وهي تعيد عليّ ذكرى اليوم الذي قالت لي فائن فيه: «إن لوحاتها هذه ستجوب العالم ولن يشتريها أحد»،

كيف أخبرتني ضاحكة بأنها ستهبها لي، فحين وقفتُ أمامها، وتصورت في أول معرض شاركت فيه ببعض لوحاتها، بدوتُ بأجل حالاتي كما أكدت لي بانبهار مرارًا، متسائلة عن السبب وراء ذلك.

تقول إن الوجه الذي رأيته مني لم ترَ على أحدٍ مثله من قبل، وأتساءل عن سر ذلك، وأصل بعد أن سكن هذا السؤال رأسي لزم من لا نهاية له، إلى حقيقة أن بعض الأجوبة التي أسعدتني بعد أن أفض مضجعي معظمها، هو أنني على الطريق، حقًا عليه ولا شك لي بذلك، لذلك فأوجهي السوداء شرعت تبليج مني وتخرج إلى السطح، لأنني كما تقول، لا أحب الكذب. والأهم لا أحب أن أقوم به مع نفسي، فالمكاشفة مع النفس باتت واقعًا لا يمكنني تأجيله، وهو ما قمت به معها طوال الوقت. شرّحت نفسي أمامها بلا هوادة، سخرت من عيوبي وذلاتي، علّها تعينيني بالبرء منها. ربما يجهد الكثيرون بخلق كياناتهم الأخرى، ولا يسمحون إلا بالكيان المبالغ بلطفه بالظهور، إلى أن يخذلهم هذا الكيان في يوم من الأيام، ويولي ظهره مسرعًا بوجه الكثير من الأشخاص، لسبب من الأسباب التي نبتدعها بإتقان شديد.

كيف لها أن تنسى مقام أو حال الشك الذي مكثت فيه زمناً؟ حتى ألبرت لم يُعتقد من ارتياها، كنا ننام على احتمال لنصحو على احتمال آخر، أحاطته بظنونها حتى أتناها الأحرف الإنجليزية الأربعة لتجيبها عن سبب إعراضه عنها، ورغبته برحيلها عنه. ذاتها العليا كانت تطل عليها بأفكارها

ولغوها، فتبعدها عن السلام الذي كثيرًا ما دعيتني إليه. جاء اليوم الذي أحاطتني فيه أنا أيضًا دوائر الشك، وخرجت من الدوائر المقربة إلى أجل غير مسمى. انتزع وجهها الباهر بعيني المشرقتين من مجال رؤيتي، وتاه في الفراغ، ابتلعه النفق المظلم وأخذه إلى مدار آخر لن تطوله عيناى.

«حين تفقد الأنا العليا، تفقد الحدود. تُصبح لا نهائيًا، طيبًا وبهيًا» يوغى باجان(*)

وما أقربك صديقتي من ذلك! لقد أحبيتني على تطابقنا، حبًا يملؤه الشك، يكسوه الخوف وهو حب منقوص ومعرض دومًا للانكسار، أما أنا فبثقة لا يشوبها الشك، أحبيتك حبًا لا خوف فيه، حبًا كان حريًا بي أن أوجهه إلى كياناتي المتصارعة في داخلي. حبي لنفسي لا يزال محاصرًا بالخوف. وما أشد قبح وضعف ذلك الحب.

لم أبك والدي حين ذهبتُ للقاءه بعد غياب طويل، ترقّب قدومي فيه ليرحل بعدها بضع ساعات، إلا حين اتصلت، انتظرتك روحي ثم بكت ملء وجودها، ثم صمتت إلى أجل غير مسمى. لم تبك روحي إلا أمام روحها ولم تخرج من مخبئها إلا من أجلها، لم تطأطأ رأسها إلا لها، ووحدها يومها كفكفت دمعها وأدركت حجم وجعها كأنها بعض منها. ألم يبعث لها والدي بصورة جسده الساكن مسجى على سريرته، وأنا على باب بيتها

(*) «When you lose the ego, you lose the limit. You become infinite, kind, and beautiful» Yogi Bajan

أودعها قبل سفري؟ ألم يستأمنها على غيابه المقبل على وجه السرعة؟
كيف أنسى شوقي إلى لقائها؟ أم شوقها للقائي؟ عدوي إلى مكان
اجتماعنا يسبقني شوق أعرف خامته بدقة، كم يشبه ما يقود دربي حين
لقائي بتميم، ثم اللحظة التي ألتقي بها عينيها الشجيتين، وحوار روحينا
الطويل واقتطاعها له كلما ينفق بعضًا من زمن لتقول: «أود أن أطيل في
عمر الوقت لأكون معك وأنقل لك أكثر بكثير مما فعلت».

كم من المرات لوحت برحيلها عن ألبرت، وهلعها من مواجهة غيابه،
ولم يدعني ذلك أهاب رحيلها! كيف لم يخطر ببالي في كل حالات جزعها
بأنني قد آخذ مطرحها في يوم من الأيام، وأقف بذهول مراقبةً ظهرها يسير
بعيدًا عني؟ كيف أتوقع أن يخرج من عينيها الحميلتين، المشعتين بالحب
والفرح، كل ذلك الغضب والذعر ثم القسوة؟ هل كان مقدّرًا رحيلها
كرحيل كل المرشدين؟ هل كانت هي أم القدر يكتبان نهاية روايتي؟

بعد أن ترقبنا معًا ترابط الأحداث والرؤى، ووقعنا بانبهار على أعجوبة
كل ما يجري حولنا، كيف لا يذهلها ما حدث ليلتها؟ هي التي تجهد بقراءة
الإشارات والرموز التي لا يكف يرميها الكون في طريقها، كيف لم تدرك
ما كانت تبحث عن دلائله كل الشهور الماضية؟ ما الذي كانت تعيد رسمه
بلا كلل، يغرق كل شيء في أعماقه ليعود ويخرج متلائيًا على صفحته، ما
الذي كانت ترقبه حين ينعكس كل شيء بمرآته؟

ما الذي رأيته ينفد من ماء عينيّ؟

أفزعها سواد تعرفه جيّدًا وهالها تجليه أمامها ببأس وبإصرار، كأنه ما بارحها يومًا، أليس كذلك صديقتي؟

كم تغّينا بتطابقنا، وبتشابه مسالكنا وعذاباتنا، بوجومي أمام الكلمات وبوجلها أمام الألوان، أفلن يشبه شيطاني شيطانها! هل أخذت ظلاّلي وشياطيني كل هذه السنين وحدي؟ وكم من العمر ظنت أنها ستفلح بخنق شياطينها وأشباحها ودفنها في دواخلها؟

ما الذي أهلك حين لاح شبحي أمامك، ونظر خائفاً إلى عينيك؟ قبحه، أم تشابهه مع شبح من أشباحك؟

حتى مقارعة شياطيننا، كان لنا حظ أن نقوم بها أمام بعضنا. قد تختارين الآن أن تلغي حضوري في زمنك وستعين في الوقت المناسب لك، كيف تواجهين مخاوفك وتصافحين أشباحك وتتوحدين مع ظلالك.

في أول رحلة نجمية لك، من كانت تلك الطفلة التي تجلس على سريرها بين الأوراق ولماذا كانت الريح تحاول أن تطيرها مع أوراقها من المكان، فيما جسمها الأثيري يتابعها من علو؟ أي من كائناتك كانت تلك الطفلة الصغيرة وما الذي كنت تتظرينه أم تهاينه من الكلمات؟ وفي سفر نجمي لاحق وقبل أن يغادر أثيرك غرفتك، لمن كان ذلك الوجه ذو العينين اللامعتين الذي بزغ لك من سطح المرأة، وأخافك حين حدّق وجهك بسطحها؟

أشحت بوجهك عنه وتابعت ترحالك ولم تتسألي، كيف أنظر إلى المرأة فلا أرى فيها صورتي؟ ما دمت تهريين من نفسك وتدفين ظلالك وتخرسين همساتها، تدعين الفرح كما القوة، وتهابين الحزن كما الضعف، كأن في إمكانك البرء منهما. في مكان آخر لا يشبه مقهانا، التقيت بليلي ولحقتُ بكما كعادتي، تحاورنا، كما أراد لنا ألبرت أن نتخاطب أخيراً، فما كان يليق بنا الكذب على أنفسنا أكثر مما فعلنا.

تمر أيام وراء أيام ولا ترجع عن قرارها ولا يطرأ على محبتي لها أي تغيير. أسترجع عينيها فتطل روحها الطيبة المحبة ثم تترقق عيناها في مخيلتي بالدموع كعادتها، فأبادلها الذكرى بدموع كم تحبها ولا تبصر فيها إلا جوهرها.

ما الذي سيتباني حين أقرأ على نفسي كل ما حدث بيننا، هل سيخبو ألق كل ما كان!

منذ يومين، تبعث لي صديقة هاوية برسمتها، التي يبدو أنها أنجزتها في إحدى دورات الرسم، فتكون لصخور ومياه تجري من حولها، لوحة عادية، أتوهم شبهها بلوحة فاتن، أثني صديقتي عليها بعبارات بسيطة وأنهر نفسي عن التفكير والتحليل. أنا كمونيته الآن، أقف أمام كلماتي وأنتظر تلك اللحظة التي سأدلف منها إليها، فيعود إليّ ألقها، لا بد لي أن أعامل حكايتنا كحدث خارج عن الزمن، ولا يحق لي أن أراه بعيون زمن يُنفق على عجل كغيره.

لا وجود للصدفة هنا، لا اليوم ولا بالأمس، كل ما جرى ويجري يتبع منظومة رقمية أو عجائبية أو سحرية ما، نتشارك مع الكون في خلقها، نأخذ منها ونعطيها، ونصل بها إلى أمكنة ووقفات كثيرة على طريق صحونا. وقوفنا على مسرح زمننا بكل لحظة فيه، إشارة أو عبرة، علامة حملناها معنا إلى اللحظة التي تليها لنصل إلى هنا، إلى هنيهة نرى بها حقيقة لم نتحصّر لها، ولسنا بالضرورة حملها. ربما أوهم نفسي الآن بأنني رأيت الصورة بأكملها، وأشك بأنها على ثقتي بها، فعلت، وكم يجرحني ذلك أيضًا.

من قال إن طريق النور مخوف بالأزاهير دومًا!

أين الصوت الذي لا يفتأ يسخر مني ويتوقع إخفاقي في هذا العمر أيضًا؟

أضحك ملء نفسك الآن! فجرحي اليوم هو الأكبر.

كان لا بد للدرس أن يكون صاخبًا حتى أتلفت أخيرًا وأنصت إليه. لم تهزني بما يكفي كل الدروس الماضية، واستحقيت صفقة على هذه الدرجة من الشدة.

كم أود أن أتصل بك وأحدث إليك، أطلعك على آخر اكتشافاتي، أبكي وأضحك معك على أنفسنا، لقد أدركت اللعبة الآن، وأرغب أن أنظر في عينيك حين تدركينها أنت أيضًا.

لن يُعني أحد بالتعرف إلى كياناتي جميعها، وأعي الآن بأنه عليّ أن آذن

لها أن تنبلج واحدة تلو الأخرى وتعرفني على حالها، فلكل منها قصتها وأوجاعها وما أخفت نفسها عني إلا خشية مني. تراه استكان أحدها لك واستنجد بك بدلاً مني؟ أيّا كان الباعث وما آل إليه الأمر، أعزم أن أحتضن عذاباتي في كل زمن وما خلقت في داخلي من وجوه، وجه لطفلة وحيدة عمرها ثلاث سنوات ترمي رسالة بأحرف من ابتداعها كما يفعل الكبار، مجردل مسح الأرض لوالدها، علّها تلتفت إليها، ووجه طفلة عمرها ست سنوات في ساحة مدرسة، تنظر إلى طعامها يختطفه منها الصبية ولا تقول شيئاً، ثم تقف حين تبلغ العشر سنوات في الفصل لتلقي قصيدة، فلا يخرج منها الحرف الأول، ولا يعود لها صوتها لسنوات طوال، ووجه باكٍ لشابة في التاسعة عشرة تُشبك يدها بيد شاب، توقن بداخلها أن عمره سيكون قصيراً، وفي يوم قريب تضم يدها إلى جنبها وتقف الوقفة ذاتها على قبره، ووجه يحمل رضيعاً وحيداً هو الآخر ويبكي ليسافر به من مكان إلى مكان، ووجه يترقب بصبر أن تنظر عينا تميم إلى عينيه، ووجه يقف على أنقاض مدينته ويرى الموت أمامه يحمل حصاده كل يوم ولا يرحل، ووجه ينظر إلى الفراغ، إلى الثقب الأسود، إلى العدم فيضيّع طريق العودة. لكل شبح من أشباحي مبرراته وأسبابه، وأود بصدق أن أقبلهم جميعهم، أضممهم إلى صدري وأكفكف دموعهم، وربما حين يحين الوقت، أودّعهم وأطمئنهم بأن كل شيء سيكون على ما يرام أخيراً، ثم أدفنهم جميعاً إلى النور.

من مهازل ما خطته يدانا لأقدارنا، أن تُغرم فاتن بالبرت، فيدفعها

عنوة بعيداً عنه، فتتعرف جلياً على العشق اللانهائي، وهو ما فتى يردده على مسامعها، حين طلب منها أن تدع صخرتها تسقط، وتتخلى من تعنتها بالصمود، كان يدعوها إلى الحب الأكبر حين كانت لا ترى إلا دعوته لـحب لا تعرف كيف تكون الحياة خارج جدرانها، وهو تماماً ما قمت به حين همت بتميم، وتقت إليه كأن لا رغبة لي في الدنيا سواء، ثم تعلقت بفاتن، كأن مالي من خليل نفذ إلى دواخلي مثلها، وفي طريقي إليهما وصلت إلى حب طال صراعي معه سني عمري كلها، أضعته ولم أره في الأماكن التي أشارت إليها كل الأنامل الممتدة نحوه، لأجده ينتظرنى بكل الحُلم والشغف.....

في داخلي.

أصحو بعد بضعة أيام، ويحل عليّ سلام أضعته منذ فترة، وعلى شدة اشتياقي لفاتن، وحزني على ما تشعر به نحوي، أعني أن ذاك اليوم، الذي اتصلت فيه بي، لم يكن مشؤماً.

أتنفس بعمق الكثير من الأنفاس، أعوم على سطح السكون أخيراً، أفتح حاسوبى، وفي غياب وقتي لمخاوفي، أشرع في الكتابة.

المؤلفة في سطور

ريم شعبان

- مواليد دمشق
- حاصلة على البكالوريوس في الهندسة الكهربائية من جامعة الكويت.
- تقيم في مدينة تورونتو الكندية
- البريد الإلكتروني reemshaaban11@gmail.com

